أحرار... لا زنادقة

أعلام التنوير في الإسلام

دراسة في أهم الرجال والنساء
الذين أسهموا في تنوير الحياة

د. محمد حبش

مدير مركز الإخاء الإنساني
أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية القانون - جامعة أبو ظبي

نفرتيتي

أحرار... لا زنادقة
أعلام التنوير في الإسلام

د. محمد حبش

الناشر: نفرتيتي للنشر

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
رقم الإيداع: 2023/28722
الترقيم الدولي: 978-977-6865-79-2

تصميم الغلاف: طارق محمد إبراهيم

المستشار الفني: عبدالله أحمد

الإشراف العام: السيد عبد الفتاح

الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
وجميع الحقوق محفوظة

دار نفرتيتي للنشر والدراسات والترجمة
٢٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
٢٧٩٠١١٠٤ ٠١١٤٨٨٥٢٦٦٨
nefertitipst@gmail.com

أحرار... لا زنادقة

أعلام التنوير في الإسلام

دراسة في أهم الرجال والنساء
الذين أسهموا في تنوير الحياة

تمهيد

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مساهمة في التعريف بمجموعة من الرجال والنساء الذين كانوا أبرز رجال التنوير خلال التاريخ الإسلامي من عصر النبوة إلى عصرنا الحاضر.

وقد تم اختيار الرجال والنساء في هذه القائمة من أولئك الذين قدموا شجاعة استثنائية، واستطاعوا أن يقدموا فكراً حراً، يتبع العقل ويحترم النقل ويقدس الإنسان.

لا شك أن الأسماء كثيرة، والتجارب الإصلاحية متعددة ومتتابعة، وهي لم تنقطع خلال التاريخ، ومع أنها واجهت عسف السياسة ومكر التنافس وقوة النص، ولكنها نجحت في إحياء موجات ثقافية وعلمية وتنويرية بارزة.

ويأتي هذا الكتاب جواباً على السؤال الذي يطرحه التيار السلفي باستمرار كلما طُرح موقف تجديدي: من قال بهذا القول من قبلك؟ وهل كان الناس جاهلين وأغبياء من قبل حتى فاتتهم هذه المعرفة؟

إن ما يجمع الرجال الذين نوردهم في هذه القائمة أنهم نالوا قدراً كبيراً من الاحترام خلال التاريخ، وأنهم بالفعل أعلام كبار في التاريخ، ولا نشك أنهم كانوا يستطيعون أن يقدموا ما يطلبه الجمهور ويرفلوا في العسل ولكنهم قادوا كفاحهم على بصيرة من العقل والإرادة، واستطاعوا أن يضيئوا جانباً من الدرب للأجيال الآتية.

كما يجمع بينهم أنهم أيضاً واجهوا العناء في حياتهم، وتعرضوا للكيد والأذى، ونالهم السوء وأصابتهم المكائد، بل إن بعضهم دفع حياته ثمناً لمواقفه، على أنني لا أريد المبالغة في ذلك، ولا أرغب أن أصوّر المجتمع الإسلامي مجتمعاً طارداً للكفاءات ورافضاً للحريات، بل إنهم كثيراً ما حققوا النجاح والثروة، وعملوا كوزراء وقضاة ومستشارين، وأعتقد أنه من الخطأ ربط السياسة بالتنوير أو التجهيل، فالسياسة عموماً ترحب بالتنوير وتدعم أهل العقل والحكمة، ومن شأن الحاكم الناجح أن يقدم أصحاب العقول المستنيرة وأن يكف أصوات التخلف والتعصب، ولكن خبرتي في هذا السبيل أن السياسة في بلادنا وإن زعمت أنها تدعم التنوير فهي لن تتقبل من التنوير خطابه بشأن الحرية والكرامة، والمحاسبة والمساءلة، وحين

تتعرض لأدنى ضرر بسبب المبادئ فإنها تتخلى عنها على الفور، وربما تبطش بأعلام التنوير أيضاً، وهذا ما حصل في التاريخ بالفعل، وهو ما يفسر النكبات التي تعرض لها ابن رشد والفارابي ولسان الدين بن الخطيب وابن المقفع وآخرون.

وسنصدر الكتاب بتقديم قائمة بالرجال والنساء المائة الذي حققوا تطوراً حقيقياً في تاريخ التنوير في الإسلام، على أنني أجد نفسي مطالباً بالاعتذار مقدماً من المرأة المسلمة التي ستكون قليلة الحضور، ويجب الاعتراف أننا لم نفعل ما يجب لتمكين المرأة في التاريخ من دورها الحضاري والرسالي، وأنها كانت بالفعل نتيجة واقع متردٍّ من اضطهاد النساء وتغييبهن عن الساحة العلمية والإدارية.

ومن المدهش أننا سنجد في عصر الصحابة فقط نماذج مقنعة من مشاركة المرأة في التنوير، فيما يتضاءل هذا الحضور تاريخياً حتى يكاد ينعدم.

ويمكن الإشارة إلى أهم المعايير التي اعتمدتها في تقييم حضور المفكرين والأحرار في هذه القائمة عبر المعايير الأربعة التالية:

- أشخاص معروفون لهم تاريخ مدوّن في كتب الطبقات والتاريخ الإسلامي.
- يحظون باحترام واضح لدى جزء من أبناء الأمة الإسلامية.
- تركوا أعمالاً مكتوبة أو صدرت عنهم أعمال مكتوبة تشير إلى دورهم التنويري الواضح.
- التزموا باحترام العقل وكرامة الإنسان ولم تنقل عنهم مواقف ازدراء للبشر بسبب اختلاف الدين أو المعتقد أو اللون أو العنصر.

باختصار.. إنهم الرجال الذين يمكن اعتبارهم قدوة في التاريخ الإسلامي في حقوق الإنسان، وكانوا ملهمين وحكماء وقد سبقوا عصرهم ونادوا بحقوق الإنسان وفق ما أقرته البشرية في كفاحها الطويل.

وقد أردنا بالشرط الأول تجنب الحديث عن الشخصيات الوهمية أو حتى الحقيقية التي ليس لها حضور في كتب الطبقات حتى لو تداول الناس عنهم بعض الحكايا والروايات.

وأردنا بالشرط الثاني التأكيد على أن من معايير التنوير الحقيقي أنه يحظى بعدد من الأتباع قلّوا أو كثروا، ويخرج بهذا الشرط الأشخاص الذين قدموا أفكاراً جميلة ولكنهم تورطوا في مخازي أو جرائم لا تليق بالعلم ولم يظهر لهم أي أتباع أو محبون.

وأردنا بالشرط الثالث أن نحصر القائمة بأهل الرأي والعلم، ولن يدخل فيها مشاهير السياسة والمال الذين نُقلت عنهم مواقف تنويرية ولكنهم لم يكتبوا في ذلك أو لم يحظوا

بدراسات وافية تشرح فكرهم في التنوير.

وأردنا بالشرط الرابع أن نحدد المقصود بالتنوير الذي نريد، وهو بوضوح إكرام العقل واحترام النقل، وتقديس الإنسان، والقدرة على التعامل مع النص الديني باحترام نوراً يهدي وليس قيداً يأسر.

ومع ذلك فيجب أن لا نتصور الاتفاق التام مع ما رُوي عنهم، بل نحن نقدرهم لمعنى تفوقوا فيه وربما لموقف سبقوا إليه، وربما كان فيما يُروى عنهم نقيض ذلك، وفي بعضه أثرة وأنانية وضيق أفق، وهذا في الواقع شأن الرواية التاريخية وطبيعة الإنسان، فخذ ما صفا ودع ما كدر.

وليست دراسة هؤلاء الآباء الكرام محض بحث في التاريخ.. إنها إعادة لرسم المثل الأعلى في ضمير جيل حائر بات لا يرى في تاريخنا إلا خطاب الخرافة والتخلف... بعد أن تمت تعمية أئمة الهدى والرشاد.

الناس أعداء من ينصحهم

دخل اللص إلى الدار فصاح الديك فاستيقظ الأب والإخوة وطاردوا اللص فأوثقوه وسلموه للشرطة فاعترف بمسروقاته وتم رد السرقات في القرية إلى أصحابها وفرح الجميع فقاموا بذبح الديك!

من المؤسف أن يكون قدر العالم أن من يوقظهم ويصحيهم فإنهم يذبحونه. وهكذا كان الأحرار خلال التاريخ إذا نادوا بإصلاح المجتمع ويقظته يواجهون جحافل التعصب والتزمت الرافضين لكل نور جديد.

حتى الرسول نفسه وهو الصادق الأمين أحبوه صالحاً ولكنهم كرهوه مصلحاً، ولو أنه بقي محض ناسك عابد لأغدقوا عليه ثناءهم، ولكنه ما أن تحول إلى ناقد مصلح حتى بدؤوا باتهامه وتخوينه وقتله معنوياً، وخلال عشر سنوات من الصدود انتهى الأمر بشيوخ مكة ورجال الدين فيها وأشد عوائلها تمسكاً وخدمة للبيت الحرام بأن الواجب الديني وشرف الكعبة يقتضي أن يذهب إلى دار محمد أربعون سيفاً من القبائل فيضربوا رأسه ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه بين القبائل.

أكتب ذلك في أعقاب ما نشهده هذه الأيام من معارك الوهم البائسة حيث تشتد نزعات التخوين والاتهام في كل مكان، وحيث يتعين على من يحمل الجرس أن يسمع أطنان الشتائم في جو انفعالي صاخب عقب عشرية سوداء ما زلنا ننتقل فيها من فشل إلى فشل، وكذلك

الأمم الفاشلة تسوء أخلاقها كما قال عالم الاجتماع الكبير ابن خلدون.

ولكـن هل يسـتند هذا الصخـب الهادر من الاتهامات والشـتائم إلى أدلة من الشـرع؟ وهل الشرع بالفعل قامع للاجتهاد والتفكير، معادٍ لكل رأي حر؟

لا أتردد في الجواب أبداً أن أدلة الشرع واضحة في النص على حق الإنسان في الرأي وحقه في التفكير ولو أدى به إلى خلاف ما يعتقده الآخرون، فكل مجتهد مأجور، ولا إكراه في الدين، ولو شـاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، ولسـت عليهم بمصيطر وما أرسلناك عليهم وكيلاً وما أرسلناك عليهم حفيظاً.

ولكن المشـايخ يقولون: نعم، الاجتهاد مطلوب ومشـروع ومأجور، ولكن يجب أن يصدر من أهله وبشرطه وفي محله، وإذا أرادوا الاستدلال على الاجتهاد المشروع نقلوا مسائل شكلية مثـل أن المصلـي حـال القيام يعقد على كفيه عنـد الحنفية وعلى معصميه عند الشـافعية وعلى ذراعيه عند الحنابلة ويسـبل يديه عند المالكية... فهذا كله اجتهاد مشـروع بالأدلة، وعلى هذا فقس، ومع ذلك فالسـادة السـلفية يرون هذا الاجتهاد ممنوعاً ويجـب المصير إلى الدليل وأي رأي وراء الدليل عبث ومعصية.

ولكـن هـذا اللون من الاجتهـاد في الواقع لا يتصـل بالحرية الفكرية في شـيء، وهو محض تأويلات لروايات متناثرة لا تزيد أن تكون محض فاكهة لفظية نجمل بها وعينا ونرضي غرورنا ونقنع أنفسـنا أننا نمارس الرأي الحر، ولكن ذلـك لا يتصل أبداً بذلك الأفق الكبير الذي منحه الله للمسلم من حق الاجتهاد والاختلاف عن الجمهور.

الاجتهاد الحيوي هو ذلك الذي لا يعرف حدوداً على حرية الفكر، ويفتح الآفاق إلى الغاية، ومن الطبيعي تماماً أن يكون في الاجتهاد المأذون أن يقول فريق من المتحاورين أن الله موجود ويقول الآخر لا نرى ذلك، ويقول الأول القرآن من الله ويقول الآخر لا نرى ذلك، ويقول الأول النبي صاحب وحي ويقول الآخر لا نرى ذلك، ويتقدم كل فريق بما لديه من حجج وبراهين.

إن هذا الموقف ليس بدعاً في التاريخ الإسـلامي فقد عرفته الأمة بوضوح إبان عصر المجد الإسـلامي وكلنـا يذكر أبا حنيفة فـي حواراته مع الدهريين الذين كانوا ينكـرون الخالق، ومع ذلـك فحيـن كانت المناظرة تنتهي وينتصر أبو حنيفة كما نشـتهي فإن الدهريين لا يُسـاقون إلى السجون ولا يُصفعون على أقفاءهم ولا يُبصق عليهم المجتمع ولا يشتمهم السفهاء، بل كانوا يذهبـون ليكتبوا كتبـاً جديدة، ويقدمـوا ردوداً أخرى، وكان الخلفاء مسـتعدين أن يدفعوا ثمن الكتـاب الجيـد وزنه ذهباً وقد دفعـوا ذلك في كتب اليونان رغم أن معظمها في فلسـفة الطبيعة

وقدم العالم.

وحتى لا نكون واهمين فهذه مثلاً خمس قضايا نُسبت إلى أكبر أعلام الإسلام شهرة واحتراماً.

- القول بقدم العالم وأن العالم لا أول له.
- القول بأن الجنة والنار مجاز لا حقيقة.
- القول بأن حجاب المرأة أدب كريم وليس فرضاً ملزماً.
- القول بأن الوحي كسبي وهو لون عالٍ من الإشراق.
- القول بأن كل مجتهد مأجور حتى لو اختار ديناً غير الإسلام.

فهذه المسائل الخمس التي تبدو لنا اليوم كفراً بواحاً، تثير غضب رجال الدين ويطالبون الحكام المستبدين بالضرب بيد من حديد على قائليها دفاعاً عن الإسلام لم تكن كذلك في عصر الإسلام الذهبي، وكانت تنسب إلى أصحابها بدقة وأمانة وفيهم الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة وابن طفيل والكندي والرازي، ومع أن هؤلاء نالوا نصيباً كبيراً من التكفير والاتهام والتهديد من الغوغاء، ولكنهم نالوا احتراماً كبيراً من النخب الثقافية والعلمية والسياسية أيضاً وكانوا وزراء وقضاة على غاية من الاحترام.

وكانت هذه الأفكار التي نظنها اليوم كفراً محض آراء اجتهادية محترمة يدرسها طلبة العلم الشرعي في درس المنطق وينسبونها لقائليها باحترام، ويردون على أصحابها بالبرهان دون أن تسمع ما تسمعه اليوم من قولهم: قال المجرم وافترى الدجال الكذاب، وقال عدو الله والإسلام، وهلكت الكافرة الفاجرة، وغير ذلك من الشتائم التي لا تليق بأي أمة متحضرة والتي هي إلى ممارسات القمع والجاهلية أقرب منها إلى هدى الحرية والإسلام.

وهذا الموقف ليس بدعاً في القرآن الكريم فقد قدم لنا القرآن الكريم عدداً من النماذج المتقدمة في فقه الحوار فكان يقول دوماً قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، وكان لا يزعم امتلاك الحقيقة بل يقول: وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، فقد نصب منصة لمحاوريه تتساوى مع منصته، ولم يصادر على الحقيقة، بل أشار إلى احتمال أن يكون خصومه على صواب! وفي حوار آخر كان أكثر ديمقراطية في الحوار وقال: قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما كنتم تعملون، فوصف أفعالهم بقوله تعملون، ووصف فعله بقوله: أجرمنا.

وفي المهرجان السماوي الأشهر الذي ذكره القرآن الكريم عشرين مرة حين خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود برز من الملائكة إبليس ورفض الأمر الإلهي، وبرر اختلافه بصراحة

ووضوح أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، ولكن الله لم يأمر بسحق إبليس ومحوه من الوجود وهو على ذلك قدير، لقد استمع إليه وأجاب طلبه ومنحه ما أراد من زمن ووسائل، وتركه يمارس خطته المناقضة تماماً لخطة الله، ودعا الناس إلى ممارسة مسؤولياتهم في الوقاية من الشيطان ولم يستخدم القمع والإبادة وقد كان على ذلك قديراً وما ذلك عليه بعزيز.

وهذا الأفق القرآني الحكيم حمل عدداً من فلاسفة الإسلام وعلى رأسهم الجاحظ والحسين بن عبد الله العنبري إلى القول بصراحة ووضوح كل مجتهد مأجور ولو أوصله اجتهاده وبحثه إلى دين غير ديننا وإلى شرع غير شرعنا، تأسيساً على معنى الآية: قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين.

مؤسف أننا نملك قرآناً بهذا الوضوح، وتاريخاً بهذه الحرية والمسؤولية والاحترام، ولكننا نترك كل ما فيه من قيم الحوار والاختلاف ونمارس ضد الرأي الآخر أبشع الشتائم على المختلف في شكله وصورته وقضاء الله وقدره فيه، في خطاب انفعالي هائج يفتقر إلى الحد الأدنى من الأخلاق.

من المؤلم أن الناس تريد من النخب الفكرية أن تقدم ما يطلبه الجمهور، أما أولئك الذين يكتبون ليوقظوا الناس ويبعثوا في العقول الإرادة، ويمنحوا الناس فضاء الحرية في الفكر فتطالهم سهام الزندقة والتكفير، ويتم اعتبارهم وتصنيفهم أعداء لله ولرسوله، وتتحول ذكراهم إلى مباريات في الشتائم الرخيصة تظهر أسوأ ما فينا من أخلاق وتكفر بالاختلاف والتنوع والرأي الآخر.

لن تتقدم هذه الأمة إلا حينما تؤمن بحق الاختلاف وتحترم المختلف، وتمارس النقد الجريء لكل ثوابتها بوعي وبصيرة، وتنطلق نحو المستقبل. قد يكون الماضي مقدساً وقد لا يكون.... ولكن المستقبل هو ما يجب أن يكون مقدساً لكل أمة تريد الحياة.

مائة رجل في تاريخ الإسلام التزموا إكرام العقل واحترام النقل

وهم بكل تأكيد ألوف كثيرة وقد درسنا في كتابنا هذا ٣١ منهم إضافة إلى مجموعتين، ونأمل أن نوفي الجميع مكانه ودوره فيما يأتي من الأيام، ولكنني أحببت أن أودع هذه القائمة وأنا أشعر بالأسى لما تعرض له هؤلاء العلماء من تشويه وتشكيك خلال التاريخ، في سياق الصراع بين أهل الرأي وأهل الرواية.

١. عمر بن الخطاب
٢. عبد الله بن عباس
٣. عائشة بنت أبي بكر
٤. علي بن أبي طالب
٥. سكينة بنت الحسين
٦. عائشة بنت طلحة
٧. رابعة العدوية
٨. عمر بن عبد العزيز
٩. غيلان الدمشقي
١٠. الجعد بن درهم
١١. ابن المقفع
١٢. أبو حنيفة
١٣. أبو يوسف القاضي
١٤. محمد بن الحسن
١٥. محمد بن شاكر
١٦. الجاحظ
١٧. الكندي
١٨. الحسين العنبري
١٩. بشر المريسي
٢٠. ابن الراوندي
٢١. صالح بن عبد القدوس
٢٢. الخوارزمي
٢٣. عباس بن فرناس
٢٤. اليعقوبي
٢٥. أبو الفرج الأصفهاني
٢٦. الفارابي
٢٧. أحمد بن فضلان
٢٨. ابن جرير الطبري
٢٩. ابن سينا
٣٠. المسعودي
٣١. ياقوت الحموي
٣٢. الماوردي
٣٣. السهروردي
٣٤. عمر الخيام
٣٥. فريد الدين العطار
٣٦. ابن طفيل
٣٧. البيروني
٣٨. البتاني
٣٩. ابن الهيثم
٤٠. مسكويه
٤١. ابن قتيبة
٤٢. ابن منظور
٤٣. أبو العلاء المعري
٤٤. أبو حيان التوحيدي
٤٥. الشهرستاني
٤٦. ابن الأثير
٤٧. أبو زكريا الرازي
٤٨. الفخر الرازي
٤٩. عبد القادر الجيلاني
٥٠. جلال الدين الرومي
٥١. العفيف التلمساني
٥٢. ابن رشد
٥٣. ابن باجه
٥٤. ابن عربي

٥٥. نجم الدين الطوسي
٥٦. ابن خلدون
٥٧. ابن عرضون
٥٨. لسان الدين بن الخطيب
٥٩. رشيد الدين الهمداني
٦٠. القرافي
٦١. أبو حنيفة الدينوري
٦٢. عبد الكريم الجيلي
٦٣. ابن الفارض
٦٤. ابن سبعين
٦٥. ابن حزم
٦٦. ابن جبير
٦٧. الإدريسي
٦٨. ثابت بن قرة
٦٩. جابر بن حيان
٧٠. ابن عبد البر
٧١. نجم الدين الطوفي
٧٢. الشهاب النويري
٧٣. أمير خسرو الدهلوي
٧٤. عبد القادر الجزائري
٧٥. عبد الرحمن الكواكبي
٧٦. رفاعة الطهطاوي
٧٧. جمال الدين الأفغاني
٧٨. محمد عبده
٧٩. قاسم أمين
٨٠. علي عبد الرازق
٨١. طه حسين
٨٢. محمد إقبال
٨٣. عبد الحميد بن باديس
٨٤. مالك بن نبي
٨٥. عبد الله العلايلي
٨٦. مهدي شمس الدين
٨٧. حسين فضل الله
٨٨. الطاهر الحداد
٨٩. الطاهر بن عاشور
٩٠. جمال الدين القاسمي
٩١. علي عزت بيغوفيتش
٩٢. روبرت كوين
٩٣. مراد هوفمان
٩٤. روجيه غارودي
٩٥. عبد القادر السنهوري
٩٦. مصطفى الزرقا
٩٧. حسن الترابي
٩٨. الصادق المهدي
٩٩. وحيد الدين خان
١٠٠. جودت سعيد

عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب		
الاسم الكامل	عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، من لؤي، يُسمى أمير المؤمنين	
ألقاب مشهورة	الفاروق ـ الخليفة العادل	٥٩٠م-٦٤٤م
التاريخ	٤٠ ق.هـ - ٢٣ هـ	
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد بمكة وزار الشام والقدس وتوفي بالمدينة	
أهم ما ألف عنه	هناك مئات الكتب التي أفردت للحديث عن عمر بن الخطاب، وهذه نماذج مما كتب عنه باللغات العالمية	
أهم من تأثر بهم	الرسول الكريم ـ أبو بكر الصديق	
أهم من تأثروا به	جيل الصحابة ـ التاريخ الإسلامي كله	

أهم القضايا التي نادى بها في الإصلاح الديني	• الاجتهاد في مورد النص • إصلاح فقه الجهاد • إصلاح فقه الحدود • إصلاح فقه العدالة • موافقات عمر
مساجد بُنيت باسمه	هناك آلاف المساجد بُنيت باسم عمر بن الخطاب في سائر المدن الإسلامية
الضريح	في حجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام

عمر بن الخطاب أشهر خلفاء الإسلام وواحد من أبرز رموز العدالة والحكمة في العالم، وقد أنزلـه النبي الكريم منزلة خاصـة، وورد فيه حديث رواه الترمذي وأحمد: لو كان بعدي نبي لكان عمر، ومنزلته كبيرة في الإسلام والفقه والعقيدة والشريعة.

ومع أن عمر اشتهر بالقوة والشجاعة والصلابة، ولكننا نادراً ما نروي مواقفه الجليلة أيضًا في الحكمة والبناء والتشييد، وكذلك رسالته في الإصلاح الديني.

كان على رأس الناطقين بكلمة الحق، وكان صوته في تحدي المشركين هو الصوت الأعلى، وحين هاجر المسلمون فرادى متخفين هاجر عمر جهاراً نهاراً وقال كلمته الواضحة: من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده فليلقني وراء هذا الوادي فإنني مهاجر الآن!!

وعلى الرغم من عباراته الطافحة بالتحدي ولكنه كان في الواقع عنيف اللسـان رحيم القلب، وفي حياته الطويلة شـهد مع الرسـول الكريم المغازي كلها وكان يقترح الثأر والقصاص وارتبط اسـمه بالصلابة والثبات والشـدة، وسـتتولى هذه الصفحـات التعريف بعمر بن الخطـاب إدارياً حكيماً ومصلحاً دينياً في غمار الصورة المشهورة له محارباً ضارياً.

وعلـى الرغـم من شـدته، وطلبه المتكرر مـن النبي أن يقتـل أفراداً من المشـركين، ولكن من المؤكـد أن مطالباتـه بالقصاص كانت تنتهي دوماً بالموادعة والسـلم، وكأنما كان يظهر التشـدد ليضمن للناس الوسـط والاعتدال، وربما كانت هـذه الحقيقة هي جواب أبي بكر عندما اعترض عليه طلحة في استخلافه عمراً من بعده، وقال: ماذا تقول لربك إذا وليت علينا فظًا غليظاً؟ فقال:

أبالله تخوفوني؟! أقول: وليت عليهم خير أهلك، أني أرى ما به من الشدة لما يراه بي من اللين، ولو قد ولي لكان للناس حلماً ورحمة.

وفي الواقع فإن الحديث عن عمر بن الخطاب لا ينتهي فالرجل مدرسة عظيمة في الحكم والعدالة والإدارة واليقين، ولكن سنختار الحديث فقط عن دوره في الإصلاح الديني.

جهود عمر في الإصلاح الديني:

لا شك أن عمر بن الخطاب هو أشد فقهاء الإسلام شجاعة وحيوية، وقد اشتهرت موافقاته الكثيرة التي كان الوحي يأتي فيها على نسق اقتراحه، ولا تزال اختياراته الفقهية ملهمة للفقهاء المسلمين، وقد نالت في تاريخ الفقه الإسلامي اعتباراً متميزاً نظراً لكونها المقصودة بوصية النبي الكريم: عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ.

وسنفصّل القول في الإصلاحات الدينية البارزة التي أطلقها عمر بن الخطاب وكان لها تأثير مباشر على حركة الفقه الإسلامي، وفي الواقع فإنه لا مبالغة في كل ما يُروى عن دور عمر التأسيسي في الفقه الإسلامي ووضع أصوله ومصادره.

جمع القرآن الكريم:

تجمع كتب الرواية أن عمر بن الخطاب هو الذي بادر إلى فكرة جمع القرآن الكريم، في وقت مبكر، وقد أثار اقتراحه استغراب أبي بكر الصديق الذي قال: إنها بدعة لم يقدم عليها رسول الله، وقد دلت ظواهر النصوص على ترك جمع القرآن الكريم، فهو شأن الله وأمره: لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، وقوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

وفي الواقع فقد كان عمر يقدم أول اجتهاد في مورد النص، ومع أن الصديق تمسك برأيه أنه لا يوجد أي أمر أو وصية من رسول الله بذلك، ولكن عمر ظل يجادل في الأمر، ويقول: هو والله خير، وهو زاد الأمة وتراثها وذكراها وينبغي أن لا يضيع منه شيء، وبعد تردد ومشاورات مختلفة وافق الصديق على اقتراح عمر وتم جمع القرآن الكريم.

وفي الواقع فإن جمع القرآن الكريم وفر للأمة سلامة المصدر الأول للشريعة، وقد كان من الممكن أن يضيع في غبار المعارك، ولا نشك أنه قد تم في الوقت المناسب، ولو تم الالتزام بظاهر النص في منع جمعه وتأخر الأمر عشر سنين مثلاً لما انتهت الأمة إلى هذا الإجماع على حروف القرآن الكريم وسوره وآياته.

ويمكن تسجيل موقف عمر بن الخطاب في جمع القرآن بأنه أول اجتهاد في مورد النص في الإسلام ولا مبالغة في أثر هذا الاجتهاد الشجاع في قيام المصالح والاستحسان في الإسلام.

موقفه من حروب الردة:

وعقب موت النبي الكريم ظهر المرتدون وانقلبت قبائل كثيرة على الإسلام، واشتهر موقف أبي بكر الحازم في مواجهة الردة، كما سجل في التاريخ موقف عمر بن الخطاب الذي دعا إلى البحث عن خيار آخر غير الحرب.

وكان موقف أبي بكر في غاية الشدة في مقاومة الردة، سواء كانت امتناعاً عن أداء الزكاة أو الصلاة، وقال بوضوح والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة!!

وفي الواقع فإن عمر بن الخطاب أدرك بعمق وعيه خطورة المضي في موقف كهذا وما سيجلبه للأجيال الآتية من تبرير العنف للقضاء على المختلف الديني أو السياسي، وبالفعل فقد صارت قصة حروب الردة أقوى الأدلة التي يستدل بها القساة اليوم على وجوب قتل المسلم إذا ظهرت منه موجبات الردة في القول أو العمل أو إذا ما اختار التحول إلى دين آخر.

لقد أدرك أن الشروع في هكذا حرب سيحمل دلالات خطيرة تستمر إلى آماد بعيدة. كما نلاحظها اليوم فهي تبرر قتل الإنسان بناء على موقفه الديني. أو حتى على موقفه السياسي، وكلاهما أمر مرفوض أخلاقياً ودينياً، وخاصة في شريعة عنوانها لا إكراه في الدين....فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر... أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين!!

رفض عمر بن الخطاب فكرة الحرب.. وحاور بها أبا بكر طويلاً... وقال له: قوم شحوا بأموالهم أتقاتلهم؟ حتى اشتد الخلاف وقال له أبو بكر غاضباً: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا عمر؟ والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه!

في النهاية أصّر كل من الرجلين على موقفه ومضى رأي الخليفة، وأطاعه عمر وشرح بذلك صدراً ودعا له أن يوفقه الله للحق.

وفي الحقيقة فإنه لا خلاف بين الشيخين في قتال من قاتل، بل كان الخلاف في قتال من شح بماله أو ترك الصلاة فكان عمر يرى حوارهم والتفاوض معهم فيما رأى الصديق وجوب قتالهم.

كان رأي الفاروق مختلفاً عن رأي الصديق، وفي النهاية رضي عمر خيار الناس وأثنى على موقف الصديق، فاجتماع الأمة أولى من شتاتها، وحفظ التاريخ رأي عمر بن الخطاب في البحث عن سبل أخرى غير الحرب.

ومع أن عمر بن الخطاب لم يخرج عن برنامج الأمة في مواجهة المرتدين، ولكنه رفض التمادي في هذه الحرب، ورأى أن علينا أن ننهيها بأقل الأضرار وأن نعتمد في الحرب أخلاق الإسلام، وأن لا نسمح للسيوف أن توغل في دماء المخالفين، واشتهر في التاريخ موقفه من خالد بن الوليد، فقد اعترض أشد الاعتراض على تجاوزات خالد في حق مالك بن نويره، ومع أن الصديق لم يعزل خالداً وقال: ما كنت لأعزل سيفاً سلّه الله على المشركين، ولكن عمر بن الخطاب لم يكتم أبداً موقفه الشديد ضد خالد، واعتبر أن خالد يجيد خيار الحرب ولا يجيد خيار السلم، وقال إن في سيف خالد لرهقاً.

وهكذا فإن عمر وأن رضي قرار أبي بكر ولكنه لم يتوقف عن انتقاد هذه الحرب، وكان يتابع بقلق سلوك خالد بن الوليد الاندفاعي وقال لأبي بكر إن في سيف خالد لرهقاً، وحين تورط خالد في قتل مالك بن نويره غضب عمر أشد الغضب وطلب من أبي بكر أن يحاكمه بشدة. ولكن الصديق اعتبرها عثرة واكتفى بتوجيه اللوم دون عزله عن القتال.

وتدخل مراراً لمنع قتل المرتدين.. وقد شفع عند أبي بكر لأصحاب طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة حيث هرب إلى الشام وأسر أصحابه، ثم عاد معتذراً.. وشفع لأصحاب لقيط بن مالك الذي ادعى النبوة... وشفع لمن أسر من أصحاب مسيلمة الكذاب والأشعث بن قيس وأبو مريم الحنفي.. ونجح في تخفيف الأحكام وأودعهم سجناً في المدينة.

وحين عهدت الخلافة إليه كان أول قرار اتخذه هو عزل خالد بن الوليد، ولم يكن عزله لسبب شخصي أو قبلي بل قال بوضوح أن في سيف خالد لرهقاً، وأني أخشى أن يصيب من المسلمين مثل ما أصاب بمالك بن نويره، واتخذ قراره بعزل خالد بن الوليد وسحبه من جيش الفتح على الرغم من شهرته الهائلة ثم حاكمه أمام الناس.

وتذهب كتب التاريخ إلى المبالغة في وصف هذا الخلاف بين عمر وخالد ولكنني أميل إلى أنه كان خلافاً محدوداً، يتصل برؤية عمر في أن الحرب ضرورة والضرورة تقدر بقدرها، ولا ينبغي أن تكون الحرب هي خيار الأمة بل هي قدر ندفع به الشر عن الأمة، في حين كان خالد على درجة من الإقدام والشجاعة بحيث لا يهاب الحروب، وقد عاش حياته على ظهر جواده، وبكى على فراش الموت أنه يموت على فراشه وقال لا نامت أعين الجبناء.

وفي سياق آخر فقد قام عمر بن الخطاب أيضاً برد السبايا التي ساقها خالد وغيره من أمراء حروب الردة، وأمر برد هذه السبايا إلى أهاليها، وعوّضهم بانصاف عناء ما كابدوه، ودفع الفدية لأهاليهن، وهو موقف هام في رفض ظاهرة السباء كلها، أو قل هو اتباع حكيم لمنهج الرسول

الكريم في رفض السبي كله كما قدمناه في يوم حنين. (١)

وبعد انتهاء حروب الردة عقد عمر مؤتمرات مصالحة مع المعتقلين وقال لأصحاب المتنبئ لقيط بن مالك بالحرف: تعلمون أنني كنت ضد حربكم وقد شفعت لكم.. وهذا مالكم وسبيكم فخذوه.. وأنه لا سبي في الإسلام... فسيروا حيث تشاؤون من الأرض فأنتم أحرار.

أما طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة فقد عفا عنه.. واستفاد منه في حربه على الفرس وتحرير العراق.

أما السجناء من أصحاب مسيلمة فقد حاورهم.. وكان من أجمل حواراته معهم حواره مع قاتل أخيه أبو مريم الحنفي قال له: أنت أبو مريم.. والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم!! قتلت أخي... فقال أبو مريم: أحبني أو لا تحبني إنما يأسى على الحب النساء!

ثم قال له: يا عمر! إن الله أكرم أخاك بيدي ولم يهني بيده.

تكرر الموقف نفسه مع طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة: حين قال له عمر: أنت قاتل الرجلين الصالحين، يعني ثابت بن أقرم وعكاشة؟ فقال طليحة: أَكرمهما الله بيدي، فقال: والله لا أُحبك أبدًا. قال: فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين، فإن النّاس يتعاشرون مع البَغْضاء.

حروب الردة .. هي العنوان العريض المؤسس لحد الردة، وهو أشد الأحكام التي مارستها الفصائل الجهادية شؤماً ودموية، وقد صار هذا الحد هو التبرير المؤسس لحق الحكام في قتال مخالفيهم وإعدامهم.

بالطبع لم يكن عمر ليتردد أبداً في حرب المرتدين لو كان الأمر عدواناً على المدينة أو انفصالاً مسلحاً عنها، ومع أنه يمكن فهم القتال على أنه هجوم استباقي لمنع حصول ذلك، ولكن أبا بكر لم يستخدم ذلك في تبرير الحرب وإنما قال لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

إصلاح ثقافة الجهاد:

واشتهر في التاريخ موقف عمر بن الخطاب في إصلاح ثقافة الجهاد، فقد تلقى الصحابة الكرام ثقافة الجهاد من خلال الحروب التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم ضد أعداء الإسلام في قريش وخيبر وغطفان، ومن المعلوم أن الآيات الأشد هي آخر ما نزل، فقد كانت الأمة في طور بناء وحدتها، وكانت تواجه تحديات هائلة من الروم والفرس، والقبائل التي تعمل لحسابهما،

(١) ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج١٨ ص ٤٠

والتي ظهرت في حروب الردة، وكان على الجيش الإسلامي أن يتصرف بصرامة وحسم، فلا مجاملة ولا مداراة قبل إنجاز وحدة الأرض واستقرار الدولة، وكان ذلك يرتبط سياسياً بوحدة جزيرة العرب، والخلاص من المحتل الرومي في الشام والفارسي في العراق.

وهكذا فقد مضى عمل الصحابة على الأشد مما نزل في الكتاب العزيز في أمر الجهاد، وشاعت فيهم قاعدة: العمل على ما مات عليه الرسول... وبذلك فإنهم عملوا بعموم النصوص في الجهاد: وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة (التوبة ٣٧) وكذلك: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم (التوبة ٥) واشتهر بين المفسرين كلام السلف بأن آية السيف نسخت سبعين آية، ومقتضى هذه العبارة أن كل آيات السلم والموادعة والصفح والسلم قد نُسخت بآية السيف.

ولكن المحققين من العلماء والأصوليين نبهوا أن هذه العبارة وردت على غير المصطلح الذي استقر أخيراً لكلمة النسخ وهو رفع الحكم السابق بحكم لاحق، وإنما قصد السلف بها التخصيص والتقييد والتأويل.

ولكن عمر بن الخطاب في الواقع اختار استراتيجية مختلفة تماماً في ثقافة الجهاد، ولم يتوقف عند خيارات أبي بكر، وإنما أطلق جهوداً خاصة في الدبلوماسية بناها على مبدأ أن الأصل في العلاقات الدولية هو السلم، وأن علينا أن نتوقف عن إطلاق الحروب الهادفة لنشر الإسلام فلن يكون هناك إيمان مع سيف، وسبيل الإيمان الحجة والقناعة، ومع ذلك فإن عمر بن الخطاب مضى في رسالته تحرير جزيرة العرب، ولكنه كان واعياً تماماً أين يجب أن تتوقف الحرب، وهو ما نستعرضه في الفقرات التالية:

في الجزية:

وفي الواقع فإن عمر بن الخطاب في وعيه بالنص القرآني لم يكن يذهب إلى نسخ بعضه ببعض في كل حال، بل يذهب إلى إعمال كل نص بمناطه وسياقه وسباقه ما أمكن ولا يلجأ للقول بالنسخ إلا عند التعارض التام بين النصوص وهو ما استقر عليه عمل الأصوليين، فاختار عدم قتال المرتدين، ثم دخل في خيار الجماعة ولكنه ظل يختار الاحتياط والتحفظ في قتالهم، والتزم متابعة المجاهدين من الصحابة ومنعهم من الرهق بحق الناس، ثم اختار أن يفتح القدس صلحاً ويحافظ على الحكم المسيحي المحلي فيها، وأخذ منهم الجزية دون أن يكونوا صاغرين، بل منحهم العهدة العمرية التي تكرمهم وتحميهم وتحول دون أي اعتداء عليهم.

وفي أخذ الجزية من أهل الكتاب المسالمين دون إهانة أو صَغار كتب الإمام الفقيه ابن رشد:

الجزية على ثلاثة أنواع:

١. جزية عنوية: وهي هذه التي تُفرض على الحربيين بعد غلبتهم.

٢. وجزية صلحية: وهي التي يتبرعون بها ليكف عنهم، وهذه ليس فيها توقيت لا في الواجب، ولا فيمن يجب عليه ولا متى يجب عليه وإنما ذلك كله راجع إلى الاتفاق الواقع في ذلك بين المسلمين وأهل الصلح.

٣. وأما الجزية الثالثة فهي العشرية: وذلك أن جمهور العلماء على أنه ليس على أهل الذمة عشر ولا زكاة أصلاً في أموالهم. (٢)

ويعتبر اجتهاد عمر بن الخطاب في إبقاء القدس تحت حكم البطريرك سفرنيوس والاتفاق على عوض مادي من أهل القدس بدون يد وبدون صغار منهجاً تأصيلياً لما انتهى إليه الفقه الإسلامي عند ابن رشد، حيث كتب عمر عقد الجزية مع نصارى إيلياء في غاية الاحترام والود، ولم يكن في كل ما رويناه في أمر الصلح أي هوان أو صغار أو مذلة.

في موقفه من الفتوح:

من العسير أن نستخلص موقفاً معارضاً للحرب في حياة عمر بن الخطاب وهو الرجل القوي المتين وفي عهده وقعت أهم الملاحم في تاريخ الإسلام، ولكن متابعة واعية لتاريخ عمر بن الخطاب يكشف لك أنه كان يحمل رؤية مختلفة تماماً عن الحرب، فقد كان يرى أنها أرض العرب وأن من واجبنا الدفاع عنها وإخراج الفارسي من العراق والرومي من الشام، وحين أنجز ذلك قال بوضوح: وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، كما رفض للصحابة ركوب البحر في الغزو، ونهى عمرو بن العاص عن الانسياح في مصر، وقال أيضاً وددت لو أن الأرض بيننا وبين الروم جمرة لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم.

لقد كتبت كتاباً مفصلاً في هذا المعنى وشرحت فيه أن عمر بن الخطاب لم ينظر أبداً إلى الجهاد على أنها الحرب المقدسة التي تخرج الناس من دين إلى دين بل رأى فيها الحرب الدفاعية التي يراد لها أن تحمي المسلمين من كيد أعدائهم ومكرهم، وتحقق لهم دولتهم على أرضهم التاريخية.

(٢) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج١ ص ٣٢٥

اجتهاده في آية الغنائم

وفي هذا السياق نذكر مواجهته للمهاجرين من الصحابة الذين ذهبوا لفتح العراق والشام وظنوا أن الفتح يمنحهم السيطرة على البلاد المغلوبة، وأن على الخليفة أن يقسم الأرض بين الفاتحين، كما فعل النبي الكريم يوم فتح خيبر حيث قسم الأرض على الفاتحين.

وكانت حجة المحاربين هي الآية الكريمة في سورة الأنفال: واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبذلك نصت الآية أن الخُمس من الغنائم للدولة تنفقه في الوجوه المذكورة، والأربعة أخماس للمحاربين.

ولكن النبي الكريم لم يلتزم أمراً واحداً في شأن قسمة الأرض على الفاتحين، فقد قسم يوم خيبر ولم يقسم يوم المصطلق ولا يوم فتح مكة ولا يوم تبوك ولا يوم ثقيف، فقد ترك الأرض لأهلها وأصحابها، وإنما كان يقسم ما أجلب عليه الأعداء من خيل وركاب، وهو السلاح والعتاد العسكري الذي استخدمه الأعداء في محاربة الجيش الإسلامي.

وإنما قسم مال خيبر وحدها دون سائر المال لأن اليهود كانوا في سبيل إعلان كانتون ديني منفصل عن الدولة الموحدة التي قامت في الجزيرة العربية، ولم يكن من العقل أن يترك هؤلاء الذين رفضوا الاندماج بالمجتمع المتوحد وأصروا على النزعات الانفصالية المؤسسة على انتمائهم الديني والطائفي، وهنا فقد كان من العقل تماماً أن يتم إحباط هذه المحاولة ومنع قيامها مجدداً، خاصة أن القبائل اليهودية التي تجمعت في فدك وخيبر ومن قبل في المدينة كانت تمارس الربا بأبشع صوره، وتحمل فكرة الشعب المختار وكانت تتوعد الأوس والخزج وقبائل العرب بالنبي الآتي الذي سيقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

وهكذا فقد رأى النبي الكريم أن قسمة أرض خيبر هي مصلحة اجتماعية ووطنية تقررها الأمة بمؤسساتها الدستورية، ولذلك فقد أبقاهم عليها واشترط عليهم أنهم أجراء وأن الدولة الإسلامية تملك حق إخلائهم متى جدت ظروف تتحقق فيها العدالة، وهذا ما منح عمر بن الخطاب الحق في إجلائهم فيما بعد.

ومع أن النبي الكريم لم ينزع الأرض من اليهود وإنما أبقاها بأيديهم بصفة مزارعين وأجراء، ولكنه قطع بذلك أحلامهم في الانفصال بكانتون طائفي وديني داخل الدولة الإسلامية الموحدة.

وهذا التمهيد ضروري لندرك الدور الإصلاحي الفريد الذي قام به عمر بن الخطاب في أعقاب ما تحقق من فتح العراق والشام خلال خلافة عمر بن الخطاب.

فقد قام عدد من الصحابة الذين شاركوا في فتح العراق خاصة وفيهم الزبير بن العوام وبلال بن رباح بمطالبة عمر بقسمة الأراضي المفتوحة على الغانمين، قياساً على سنة النبي يوم فتح خيبر، ورأوا أن من حقهم كمحاربين أن تقسم لهم الأراضي التي فتحت، وأن يكون لهم سبايا من بنات الشام والعراق كما هو العرف المتبع في الحروب آنذاك.

وهكذا فقد كان الفاتحون يعيشون أعرافهم وعاداتهم الأولى، التي كانت قائمة على تمجيد المحارب وحقه في استلاب المغلوبين، واسترقاق نسائهم، وبدا لهم أن الإسلام نفسه قد فعل ذلك يوم خيبر.

ولكن عمر بن الخطاب واجه هذه الفهم السطحي لروح الشريعة بنظر عميق في المقاصد، وفي الرواية:

كتب الفاتحون من العراق إلى عمر بن الخطاب ليقسم بينهم الأرض المفتوحة كما صنع رسول الله يوم خيبر والنضير، فاستشار عمر الصحابة، فرأى علي ومعاذ بن جبل أن لا تقسم الأرض في الفاتحين، وقال معاذ بن جبل: والله إذن ليكونن ما تكره، أنك إن قسمتها صار الربع العظيم في أيدي القوم ثم يبيدون، فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا يجدون شيئًا، فانظر أمراً يسعُ أولهم وآخرهم.

وأخذ عمر بقول معاذ وكتب إليهم أن الأرض أرض الله والمال مال الله، وأنها بلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام، وأن المحارب لا ينبغي أن يكون هدفه الغنائم، وإلا فهو قتال الجاهلية.

وعاد الفاتحون إلى المدينة يراجعون عمر بن الخطاب في ذلك، ويطالبونه بقسمة الأرض والغنائم في الفاتحين، وكان على رأسهم الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وبلال بن رباح.

وكان أشدهم عليه بلال، وكان يرى المال مال الأكاسرة وأن المجاهدين أولى به، حتى قال عمر: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه، وكان لا يزال يراجعه في ذلك ويشتد عليه، حتى غضب عمر وفتل شاربيه وكان إذا غضب فتل شاربيه ثم قال:

قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيتُ ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء، ودمه في وجهه.

وقال أيضاً: أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلتزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء

عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ (٣)

وسجلت في كتب التاريخ مساجلات وحوارات طويلة بين عمر وبين الفاتحين، ولكن عمر تمسك بموقفه العادل، وبين لهم أن خيبر كانت حالة خاصة على غير مثال لها ظروفها، وأنه ينبغي أن ينصرف ذهن المجاهد إلى أهداف الجهاد العظيمة من رد العدوان والدفاع عن المستضعفين في الأرض وأنصافهم وتحريرهم وليس إلى جمع المكاسب والغنائم.

موقفه من حقوق السكان في الأراضي المفتوحة:

وأسوق هنا هذا النص الفريد لعمر بن الخطاب وهو من رواية البخاري ومالك في حكم الحمى، والحمى هي بعض الأراضي التي تخصصها الدولة للاستثمار أو للأغراض العسكرية، ويشتمل النص على بيان حقوق أصحاب الأراضي المفتوحة وكف المحاربين عن امتلاك الأرض غنائم أو فيئاً، كما يشتمل أيضاً على تحذير شديد من سلوك بعض المجاهدين في اكتناز الثروات من الحرب، واستغلال الجهاد والفتح للسيطرة على أموال الناس وأرزاقهم:

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل مولى له يدعى هنياً على الحمى، فقال يا هنيّ.. اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة (٤)، وإياك ونعم بن عفان وابن عوف فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى زرع ونخل.. وأن رب الصريمة ورب الغنيمة أن تهلك ماشيته يأتني ببنيه فيقول يا أمير المؤمنين.. أفتاركهم أنا؟ لا أبالك! فالماء والكلأ أيسر على من الذهب والورق.(٥)

ثم تحدث عن حقهم في أرضهم ورزقهم فقال: إنهم ليرون أني قد ظلمتهم.. إنها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الإسلام، والذي نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً.

وهكذا فقد قام عمر بن الخطاب بإصلاح جوهري في فقه الجهاد، وقطع تقاليد الحرب التي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمن، وألغى مبدأ سيادة المنتصر على المهزوم، وراقب بدقة توجهات أمراء الحرب، ودعا إلى أن تكون الحروب في أضيق نطاق، وأن تتوقف كل الأطماع

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف، تحقيق طه سعد ص ٣٦ وتفاصيل الراوية أيضًا في الأموال لأبي عبيد و الأموال لابن زنجويه.

(٤) الصريمة تَصْغِير الصرمة: وهو القطيع من الإبل نحو الثلاثين، والغنيمة: القطيع من عشرين شاة أو بعيراً، والمقصود أدخلهما في أرض الحمى ليرعيا فيها، لأن رزقهم قليل بخلاف ذوي الأملاك الكبيرة كابن عوف وابن عفان لان لديهم ما يستأجرون به من أرض الرعي ولا ينبغس إعطاؤهم من مال الدولة.

(٥) البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح ج ٤ ص ٧١

التـي تحـرك المحاربين للقتال، من الغنيمة والفيء والمكاسـب، وبذلك تحـدد الجهاد في هدفه الرئيـس وهـو رد الاعتـداء: وقاتلوا في سـبيل اللـه الذين يقاتلونكـم ولا تعتـدوا إن الله لا يحب المعتدين (البقرة ١٩٠).

وهـذه المعانـي متصلة تماماً بهدي القرآن الكريم حيث عاب القرآن الكريم أشـد العيب على أولئك الذين يخرجون إلى الجهاد من أجل الغنائم ويتنازعون فيها: سيقول المخلفون من الأعراب إذا انطلقتـم إلـى مغانم كثيرة ذرونـا نتبعكم قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسـيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً (سورة الفتح ١٥).

وهـي تتصل مباشـرة بنهي القـرآن الكريم عن اكتنـاز الثروات بالحـروب، ووجوب أن توزع المغانـم فـي تحقيق العدالـة الاجتماعية، ما أفاء الله على رسـوله من أهل القرى فلله وللرسـول ولذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم. (سورة الحشر ٧)

ويعتبر هذا الإصلاح أهم إصلاح جوهري في رسـالة الجهاد، وفيه كف أيدي المحاربين عن قسمة الأموال والإدارة الاقتصادية، وأعاد الاعتبار إلى الدور المركزي للدولة في إدارة الاقتصاد، والاحتفـاظ بقرار الحرب بيد الدولـة، والتأكيد على دور المحاربين في حماية البلاد والدفاع عن الناس ومنع تحولهم إلى أمراء حروب.

موافقات عمر بن الخطاب:

موافقات عمر مصطلح أطلقه الرواة والمحدثون للإشارة إلى عدد من القضايا الاجتهادية التي انفرد بها عمر بن الخطاب، واعتبرت اجتهاداً في مورد النص، حيث كان عمر بن الخطاب يقترح أمراً في الشـريعة، على أسـاس من الرأي، ثم يحاور به رسـول الله فيقره الرسول الكريم، أو ينزل على وفقه قرآن يتلى يؤكد صواب ما ذهب إليه عمر.

وقد سميت هذه المسائل موافقات عمر بن الخطاب، وكان يقول وافقت ربي في بضع عشرة مسألة، وهو لون من الأدب الرفيع، إذ لم يقل وافقني ربي وإنما قال: وافقت ربي، وفي المآل فإن الأمـر واحد وهو أن الشـريعة جاءت على وفـق ما طلبه الناس وفق مصالحهـم على الوجه الذي اقترحه عمر بن الخطاب.

وتبلغ الموافقات التي رواها المحدثون لعمر بن الخطاب نحو عشرين موقفاً في حياة الرسول وقد جمعها عدد من المحدثين ومنهم:

• الإمام السيوطي في كتابه قطف الثمر في موافقات عمر.
• بدر الدين الحسني في كتابه فتح الوهاب في موافقات عمر بن الخطاب.
• حامد العمادي الدمشقي في كتابه الدر المستطاب في موافقات عمر بن الخطاب.
• عبد الرحمن بن جعفر الكتاني في كتابه كشف النقاب عن موافقات عمر بن الخطاب.

وتكشف التسمية واشتهارها واهتمام الفقهاء بها إلى الدور المحوري الذي قام به عمر بن الخطاب في منح العقل دوراً أكبر في التشريع، وهي جهود صدرت من صاحبها في عهد النبوة وفي وجود الرسول الكريم، ولا شك أن اجتهاده بعد رحيل الرسول كان وأكثر حضوراً وتأثيراً ومناطاً. حتى قال مجاهد بن جبر «كان القرآن يتنزل على وفق رأي عمر».

وفيما يلي شرح بهذه الموافقات التي ذكرها المحدثون كما أوردها السيوطي، وقد أضفت إليها ما فيها معناها:

• اجتهاده واقتراحه في ابتكار صلاة الحرم الشريف عند مقام إبراهيم.
• اقتراحه بنزول آية: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.
• اقتراحه آية: إن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين.
• اجتهاده في منح الخصوصية لبيت الرسول واقتراح الحجاب على نسائه.
• اجتهاده في وجوب تحريم الخمر ببيان قرآني صريح.
• اقتراحه آية أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم.
• اقتراحه آية نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم.
• اقتراحه منع الصلاة على من يثبت نفاقه ويشتهر بين الناس.
• اقتراحه الآية في براءة عائشة في سورة النور.
• اقتراحه بنزول آية: ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره.
• اقتراحه آية: عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ... فنزلت الآية كذلك.
• اقتراحه بوجوب الاحتكام لقضاء الرسول وفيه نزلت: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك.
• اقتراحه بفرض الاستئذان وقد نزلت فيه آية سورة النور.
• اقتراحه آية: فتبارك الله أحسن الخالقين.
• نسخ آية الرجم رسماً من القرآن الكريم.
• اقتراحه في الأذان أشهد أن محمداً رسول الله.
• اقتراحه آية: هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات على النور.

• اقتراحه آية: لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله يوادّون من حاد الله ورسوله.

وبعد وفاة الرسول الكريم:

• موقفه ضد حروب الردة خلافاً لظاهر الحديث: من بدل دينه فاقتلوه.
• موقفه في وجوب جمع القرآن الكريم خلافاً لظاهر آية سورة القيامة.
• موقفه في وجوب محاكمة الصحابة الذين يرتكبون الإثم خلال المعارك.
• تحريمه متعة الحج لمنع تحول الحج إلى نشاط سياحي خلافاً لظاهر آية البقرة.
• تحريمه نكاح المتعة حماية للفضيلة والأسرة خلافاً لظاهر آية النساء.
• منع قسمة الأرض بين الفاتحين خلافاً لظاهر آية الأنفال.
• أوقف إقامة الحدود وبشكل خاص حد القطع في السرقة خلافاً لآية المائدة.
• أوقف سهم المؤلفة قلوبهم خلافاً لآية التوبة.
• حاكم عدداً من الصحابة خالد وأبو هريرة وابن مسعود.
• أقر النصارى على حكم القدس وكنائسهم فيها خلافاً لظاهر آية التوبة، وقد أوردنا تعدد الموافقات والاجتهادات العمرية، ولم يتسع المقام لبسط الروايات وبإمكانك العودة إلى الكتب الأربعة التى ذكرناها لعد موافقات عمر، فقد أوردت ال موافقات من مصادرها، وكذلك كتابنا (النبي الديمقراطي) الذي بسطنا فيه الأدلة على هذه المواقف الشجاعة.

وربما كانت أوضح صيغة تكشف لك عن رؤية عمر في تطور الشريعة وتغير الأحكام بتغير الأزمان، هو موقفه في مواجهة نكاح المتعة الذي أنتشر خلال حج المتعة، وحين سأل الصحابة في ذلك كانوا يحتجون بأنهم فعلوا ذلك في عهد أمير المتقين صلى الله عليه، وحين درس عمر المشكلة بعمق وأيقن أن الأمر بات حيلة شرعية ماكرة يتم فيها استغلال حج التمتع للترويج لنكاح المتعة وقف بحزم وقال:

متعتان كانتا على عهد رسول الله حلالاً، أنا أحرمهما وأعاقب عليهما! (٦)

وفي الواقع فإنها شجاعة نادرة ترويها الأمة بإعجاب عن الخليفة الفاروق تحت عنوان عريض هو موافقات عمر أو اجتهادات عمر التي كانت في الحقيقة اجتهاداً شجاعاً في مورد النص، وهي التي أسست للقواعد الفقهية الذهبية مثل لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان وحيثما

(٦) ورد هذا النص في عشرات كتب الرواية، ومنها: الإمام أحمد عن جابر، تحقيق الأرناؤوط ج١ ص ٤٣٧، وهو في سنن سعيد بن منصور عن أبي فلابة.

كانـت المصلحة فثم شـرع الله. ولكل زمان فقه ورجال. والحكم يـدور مع علته وجوداً وعدماً. وغيـر ذلـك من كلام الذهب للائمة الفقهاء وفق الشـعار الذي أطلقه رسـول الله بقوله أنتم أعلم بأمور دنياكم.

لا يرتـوي القلـم مـن روائع فقه عمر بـن الخطاب واجتهاده فـي بناء الحيـاة والعدالة، بعد أن صـارت إصلاحاتـه مدرسـة مضيئة فـي الفقه الإسـلامي، وأصبحت معلـم إبداع ونـور في الفقه الحقوقي العالمي.

ومع ذلك فلم يسـلم عمر بن الخطاب من قدح القادحين كسـائر أعـلام التنوير والهدى، فقد تناوله غلاة الشـيعة بنقد شـديد، ولا نقصـد بالطبع الفريـق الحاقد الموتور الذي يمارس الشـتم واللعن وسـوء الأخلاق، فهؤلاء لا نحاورهـم ولا نجادلهم، بل نقصد جمعاً مهماً من المحققين الشيعة الذين يعتبرون عمر بن الخطاب خارجاً عن ظاهر النص، وأنه كان لا يقيم لآيات الله وزناً وذلك بسبب مواقفه العقلية الاجتهادية البصيرة.

ومما أخذه عليه فقهاء الشيعة:

• موقفـه فـي الخلافة فقد رأوا أنه تجاوز نص الغدير الـذي أوصى فيه النبي الكريم بخلافة علـي، وهو نص ورد في أمهات كتب الرواية السـتة ومنها: سـنن النسـائي والترمـذي وابن ماجه كما ورد في مسـند الإمام أحمد، كما نقله الرواة في أزيد من خمسـين كتاباً آخر من كتب الرواية، ومن المعلوم أن موقف عمر بن الخطاب في ذلك كله كان مؤسسـاً على البيعة والشورى والرأي ولـم يـر الحاجـة للعودة لأي نص في أمر الخلافة التي هي شـأن سياسـي، ينطبق عليـه أنتم أعلم بأمور دنياكم.

• موقفـه فـي توريـث فاطمة، وقد احتجت عليـه بنصوص الكتاب العزيز: وورث سـليمان داود، فهـب لي مـن لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب، فكان يرى أن ذلك من شـؤون الحياة التي يحسـم فيها الاجتهاد والنظر، وقد قطع باب قسمة الميراث سداً لذريعة توريث النبوة، وهذا كله اجتهاد محض في مواجهة ظاهر النصوص الآمرة بالتوريث.

• موقفـه فـي منـع المتعة، فقد رأوا أنه وقـف يصادم ظاهر القرآن الكريم: فما اسـتمتعتم به منهـن فآتوهن أجورهن فريضـة ولا جناح عليكم في تراضيتم به من بعد الفريضة، ولكن عمر بن الخطاب رأى أن الإذن بالمتعة وإن ورد في ظاهر الكتاب فإن التمادي فيه سـيكون له أسـوأ الأثر في حماية الفضيلة وفي تشجيع الرذيلة، وقد أشرنا إلى موقفه الرافض بحزم على الرغم من تواتر

الأدلة من الكتاب والسنة بخلاف ذلك.

فهذه بعض المسائل التي انتقده فيها فقهاء الشيعة مما يستند إلى ظاهر نص ظاهر، ومع ذلك فإن من أنصفه من الشيعة كثير، ولعل أوضح إقرار بفضله قد ورد على لسان الإمام عليّ في نهج البلاغة بقوله في عمر: لله بلاء عمر (أي جهاده وبذله)، فقد قوّم الأود، وداوى العمد، خلف الفتنة، وأقام السنة، ذهب نقيَّ الثوب، قليل العيب. أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه، رحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال، ولا يستيقن المهتدي. (٧)

(٧) هكذا كتبها ابن أبي الحديد على نسخته كما حققه صبحي الصالح في متابه شرح نهج البلاغة ص ٣٥٠، ولكن الطبعات المتتالية تطبعها بصيغة لله بلاء فلان!! ولا يصرحون بذكر عمر.

عائشة بنت أبي بكر

نسبها	عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشية	
ألقاب أخرى	أُم المؤمنين، حبيبة رسول الله، حبيبة المُصطفى، حبيبة الحبيب، المُبرَّأة، الطيِّبة، الصِّدّيقة، مُوفَّقة، عائش، أُم عبد الله، الحُميراء ابنة الصِّدّيق	
الولادة والوفاة	١٩ ق.هـ–٥٨ هـ	٦٠٤–٦٧٨ م
موجز حياتها	وُلدت بمكة وهاجرت إلى المدينة تزوجت رسول الله وهي فتاة يافعة، وتميل هذه الدراسة إلى أن عمرها كان في الثامنة عشرة، وقد صارت أماً للمؤمنين وعُرفت بين نساء النبوة بالعلم والحلم والشجاعة، وقد أخذ عنها مئات الرواة في الكتب الستة، واشتهرت بمواقفها الجريئة في الرد على الصحابة وتصحيح مفاهيم الوحي والمعرفة. وخرجت للحج بمكة وللقتال في الكوفة بالعراق، وقد اشتهرت بصلابة موقفها في وجوب محاكمة قتلة عثمان الذين دخلوا في جيش عليّ.	
روايتها	لها ٢٢١٣ حديثاً منها ٣١٥ حديثاً في البخاري ومسلم	

أهم الكتب عنها	
أهم الأفكار	• دور النساء في الفن والموسيقا • حق المرأة في المشاركة السياسية • حق النقد للرواية وردها إذا خالفت العقل
مساجد بُنيت باسمها	مئات المساجد والمدارس والجمعيات اختارت اسم عائشة الصديقة
الضريح	في البقيع بالمدينة المنورة

ونختار في الواقع السيدة عائشة رضي الله عنها من سيدات بيت النبوة تقديراً لدورها الكبير في الوعي الإسلامي، والالتزام بقيم الإسلام ومناهجه، ويقول مسروق: رأيت المشيخة من أصحاب محمد إذا أشكل عليهم الأمر من العلم يسألون عنه عائشة، وكان الأكابر من أصحاب النبي يسألون عائشة في الفرائض.

وكان الأحنف بن قيس يقول: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والخطباء هلم جرا فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من عائشة، وقال عطاء: كانت عائشة أعلم الناس وأفقه الناس وأحسن الناس رأياً في العامة.

وقد أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء أسماء أكثر من مائة وستين رجلاً تتلمذوا على يد عائشة، وأخذوا عنها العلم والرواية منهم إبراهيم التيمي وطاوس والشعبي وسعيد بن المسيب وسعيد بن العاص وسليمان بن يسار وزر بن حبيش وعكرمة مولى ابن عباس وقيس بن أبي حازم وغير هؤلاء كثيرون.

وقال عروة بن الزبير: لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية نزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب ولا بكذا ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا بطب، من عائشة.

وكانت عائشة ربما روت القصيدة ستين بيتاً وأكثر، فلم يكن لها فيها عثرة أو عكة. وقد كانت عائشة حرة الرأي، جريئة في الفتيا، ومراراً خالفت رأي صحابة كبار، وصوبت آراءهم وأفكارهم ومروياتهم، حتى أن الإمام السيوطي صنف كتاباً خاصاً أسماه: عين الإصابة في استدراكات عائشة على الصحابة.

وكتب الزركشي كتابًا آخر أسماه: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة قال في مقدمته: (هذا كتاب أجمع فيه ما تفردت به عائشة أو خالفت فيه سواها برأي منها، أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة، أو أنكرت فيه على علماء زمانها، أو رجع فيه إليها أجلة من أعيان أوانها أو حررته من فتوى، أو اجتهدت فيه من رأي رأته أقوى).

وقد بلغ عدد الذين استدركت عليهم عائشة فردت أقوالهم أو فتاويهم أو مروياتهم ثلاثة وعشرين من أعلام الصحابة فيهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وذلك في تسع وخمسين مسألة مختلفة.

ولا بأس أن ننقل هنا ما كتبه الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمة تحقيق الإجابة: سلخت في دراسة السيدة عائشة سنين عدداً، كنت فيها أمام معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سبيلاً، وأخص ما يبهرك فيها علم زاخر كالبحر بعد غور، وتلاطم أمواج وسعة آفاق، واختلاف ألوان، فما شئت إذ ذاك من تمكن في فقه أو حديث أو تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو طب أو تاريخ إلا وأنت واجد ما يروعك عند هذه السيدة.

وقد بلغ عدد تلاميذ عائشة من الصحابة والتابعين: ٢٩٩ تلميذاً منهم ٦٧ امرأة و٢٣٢ رجلاً.

وعلى الرغم من أنها عاشت في القرن الأول الهجري ولكنها استطاعت أن تناضل لتعزيز مكانة العقل والحرية في الإسلام، وفي حين يروى عن عائشة دورها كزوجة للرسول الكريم، فإنني هنا سأتجاوز ذلك وأكتفي ببيان دورها كامرأة حرة مؤسسة لتيار عقلاني رشيد له امتداده وحضوره في التاريخ الإسلامي.

مشاركتها السياسية

ويمكننا التماس أوضح صورة لمشاركة المرأة في الحياة السياسية من خلال مواقف السيدة عائشة بنت أبي بكر، زوجة النبي الكريم، فقد كان رأيها السياسي حاضراً في سائر المواقف بدأ من عهد النبوة وهي لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة مروراً بأيام أبي بكر وعمر، إلى

مشـاركتها في النضال السياسـي أولاً ضد عثمان بن عفان في بعض مواقفه، حول مسائل توليه قراباته وتردد إدارته، وهي معارضة سلمية ديمقراطية كانت تتوخى فيها المصلحة العامة، حتى إذا عـدا الثائرون علـى عثمان وقتلوه، وتحولت المعارضة إذن إلى ميليشـيا مسـلحة، وأصبح مسـتقبل الأمة على كف عفريت، تقرره تلك الميليشـيا الهائجة قامت السـيدة عائشـة لتنهض بـدور رسـالي آخر، حيث توجهت من فورهـا إلى البيت الحرام، وحشـدت جموعاً فاعلة من القوى المؤثرة، وألقت خطبة نارية في القوم، تحشـد التأييد لتكوين جبهة سياسـية ذات نشاط مسلح بغرض مقاومة التمرد والانتصار للشرعية.

وبالفعـل فقد قادت السـيدة عائشـة جيشـاً قوامـه أكثر من عشـرة آلاف مقاتـل، وفق أدنى التقديـرات، وفيهـم كبار الصحابـة أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بـن العوام ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وتوجه الجيش صوب البصرة، وغلب عاملها عثمان بن حنيف وبدأت الإعداد لمواجهة عسكرية فاصلة.

وليـس المطلـوب هنا تفصيل تلك الأحداث الدامية أو تحديـد المخطىء والمصيب فيها، بقـدر ما يتطلـب الأمر التماس الدلالات الشـرعية التي كانت الأمة تقرؤهـا في تصرف زوجة النبـي، وهـي بلا ريـب من أهـل العلم اللائـي تنـدرج أقوالهن وأفعالهـن في منزلـة رفيعة من الاحترام.

إننا إذن أمام وعي مبكر بمقاصد القرآن الكريم، يظهر على لسان أقرب الناس إلى الرسول، وهي السـيدة التي شـهد لها النبي الكريم، أنه تلقى الوحي في فراشها، وشهد لها بقوله: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».(١)

ومـا زالت السـيدة عائشـة تتبـوأ أعلى منزله مـن الاحترام فـي الفقه الإسـلامي، ويُنظر إلى روايتها وفتاواها في أعلى درج الاحترام والمنزلة الفقهية الرفيعة.

والسـيدة عائشـة مـن جانب آخر هي المقصود مباشـرة بالآيـة الكريمة «وقـرن في بيوتكن ولا تبرجـن تبـرج الجاهليـة الأولـى» إذ هي من زوجات الرسـول اللاتي جـاء الخطاب أصلاً بخصوصهـن، ولكنهـا مـع ذلك لم تفهم من هـذا النص القرآنـي أكثر من لـزوم اهتمام المرأة ببيتها، وقيامها بشؤونه فيما رأت أن ذلك لا يتعارض مع دورها الرسالي في الحياة في الجوانب التي تتطلب خروجها ومشاركتها.

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس، انظر البخاري، رقم ٣٢٣٠.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) قرئت على وجهين بالتواتر: وقَرن[٢] بالفتح من الاستقرار، وقِرن[٣] بالكسر من الوقار، ولا شك أن المعنيين مرادان جميعاً، وغير متعارضين، والقاعدة هنا أن تعدد القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات.

وهكذا فقد كان خيار عائشة في فهم الآية واضحاً، واطِّراح مطلقيتها في الزمان والمكان، واعتبارها مسألة أولويات، إذ لا ينبغي أن تكون مشاركة المرأة في الحياة العامة على حساب بيتها وأطفالها ومسؤولياتها، وهي المسؤوليات التي رأت عائشة نفسها في حل منها بعد وفاة زوجها الرسول، حيث لم يكن لها أولاد تتطلب خدمتهن القرار في البيوت.

ولست أزعم هنا أن الفهم الذي تخيرته عائشة ومن كان معها من خيار الصحابة كان محل إجماع واتفاق بين علماء الصحابة وسيدات بيت النبوة، حيث أنكرت بعض نساء النبي على عائشة خروجها هذا استدلالاً بالآية المذكورة {وقرن في بيوتكن} ومضى خيارهن في اتجاه إطلاق حكم النص في تحريم كل خروج.

وهكذا فإن مشاركة المرأة في النشاط السياسي العام لم تكن محل اتفاق بين زوجات الرسول، ولكن ذلك على أقل تقدير رأي أكثرهن علماً وأطولهن صحبة باتفاق وهي السيدة الكريمة عائشة.

ويمكن اعتبار موقف عائشة بمثابة فتوى في حق المرأة في بلوغ منصب رئيس أركان جيش، وقيادتها لنشاط سياسي وعسكري ينضوي تحته أكثر من ألف من أصحاب النبي، فيهم نصف أهل الشورى، مجلس الحل والعقد، اثنان من أصل الأربعة المرضيين الذين عاصروا الأحداث وهما طلحة والزبير اللذين كانا مع عائشة، وكذلك فإن علي بن أبي طالب خصمها السياسي الذي لم ينازعها في مشروعية الخروج وإنما نازعها في مبرراته وغاياته.

مشاركتها في دعم الفن والموسيقا والجمال:

تصدت عائشة بشجاعة ووضوح لبيان موقف متحضر من الفنون والموسيقا، وبشكل خاص في بيان إباحة الغناء والفن للنساء، وارتبط اسمها الكريم بعدد من الأنشطة الفنية الهامة في المدينة، وعن عائشة قالت: «دخل عليّ النبي وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث،

(٢) وهي قراءة عاصم ونافع، وهي متواترة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
(٣) وهي قراءة الباقين وهي متواترة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي فأقبل عليه رسول الله فقال: دعهما، فلما غفل غمزتهما فخرجتا».(٤)

وفي رواية أخرى قال لأبي بكر:(يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا).(٥)

وفي رواية أخرى قالت عائشة: وعندي جاريتان تدففان وتضربان.(٦)

وقد ورد حديث غناء الجواري وضربهما بالدف أمام النبي الكريم أكثر من اثني عشر مرة في صحيحي البخاري مسلم وأكثر من خمسين مرة في الكتب التسعة، وأشار ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة إلى المغنية، وترجم لها باسم: حمامة المغنية.

وعلى الرغم من هذه الروايات المتواترة الكثيرة فإن دلالات هذا الحديث تبدو غير موجهة في عمل كثير من الفقهاء، وظل غناء المرأة الملتزم مطارداً كأنه سبة أو عار، وتم إغلاق هذا الباب بضراوة الأمر الذي فسح السبيل أمام فن منحط لا يبالي بالقيم ولا بالفضائل، ولا يتورع عن فعل أي شيء في سبيل إثارة الغرائز.

وأخرج الطبراني من حديث عائشة أن النبي مر بنساء من الأنصار في عرس لهن وهن يغنين:

وأهدى لها كبشاً تنحنح في المربد
وزوجك في البادي وتعلم ما في غد

فقال: لا يعلم ما في غد إلا الله.(٧)

وعن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم:(يا عائشة هل معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو).(٨)

وفي رواية قال:(هل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قلت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء السمراء ما سمنت عذاريكم(٩)

---

(٤) رواه البخاري في الجامع الصحيح جـ١ كتاب العيدين ـ باب الحراب والدرق في العيد.
(٥) المصدر نفسه ـ باب سنة العيدين لأهل الإسلام حديث رقم ٩٠٩.
(٦) المصدر نفسه ـ حديث رقم ٩٤٤.
(٧) نقلاً عن فتح الباري حـ١١ ص١٠٩.
(٨) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب النساء يزففن العروس لزوجها.
(٩) انظر فتح الباري حـ١١ ص١٣٣

ثم قال: أدركيهما يا زينب، لامرأة كانت تغني بالمدينة.

ومن المعلوم أن هذا الغناء والدف كان في براح المدينة بحيث يراهن الرجال وهن يزففن الفتاة إلى زوجها.

واشتهرت عائشة كمعلمة فريدة للنساء في دروس الفن والجمال، وأجابت امرأة سألتها عن بعض فنون العرب في التجمل من الحناء والنمص فقالت: إذا استطعت أن تنزعي عينيك من موقهما فتجعليهما أجمل مما كانا رضىً لزوجك فافعلي.

مشاركتها في التنوير الديني:

يمكن أن نشير إلى الدور القيادي الذي قامت به عائشة الصديقة من خلال تصديها للعلم والرواية، وقدرتها على مواجهة التصورات المحافظة والاندفاع نحو تصورات أكثر عقلانية ووعياً في الفقه الإسلامي.

ولا نحتاج في هذا السياق أكثر من الإشارة إلى كتابين مهمين:

- الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي.
- عين الإصابة في استدراكات عائشة على الصحابة للسيوطي.

وقد قصد فيهما الزركشي والسيوطي إلى غاية واحدة وهي استدراكات عائشة على الصحابة وردها على عدد من الروايات التي نسبها الصحابة للنبي الكريم، وفيها تظهر شخصية عائشة الرائدة في النهوض برسالة العقل، ومواجهة الفهم الظاهري للنصوص.

وقناعتي أن عائشة ردت عدداً من النصوص وهي تعلم أنها من كلام الرسول نفسه، ولكنها ردتها لاعتبارات وجيهة منها ما يتصل بتطور الزمان ومنها ما يتصل بطبيعة الخطاب وخصوص السبب الوارد فيه.

ومع أن الزركشي والسيوطي لم يقصدا أبداً إلى إظهار هذا المعنى في السيدة عائشة وإنما كانا يخدمان علم الرواية المحض، ولكن الغاية التي نشير إليها لا يخطؤها باحث موضوعي.

ومن استقراء مسائل الكتابين نشير إلى طائفة من فتاوى السيدة عائشة الجريئة في تقديم العقل على النقل، والشجاعة في رفض الرواية إذا اشتملت على تمييز ضد النساء أو استهانة بكرامة الإنسان.

- ردها على حديث أبي هريرة: يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة!! والحديث في صحيح مسلم، والحديث هنا من رواية أبي هريرة عن رسول الله، ولا شك عند المحدثين

في سند كهذا، ولكن عائشة اعترضت أشد الاعتراض على المضمون وغضبت غضباً شديداً وقالت: شبهتمونا بالكلاب والحمير! لقد كان رسول الله يصلي إلى السرير وأنا عليه مضطجعة وكان السرير بينه وبين القبلة.

• ردها على حديث: الشؤم في ثلاث المرأة والدابة والدار، والحديث محفوظ في كتب الرواية من رواية البخاري عن أبي هريرة.

ويشير الرواة إلى أن عائشة حين علمت بهذا الحديث غضبت أشد الغضب، وفي مسند أحمد قال: فطارت منها شقة في السماء وشقة في الأرض، وقالت غاضبة مستنكرة: لم يحفظ أبو هريرة وفي رواية نسي أبو هريرة وفي رواية كذب أبو هريرة.

ثم راحت عائشة تشرح أن ذلك من شأن أهل الجاهلية وأن الإسلام رسالة تحرر وكرامة، فما معنى بقاء هذه الأوهام؟ وقد أبطل الإسلام ذلك كله!

وفي رواية: لم يحفظ أبو هريرة، إنما قال رسول الله: قاتل الله اليهود، كانوا يقولون: الشؤم في ثلاث: المرأة والدابة والدار.

وقد أظهرت عائشة موقفاً جريئاً في تمكين المرأة ورفض تهميشها ورفض التشاؤم بها.

• كما ردت عائشة على ابن عمر وهو فقيه جليل وصحابي كبير روايته لحديث إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، والحديث في الصحاح رواه البخاري في الصحيح.

وقالت: والله ما قال رسول الله هذا، وقرأت: ولا تزر وازرة وزر أخرى، وبذلك انتصرت لمبدأ مسؤولية الإنسان عن فعله، ورفضت أن يحاسب الإنسان على جناية غيره.

• وردّت على حديث أبي هريرة عن النبي الكريم: من غسّل ميتاً اغتسل ومن حمله توضأ، والحديث من رواية عبد الرزاق الصنعاني في مسنده عن أبي هريرة، فبلغ ذلك عائشة فقالت: أو ينجس موتى المسلمين؟ وما على رجل لو حمل عوداً ؟.

• وردّت عائشة على حديث رواه مسلم عن عبيد بن عمير، وفيه أن ابن عمر يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، وكان ابن عمر إذا أفتى في المسألة رفعها الناس للنبي الكريم لمكان دقته في الاتباع والتأسي، وحين بلغ الحديث عائشة غضبت أشد الغضب وقالت: أفلا أمرنا أيضاً أن نحلق رؤوسنا؟! وكانت تشير بضيق إلى تدخل الرجال في حاجات النساء، فما عسى يأمر الشرع امرأة تبحث عن التزين والتجمل وهي أدرى بذلك، ولماذا يتدخل الرجال حتى يمنعونا من التزين فيما فيه رغبة النساء وحاجتهن.

• وكذلك ردّت على ابن عمر حديثه: أن موت الفجأة سخطة على المؤمنين، وهو

حديث أخرجه الطبراني، ولكن عائشة رأت فيه موقفاً تربوياً غير أخلاقي، فالموت قدر إلهي يصيب المؤمن وغير المؤمن، ومن الضلال الأخلاقي أن ننسب إلى ميت الفجأة سخط الله، وأن نربط هذه الأقدار التي لها أسباب فيزيائية وعلمية معروفة بأقدار من الغيب.

• وكذلك ردّت عائشة على حديث أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أن رسول الله قال: ولد الزنا شر الثلاثة، وقد غضبت عائشة من هذه الرواية غضباً شديداً وهاجمت أبا هريرة بقولها: أن أبا هريرة أساء سمعاً فأساء فهماً، وذلك أن ولد الزنا طفل لا ذنب له، وعلى المجتمع أن يقوم بواجبه حيال هذا الطفل وأن لا يعاني من أي تمييز ضده بسبب ذنب لا يد له فيه.

• وردّت كذلك على حديث عروة بن الزبير الذي رفعه للرسول الكريم: لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إليّ من أعتق ولد الزنا، فأنكرت ذلك كله وقرأت فيه موقفاً تمييزياً ضد طفل لا ذنب له في شيء، إلا أن أبويه كانا طائشين فأنجباه من حرام، وبدا الرسول هنا كما يتحامل على المولود ولا ذنب للمولود.

• وردّت كذلك على حديث: لا يحل لامراة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم، وهو من رواية أبي سعيد الخدري وقد أخرجه أبو داوود وابن حبان والبيهقي، ولكن عائشة ردت هذه الرواية التي تقيد حياة المرأة وتفرض عليها رهقاً، وقالت: أولكلكم محرم؟ وقد سافرت عائشة إلى الحج وإلى القتال وليس معها محرم، وبذلك فقد اختارت رفض التمييز ضد المرأة في السفر، وأرشدت إلى توفير الأمن للمرأة بوسائل أخرى ليس بالضرورة أن تكون اصطحاب الأرحام.

• وردّت كذلك حديث أبي طلحة عن رسول الله: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال، وهو حديث مشهور أخرجه النسائي، ورأت في ذلك تضييقاً على الناس وجحوداً للفن والموهبة، وأشارت إلى أنها كانت تطرز الوسائد في بيت الرسول بالتصاوير، وأما الموقف المتشدد من الكلاب فقد رأت أنه لا مبرر له، فالكلب طواف عليكم وهو حيوان أليف يحرس ويصيد، وقالت: كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ولم يكن ينهاهم.

• وردّت كذلك على شيبة بن عثمان، وكان حاجب الكعبة المشرفة، وقد منحه الرسول الكريم هذا المنصب في حديث مشهور، وحين أخبرها شيبة بأنهم إذا أرادوا تجديد ثوب الكعبة ينزعون الثوب القديم فيدفنونه في جوف الأرض حتى لا تلبسه الحائض والنفساء، وهنا أنكرت عائشة ذلك غاية الإنكار، ورأت فيه امتهاناً للمرأة وتبخيساً لمكانها، وقالت: وما يضر ثوب الكعبة أن تلبسه النساء؟ وبذلك فقد أرادت بيان كرامة المرأة ونزع الصنمية عن

الكعبة المشرفة التي يتوهمها الناس.

ومع ذلك فلسنا نزعم أن عائشة حظيت بقبول الجميع، بل إن كثيراً من المؤرخين يعتبرون أنها خاضت فيما كان ضرراً كبيراً على الأمة، خاصة خروجها على علي بن أبي طالب، وهو الموقف الذي ندمت منه أشد الندم، وكانت تقول ليتني مت قبل أن تنبحني كلاب الحوأب[١٠]، وتقصد بذلك حربها على عليّ، ولا شك أن موقفها هذا عاد عليها بأشد النقد عبر طوائف الشيعة، وكذلك عبر كثير من المحققين المستقلين الذين درسوا الأحداث بعين مصالح الأمة الكبرى وما عادت به من فتن وحروب طاحنة.

ولا بد من التحفظ أيضاً بمثل ما تحفظنا عند خبر علي فالمقصود قطعاً ليس أهل البذاءة والشتم وسوء الأخلاق الذين يشتمون الصحابة بأحقاد سوداء، فهؤلاء لا ينفع معهم حوار ولا جدال، ولكننا نتحدث عن فريق كبير من المحققين من السنة والشيعة انتقدوا بشدة خروج عائشة واعتبروه موقفاً غير حكيم، وكذلك فقد استمر الاعتراض على اجتهاداتها المتقدمهاوقد رفضها كثير من المحدثين، ولكنها لم تتراجع عن اجتهاداتها الجريئة، وعن مواقفها الحرة في تمكين النساء وتعزيز حرياتهن.

وعلى الرغم من النقد الشديد تبقى عائشة رائدة فريدة في الحرية والوعي وتقديم العقل والنظر، ويمكننا دون أدنى تردد أن نقول إنها أول امرأة في الإسلام تؤسس مدرسة فقهية متقدمة وحرة، ولو جمعت فروعها وأصولها لاستقام منه مذهب فقهي متكامل.

(١٠) تشير الروايات ومنها الطبري في التاريخ ٤-٤٥٦ أن عائشة سمعت في بعض طريقها إلى الكوفة كلاباً تنبح هودجها فسألت ما اسم المنطقة فقالوا الحوأب، فبكت عائشة وقالت: لقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أحداكن تنبحها كلاب الحوأب أرجو أن لا تكوني أنت يا عائشة!!

أسماء بنت عميس

الاسم الكامل	أسماء بنت عميس	
ألقاب مشهورة	أول دبلوماسية في الإسلام	
التاريخ	تُوفيت ٣٩هـ	٦٦٠م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت بمكة وارتحلت إلى الحبشة مع زوجها جعفر ثم عادت إلى المدينة. بعد عودتها نكبت باستشهاد جعفر، واستأنفت الحياة مع أبي بكر ثم مع علي بن أبي طالب، وتُوفيت بالعراق	
أهم ما ألف عنها		
أهم من تأثرت بهم	النبي الكريم- زوجها جعفر بن أبي طالب ـ زوجها أبو بكر الصديق ـ زوجها علي بن أبي طالب ـ فاطمة بنت الرسول	
أهم من تأثروا بها	علي بن أبي طالب- ابن عباس ـ ابن المسيب- عروة بن الزبير	

أهم ثلاث قضايا نادت بها	• تمكين المرأة والمشاركة الدبلوماسية • الكفاح ضد العقل الذكوري • المساواة وتحرير فقه المرأة
مدارس باسمها	
الضريح	 ضريحان منسوبان لأسماء في العراق ـ بابل ـ بلدة القاسم، والثاني الهاشمية شمال البصرة

مهاجرة الهجرتين وصاحبة القبلتين

قد يبدو إيراد اسم أسماء بنت عميس غريباً في هذه القائمة، ولكننا نعتقد أنها من قادة التنوير في الإسلام، وقد كان لها دور كبير في بناء الدبلوماسية الناجحة مع أسرة النجاشي في الحبشة، كما سجلت لها مواقف واضحة وجريئة في قوة النساء وحضورهن وتأثيرهن والتمرد على العقل الجاهلي الذي كان يأمر النساء بلزوم الحصير والخروج من الحياة العامة.

كما أنها من أكثر سيدات التاريخ الإسلامي أثراً في السنة والشيعة، كونها زوجة الخليفتين أبي بكر وعلي، ويمكن اعتبارها رمزاً وحدوياً أساسياً في جهود التقريب والإخاء السني الشيعي.

هي أسماء بنت عميس الخثعمية، وهي أخت ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمها هند بنت عوف الجرشية الحميرية.

بدأت أسماء مشوارها كامرأة متميزة في مكة المكرمة، وكانت فائقة الجمال وقد تقدم إليها أشراف العرب يلتمسون ودها وخطوبتها، فكانت من نصيب جعفر بن أبي طالب، حيث كان أبو طالب زعيم مكة وشيخها، وكان جعفر معقد الآمال الكبار لبني عبد مناف، ونثرت للعروسين

الكبيرين آمال كبار، وشاء الله أن يبادر العروسان للدخول في الإسلام، وبدأ العروسان بتحمل قدر الرسالة التي نذرا أنفسهما لأجلها، ولم يمض وقت طويل حتى ركب جعفر البحر مع زوجته على رأس ثمانين رجلاً من المهاجرين الفارين من اضطهاد قريش وظلمها.

ومن العجيب أن جعفراً لم يكن من الذين خرجوا فراراً من المشركين فقد كان في عز ومنعة في قريش، فأبوه أبو طالب الذي كان يحمي النبي الكريم وهو على حماية ابنه جعفر أقدر، وأغلب الظن أنه راح إلى الحبشة بمهمة رسالية لقيادة المهاجرين، والتفاوض مع ملك الحبشة والبحث عن مهاجر ومنطلق للرسالة الجديدة، ومما يدل على ذلك أن النبي الكريم نفسه هاجر إلى المدينة وأقام فيها دولة الإسلام ولكن جعفر لم يعد من الحبشة واستمرت إقامته فيها بعد ذلك سبعة أعوام أخرى.

في الحبشة كانت أسماء بنت عميس عوناً لزوجها جعفر، وكانت تتولى أمر المهاجرات من الصحابيات اللاتي وجدن أنفسهن في غربة عن الأهل والبلد واللغة والعشيرة.

بعد أربعة عشر عاماً من الكفاح في الحبشة عاد الزوجان الكريمان إلى المدينة المنورة في يوم سعيد وهو اليوم الذي عاد فيه النبي الكريم ظافراً من المواجهة مع يهود خيبر، وحين رآهما اعتنق جعفر وقال فرحاً جذلان والله ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بعودة جعفر!

وكانت لأسماء شخصية قيادية جريئة ولم تكن لتنام على ضيم، أخرج النسائي عن أبي موسى الأشعري قال جاءت أسماء بنت عميس إلى النبي صلى الله عليه وسلم زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء من هذه قالت أسماء بنت عميس قال عمر الحبشية هذه؟ البحرية؟ كأنه يُعرّض بها، وأنها لم تشهد مع رسول الله المشاهد العظيمة في بدر وأحد والخندق، فقالت أسماء: نعم.

فقال عمر سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم! فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار أو في أرض الجفاة العداة في الحبشة، وذلك في كتاب الله وفي رسوله، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله، ونحن كنا نؤذى ونخاف فسأذكر ذلك لرسول الله، والله لا أكذب ولا أزيد على ذلك فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أهل السفينة هجرتان، قالت فلقد رأيت أبا موسى رضي الله تعالى عنه وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألون عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن فرحة أسماء بنت عميس بالعودة إلى الوطن وصحبة رسول الله لم تدم طويلاً فقد أرسل النبي الكريم جعفر بن أبي طالب أميراً ثانياً في غزوة مؤتة وسرعان ما جاء نبأ استشهاده حين حمل الراية بعد زيد بن حارثة، وقضى على مدخل أرض الشام شهيداً طاهراً يرسم مستقبل بلاد الشام في الحرية والإيمان.

أمضت أسماء أيام حزنها لفراق جعفر وهي تحتسبه عند الله تعالى، ولم يكن أهل المدينة يجهلون مواهب أسماء ومنزلتها وعقلها، ولم تنته عدتها حتى كان الخاطبون من أشراف قريش يزاحمون ببابها، ورضيت منهم أبا بكر الصديق زوجاً كريماً تذكرها خصاله الحميدة بخصال جعفر عليه رضوان الله.

وفي حجة الوداع خرجت أسماء وهي حامل على وشك الوضع وبالفعل وضعت مولودها محمد بن أبي بكر في ذي الحليفة في طريق الحج، ولا شك أن ذلك يعكس إرادتها وحزمها في الأمور، فلم يثنها حملها ووضعها عن المشاركة في مهرجان حجة الوداع مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وأمضت أيامها إلى جانب أبي بكر الصديق ناصحة مخلصة واعية كريمة، وقامت بدور كبير في المدينة في العلم والتعليم ونشر الوعي والتنوير، وأدخلت إصلاحات متعددة في حياة النساء مما تعلمته في الحبشة، وهي أول من ابتكر التابوت لتحمل به الجنائز تكريماً للموتى.

وكانت أسماء بنت عميس لا ترى بأساً بدخول الرجال على النساء وكان أبو بكر ربما جاء فرأى الرجال في بيته فكره ذلك وشكا أمره للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله إن الله برأها من كل سوء، ثم نادى في الناس ألا لا يدخلن رجل على مغيبة إلا أن يكون معه رجل أو رجلان.

وبعد رحيل أبي بكر تقدم لخطوبتها علي بن أبي طالب وتم ذلك الزواج الكريم وكأنما كُتب على أسماء أن تكون دائماً في قلب الأحداث الجسام، وبالفعل فقد صحبت علياً في أيام الشدة والبأس وكانت له ناصحة شفيقة رفيقة، وكانت تشارك في الأحداث الهامة من دون أن تفرط بواجبها تجاه أبنائها من أزواجها الثلاثة، فقد كان أبناؤها أبناء زعماء كبار: جعفر الذي كان أول سفير في الإسلام، وأبي بكر وعلي اللذين كانا خليفتين كريمين، وذات يوم تفاخر ابناها محمد بن أبي بكر وعبد الله بن جعفر فقال كل واحد منهما أنا خير منك وأبي خير من أبيك، فقال عليّ لأسماء اقض بينهما فقالت لابن جعفر أما أنت يا بني فما رأيت شاباً من العرب كان خيراً من أبيك وأما أنت يا بني فما رأيت كهلاً من العرب خير من أبيك فقال لها عليّ ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير هذا لمقتك،

فقالت والله إن ثلاثة أنت آخرهم لأخيار.

وعاشت أسماء بنت عميس في قلب الأحداث، فقد كانت قريبة من سائر الرجال الكبار الذين صنعوا تاريخ الإسلام، ولا شك أن جانباً كبيراً من الفضل يرجع إلى الأم الحكيمة التي قامت بتربيتها وهي هند بنت عوف الحميرية، وقالت العرب لم يكن في العرب امرأة أحسن تربية ولا أكرم أصهاراً من هند بنت عوف فصهرها الأول رسول الله وهو زوج ابنتها ميمونة بنت الحارث، وصهرها الثاني العباس بن عبد المطلب زوج لبابة الكبرى وأصهارها الثالث والرابع والخامس جعفر بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب أزواج أسماء بنت عميس، وصهرها السادس حمزة بن عبد المطلب زوج سلمى بنت عميس. وصهرها السابع الوليد بن المغيرة زوج لبابة الصغرى وهي أم خالد بن الوليد، وكان المغيرة من سادات قريش. فأولاد العباس وأولاد جعفر و أبي بكر وعليّ وحمزة والوليد بن المغيرة أولاد خالة وجميعهم أحفاد هند بنت عوف أم أسماء.

ولدت لجعفر عبد الله بن جعفر، وعون بن جعفر، ومحمد بن جعفر، وولدت لأبى بكر محمد بن أبى بكر فى حجة الوداع، وولدت لعليّ يحيى بن على فهم إخوة لأم.

وقد قامت أسماء بدور هام في إطفاء الفتنة بين علي وأبي بكر، فمن المعلوم أن علياً تأخرت بيعته أول الأمر لأبي بكر، وكان في المسلمين من يدعوه لنبذ البيعة، وكان من الممكن أن يتكرر ذلك بعد موت أبي بكر ولكن أسماء بنت عميس وقد حلت في دار علي بعد موت أبي بكر أسهمت في إطفاء هذه الفتن، وعرف الناس أن أبا بكر وعلياً إخوان في الله، وأن أبناءهما إخوة، وبالفعل فقد كان محمد بن أبي بكر ربيب علي بعد موت أبيه، وقد رعاه علي أحسن رعاية ثم عهد إليه بولاية مصر بعد أن ولي الخلافة، ونحن نعتقد أن هذا واحد من أظهر الأدلة على الأخوة التي كانت بين أبي بكر وعلي ولو كره ذلك بعض أهل التعصب والجمود.

ونالت أسماء بنت عميس منزلة عالية في الفضل والعلم ولا شك أنها أفادت من حياتها العامرة بين كبار الرجال، وروى لها الأئمة الستة البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقد عد الحافظ المزي في تلامذتها ستة عشر إماماً من أئمة الصحابة والتابعين فيهم عبد الله بن عباس وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبو يزيد المديني وأبو موسى الأشعري وابنه أو بردة.

عاشت أسماء بعد علي زمناً ثم توفاها الله تعالى أيام معاوية، ودُفنت في العراق ببلدة السوم من قضاء بابل ولها ضريح معروف تزوره الشيعة، وضريح آخر بالهاشمية شمالي البصرة.

أسماء بنت أبي بكر

الاسم الكامل	أسماء بنت أبي بكر	
ألقاب مشهورة	ذات النطاقين	أم الشهيد
التاريخ	٢٧ ق.هـ – ٧٣ هـ	٥٩٥ – ٦٩٢م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت بمكة وهاجرت إلى المدينة ثم استقرت بمكة. واشتهرت مواقفها الثابتة مع ابنها ومواجهتها الحجاج بشجاعة وجرأة حين قام بصلب ابن الزبير.	
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثرت بهم	الرسول الكريم ـ أبو بكر الصديق ـ عائشة بنت أبي بكر – الزبير بن العوام	
أهم من تأثروا بها	عبد الله بن الزبير ـ الحجاج بن يوسف الثقفي	
أهم قضايا نادت بها	• حق الإنسان في الثورة على الطغيان • حق المرأة في التمكين والمشاركة في الحياة الاجتماعية	

مدارس ومؤسسات باسمها	مئات المدارس والمعاهد باسم أسماء بنت أبي بكر
الضريح	مكة

الثورة في وجه الطغيان

أسماء بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية، زوج الزبير بن العوام وهي أم عبد الله بن الزبير، وهي ذات النطاقين وأمها قيلة وقيل قتيلة بنت عبد العزى، وكانت أسن من عائشة وهي أختها لأبيها، وكان عبد الله بن أبي بكر أخا أسماء شقيقها.

قال أبو نعيم: وُلدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة وكان عمر أبيها لما وُلدت نيفاً وعشرين سنة، وأسلمت بعد سبعة عشر إنساناً، وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله ابن الزبير فوضعته بقباء.

وإنما قيل لها ذات النطاقين لأنها صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم ولأبيها سفرة لما هاجرا فلم تجد ما تشدها به فشقت نطاقها وشدت السفرة به فسماها رسول الله ذات النطاقين .

لم تكن أسماء بنت أبي بكر يوماً بعيدة من بيت النبوة والحكمة والعلم، فهي بنت أبي بكر وهي زوجة الزبير بن العوام السابق إلى الإسلام والذي منحه الرسول الكريم لقب: حواري رسول الله، فقال إن لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير بن العوام.

ظهرت شخصية أسماء بنت أبي بكر متفردة بين النساء، وكانت تتابع تطورات الدعوة عن طريق أبيها أبي بكر وعن طريق زوجها الزبير، وفي هجرة النبي الكريم كان لها دور بارز في تأمين الزاد والراحلة للمهاجر الكريم وصاحبه أبي بكر، ومع أن أمر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ظل سراً لا يعلمه أحد، حيث لم يصرح به رسول الله لأحد، ولكن أسماء كانت المرأة الوحيدة التي تم إطلاعها على تفاصيل رحلة الهجرة حين جاء النبي الكريم إلى دار أبي بكر في ساعة الظهيرة كما تقول أسماء، وهناك قامت أسماء بإعداد الزاد والراحلة للمهاجر الكريم، ولم

تجد أسماء ما تشد به صرة الزاد الذي أعدته للمهاجرين الكريمين، وخشيت أن تطلب الماعون من الجيران فتفشي أمر الهجرة فعمدت إلى نطاقها فنزعته وشدته على صرة الزاد ومن ثم سميت ذات النطاقين.

وحين تحرك المهاجران قامت أسماء بإخفاء كل أثر يمكن أن يؤدي إلى افتضاح أمرهما، قالت أسماء: ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجال من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت لا أدري والله أين أبي. قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي.

وواجهت أسماء عناءً كبيراً في تبرير أمر خروج أبيها من مكة، وواجهت مشقة الحياة في ظرف سياسي وأمني دقيق، إذ كانت هدفاً لبطش القرشيين ولكنها توكلت على الله واحتسبت عناءها في سبيل الله وكانت تتابع مسيرة المهاجرين الكريمين عبر أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان يأتيهما في الفجر كل يوم يطلعهما على أخبار ما تبيته قريش.

ومن جانب آخر فقد واجهت أسماء قلق العائلة من رحيل أبي بكر، خاصة أنه أخذ معه ماله كله لينفقه في الإسلام وفي حاجة رسول الله، ولما طار الخبر في قريش حضر إليها جدها أبو قحافة والد أبي بكر وهي حزين كرب، وهنا تحدث أسماء عن ذلك فتقول: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف فانطلق بها معه قالت فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال والله أني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه قالت قلت كلا يا أبت أنه قد ترك لنا خيراً كثيراً قالت فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال قالت فوضع يده عليه فقال لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم لا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وقد تمكنت أسماء من تدبير أمور الدار في غياب أبيها وزوجها وهي حامل، ثم أرسل النبي الكريم مولاه أبا رافع إلى مكة ليحملها مع عيال النبي الكريم إلى المدينة، وفي المدينة المنورة واجهت ظروفاً قاسية، فقد كانت أتمت حملها تسعة أشهر ولكن اليهود كانوا قد أرجفوا في المدينة أن محمداً وأصحابه قد سحرتهم يهود فلن يولد لهم ولد بعد ذلك، وأمضت أسماء أياماً قاسية وهي تستمع إلى وشايا النساء، ولكنها ظلت موقنة برسالتها في رفض السحر والشعبذة والأوهام حتى وضعت مولودها عبد الله بن الزبير الذي كان أول مولود في الإسلام في المدينة

المنورة.

وكانت تشارك زوجها الزبير في كثير من قضايا الدعوة والرسالة، وفي معركة الخندق اشتهرت أسماء بموقفها البطولي في حماية المدينة بالليل بسيفها وعزيمتها.

وفي العلم تفوقت أسماء على النساء والرجال، واشتهرت برواية المعرفة من بيت النبوة، وكان الناس يقصدونها في دقيق المسائل، ومن أشهر تلامذتها من الرجال: عبد الله بن عباس وابنها عروة وعباد بن عبد الله بن الزبير وأبو بكر وعامر ابنا عبد الله بن الزبير والمطلب بن حنطب ومحمد بن المنكدر وفاطمة بنت المنذر وغيرهم.

وكانت أسماء حازمة صارمة في علاقتها بالرسالة وتحملها للمسؤوليات الجسام التي كانت تقوم بها، وعرفت بحصافة رأيها، وعميق حكمتها، وسجل لها في كل حدث كبير موقف سياسي حكيم كانت تصدر عنه الرجال، ووقفت في شجاعة فريدة في وجه قتلة عثمان، وحثت زوجها على المطالبة بدم عثمان، وقد نجحت في إجبار القوات الغازية على الانسحاب والخروج من المدينة.

ولكن أسماء ظلت تتخير مواقفها في السياسة وفق مصالح الأمة، وبعد مأساة كربلاء وواقعة الحرة دفعت أسماء ابنها عبد الله بن الزبير لمواجهة الانحراف الذي ظهر في مؤسسة الخلافة، بعد اعتداء العسكر على المدينة وعلى أهل بيت النبي الكريم، وبالفعل فقد أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في الحجاز وجزء من العراق، واستمر عدة سنوات يحكم معظم أنحاء البلدان الإسلامية، حتى واجهه بنو أمية بجيش الحجاج الذي قاد جيشاً فاتكاً إلى مكة المكرمة ووجد عبد الله بن الزبير نفسه محاصراً بمكر الحجاج وبطشه، بعد أن نجح الحجاج في قطع سبل الإمداد عن عبد الله بن الزبير، وبدا واضحاً أن عبد الله بن الزبير يواجه كارثة خطيرة توجب عليه الاستسلام أو القتال حتى الموت.

وهناك سجل التاريخ موقفاً فريداً لأسماء بنت أبي بكر وكانت أنذاك قد أسنت وكبرت، حيث دخل عليها عبد الله بن الزبير ووضع أمامها صورة دقيقة لموقفه، وللمصير الذي بدأ واضحاً أنه ينتظره.. وراح يستشيرها فيما يفعل، وهل يستسلم للحجاج دون قيد أو شرط ليسلم بروحه أم يقاوم؟

قالت له أسماء:

«يا بنيّ: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وتدعو إلى حق، فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، ولا تمكّن من رقبتك غلمان بني أميّة. وإن كنت تعلم أنك أردت الدنيا، فلبئس

العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك».

قال عبد الله:

«والله يا أمّاه ما أردت الدنيا، ولا ركنت إليها، وما جرت في حكم الله أبدا، ولا ظلمت ولا غدرت»..

وقال لها عبد الله بن الزبير: والله يا أماه لا أخشى الموت فإنا أعلم أنه قدر حتم، لا يؤخره شيء ولا يعجله شيء، ولكنني أخشى الحجاج أن يُمثّل بي بعد الموت!

قالت له أسماء ببصيرة ويقين: يا بني إن الشاة إذا ذبحت لا يضرها السلخ!!

قال فلما كان في اليوم الذي قتل فيه، دخل عليها في المسجد فأخبرها بأمر ما بيتوه من كيد وبطش، وذكر لها أنهم عرضوا عليه سبلاً للنجاة من الهلكة وتسليم كل شيء للحجاج، ولكن أسماء وقفت صامدة صابرة وقالت: يا بني لا تقبل منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة لقتل؛ فوالله لضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في مذلة.

ثم قالت: «إني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً إن سبقتني إلى الله أو سبقتك.

اللهم ارحم طول قيامه في الليل، وظمأه في الهواجر، وبرّه بأبيه وبي..

اللهم أني أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبدالله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين.!»

وتبادلا معاً عناق الوداع وتحيته.

وبعد ساعة من الزمان انقضت في قتال مرير غير متكافئ، تلقى عبد الله بن الزبير ضربة الموت في الحرم الشريف، وفاضت روحه، ولكن الحجاج أبى إلا أن يصلب جسده الكريم على خشبة الصلب إمعاناً في البغي والعدوان والتشفي!

وقامت أمه، وعمرها يومئذ سبع وتسعون سنة، قامت لترى ولدها المصلوب.

وكالطود الشامخ وقفت تجاهه لا تريم.. واقترب الحجاج منها في هوان وذلة قائلاً لها:

يا أماه، إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أوصاني بك خيراً، فهل لك من حاجة؟

فصاحت به قائلة: لست لك بأم.. إنما أنا أم هذا المصلوب على الثنيّة.. وما بي إليكم حاجة.

وعاد الحجاج يخاطبها في شماتة: كيف وجدتيني صنعت بهذا العاصي؟

قالت أسماء في ثقة ويقين: وجدتك وقد أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك.

وبشجاعة فريدة وقفت أمام الحجاج الطاغية وقالت له بيقين وثبات:

إني أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج من ثقيف كذاب

ومبير».

فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير، فلا أراه إلا أنت!!

وتقدم منها عبد الله بن عمر رضي الله عنه معزياً، وداعياً إياها إلى الصبر، فأجابته قائلة: «وماذا يمنعني من الصبر، وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل!

وكانت تقف عند خشبة صلبه صابرة راسخة لا يهزها شيء، وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

فلما أنزل عن خشبة الصلب جعلت أسماء تحنطه بيديها وتكفنه، وقد كف بصرها وعميت وتقول أشهد بالله لقد كنت صواماً قواماً، ولكنه أجلك الذي كتبه الله، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

ومن الممكن أن نرصد هنا أهم مواقف السيدة أسماء في تمكين المرأة:

• مشاركتها في الأحداث السياسية وإظهارها صموداً وثباتاً لافتاً، وخروجها في مواجهة التيار المتمرد من قتلة عثمان.

• تصدرها للعلم والتعليم وإقبال الرجال والنساء على التعلم منها وتحصيل معارفها، وقد عرف من أهم تلامذتها عبد الله بن عباس وابنها عروة وعباد بن عبد الله بن الزبير وأبو بكر وعامر ابنا عبد الله بن الزبير والمطلب بن حنطب ومحمد بن المنكدر.

• شجاعتها الفريدة في مواجهة الطغيان ومقاومة الظلم، وثباتها على الحق الذي ناضلت من أجله على الرغم من التحديات القاسية التي واجهتها.

الشفاء بنت عبد الله

الاسم الكامل	الشفاء بنت عبد الله	
ألقاب مشهورة	أول قائدة شرطة في الإسلام	
التاريخ	تُوفيت ٢٠ هجرية	٦٤٢م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت بمكة وهاجرت إلى المدينة واستقرت بها وتوفيت فيها. واشتهرت بدورها القيادي في شرطة المدينة، حيث فوّض إليها عمر بن الخطاب أمر الحسبة في المدينة.	
أهم من تأثرت بهم	عمر بن الخطاب	
أهم من تأثروا بها	عائشة بنت طلحة، سكينة بنت الحسين	
أهم ثلاث قضايا نادت بها	• ضرورة تمكين النساء في كل وظيفة وفق كفاءتها • محاربة ما نسب إلى الدين من الرهبنة والضعف والخمول • الوعي بفصل السلطة القضائية عن السلطات الأخرى	
مدراس ومؤسسات باسمها	 بعض المدارس التي سميت باسمها ـ مكة المكرمة ـ الرياض ـ الأردن	

أول قائد شرطة في الإسلام
حوالي ٤٠ قبل الهجرة – ٢٠ هجرية

هي الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية، وتلتقي نسباً مع الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب في جدها العاشر عدي بن كعب، ومن هنا فقد اشتهرت بالعدوية نسبة إلى عدي بن كعب.

وكما كان أبوها عدوياً معروفاً في العرب فقد كانت أمها أيضاً مخزومية وهي فاطمة بنت وهب المخزومية من الأسرة التي نشأ فيها خالد بن الوليد وأبوه الوليد بن المغيرة الذي نزل ذكره في القرآن الكريم: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، وقد استحق هذه المكانة الكبيرة في أذهان العرب لما كان عليه من شجاعة وفروسية وحكمة ونبالة.

نشأت الشفاء إذن في بيت مجد من بيوت العرب، وسرعان ما أخذت نصيبها من المعرفة والحكمة، وأصبحت محل احترام الناس وتقديرهم، وأصبحت مرجعاً للنساء في الحكمة والتوجيه والإرشاد، وكانت تستخدم آنذاك وسائل قومها من العلاج النفسي بالرقى والتمائم، حتى صارت مقصداً للرجال والنساء على السواء، وعُرفت في مكة بوعيها وحكمتها وعرفانها، ويشير عدد من المؤرخين إلى أن الشفاء لقب عُرفت به وأن اسمها ليلى بنت عبد الله ولكن نجاحها في الطب الشعبي السائد آنذاك وتوفيقها في شفاء كثير من الناس هو الذي منحها لقب الشفاء الذي عُرفت به فيما بعد.

وحين بعث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بادرت إلى الإيمان به وكانت من السابقات على الرغم من أن بني مخزوم تأخر إسلامهم، وهذا يعكس قوة شخصيتها وقدرتها على الاختيار والتمييز، وتزوجت أبا حثمة بن حذيفة بن غانم العدوي القرشي، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وقد شهد معه أحداً وكان دليل النبي صلى الله عليه وسلم فيها.

ولم تتأخر الشفاء بعد إسلامها عن ممارسة الطب الشعبي وطوّرت معارفها في ذلك ونقل لنا المؤرخون عدداً من المواقف التي كانت تعرض فيها خبرتها ومعارفها على الرسول الكريم، فكان يستحسن ما تصنعه من الطب ويشير عليها بأنواع أخرى من العلاج، وأرشدها إلى المعالجة النفسية باستخدام النص القرآني الذي تطمئن به القلوب وتركن به النفس.

وشعر النبي الكريم بالمواهب التي تمتلكها الشفاء، فكان يدنيها من عياله وكانت تعلم

زوجاتـه الكـرام كثيراً من المعارف الطبية، وأورد ابن حجر العسـقلاني في الإصابة عن الشـفاء قالـت: دخـل عليّ رسـول الله صلى الله عليه و سـلم وأنـا قاعدة عند حفصة فقـال ما عليك أن تعلمي هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة!

وفي الحديث إشـارة إلى أن الشـفاء كانت تعلـم أمهات المؤمنين الكتابة والقـراءة، أما رقية النملـة فهـي نوع من الطب القديم كانت تمارسـه العرب للشـفاء من داء النملـة، وهو دهن كان يصنع من عود الكركم ثم يمزج بخل ويطلى به مكان النملة (التنميل) من بدن المريض.

وكانت الشـفاء تعرض أسـاليب عملها في الطب على النبي صلى الله عليه وسـلم، قالت يا رسـول اللـه أني كنت أرقـي برقى الجاهلية وقـد أردت أن أعرضها عليك قـال: اعرضيها عليّ، فعرضتها عليه، وبعد أن اسـتمع النبي الكريم إلى معارفها في الطب وتجاربها في الشـفاء أقرها علـى عملهـا الطبي وعهد إليها أن تعلم نسـاء الصحابة هذه المعارف، وقـال: ارقي بها وعلميها حفصة.

وهكـذا فإن الشـفاء برعت في الكتابـة وفي الطب، وقد وفر لها النبي الكريم فرصة نشـر هذا اللون من المعرفة، وأقطعها داراً بالمدينة، وساعدها في بناء ما يمكن تسميته أول منتجع تعليمي وصحـي فـي الإسـلام، حيـث كان المرضى يأتـون إليها وكانت توفـر لهم ظروف الاسـتطباب المناسب، كما كانت تقوم بدورها في تعليم القراءة والكتابة لنساء المدينة ورجالها، بل أن النبي الكريم نفسه كان يحب أن يأوي بين الحين والآخر إلى منشأة الشفاء، يزورها ويقيل عندها، وقد اتخذت له فراشاً وإزاراً خاصاً ليقيل به حين يكون عندها، وما زال عندها حتى أخذه منها مروان بن الحكم حين ولي المدينة.

واشتهر أمر الشفاء وعرف الناس نجاحها، وأصبحت الدار التي استلمتها من الدولة مؤسسة تعليمية وصحية متميزة، وقد رزقت الشفاء بغلام موهوب من زوجها أبي حثمة، أسمته سليمان، وسرعان ما شب الفتى وكان عوناً لأمه على مسؤولياتها في التعليم والصحة.

وبعد رحيل النبي الكريم ازداد نشـاط الشـفاء واشـتهرت دارها التي كان الرسول قد أقطعها إياهـا بالحكاكيـن فـي المدينة المنـورة، وقصدها النـاس أيام أبي بكـر وعمر للتعلـم والعلاج، واسـتعانت الشـفاء بعدد من النسـاء المدربـات حتى اشـتهر أمرها، وفي أيام عمـر بن الخطاب كانت شـهرة الشفاء قد انتشـرت في جزيرة العرب، فتوجه عمر للاستفادة من خبرة الشفاء وقوة شـخصيتها وخبرتها، ورأى أنها جديرة بتولي الحسـبة في السوق، وهو منصب يوازي في زماننا قائد الشرطة العامة، المكلف بتطبيق الأمن والشهر على حماية الناس ومراقبة أقواتهم وأرزاقهم

في السوق ومعاقبة المستغلين والمقامرين والمحتالين.

وفي موقف ذي دلالة يرويه محمد بن سلام قال: أرسل عمر بن الخطاب إلى الشفاء بنت عبد الله العدوية. أن أغدي عليّ. قالت: فغدوت عليه فوجدت عاتكة بنت أسيد ببابه فدخلنا فتحدثنا ساعة فدعا بنمط (هدية من قماش) فأعطالها إياه، ودعا بنمط دونه فأعطانيه!

لم تتردد الشفاء في الاعتراض على موقف عمر فقالت:

تربت يداك يا عمر! أنا قبلها إسلاماً، وأنا ابنة عمك، وأرسلت إليّ وجاءتك من قبل نفسها! ووقع كلام الشفاء في نفس عمر موقعاً حسناً وأعجبته الجرأة والحجة التي تتحلى بهما الشفاء، وأجابها فقال: ما كنت رفعت ذلك إلا لك، فلما اجتمعتما ذكرت أنها أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك!

ومع أن عاتكة ظفرت بالنمط الأغلى من الثياب، ولكن الشفاء حظيت بالوظيفة الأعلى في الدولة، وتأكد عند عمر ما تملكه الشفاء من شخصية وحجة وبرهان، يجعلها أهلاً للوزارة فعهد إليها بالحسبة العامة في السوق، وهي تعادل في زماننا وزارة الداخلية أو قيادة الشرطة العامة، وفوضها بالصلاحيات الإدارية التي تحتاجها لتطبيق ذلك.

وهنا يتردد المؤرخون بين القول أنها كانت حسبة عامة على السوق أو أنها كانت حسبة على النساء خاصة، ولكن حتى لو كانت مختصة بالنساء فإن ذلك يشير بوضوح إلى المشاركة الواسعة للمرأة في الحياة العامة في المدينة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين.

والحقيقة أن الروايات الكثيرة التي أشارت إلى أخبار الشفاء تؤكد أنها منحت الولاية العامة في السوق على الرجال والنساء جميعاً، ولم تكن توفر نصحاً للخاطئين وزجراً للمستكبرين، حتى وثق بها الناس وخشيها المفسدون والخاطئون، وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن الشفاء رأت فتياناً يقصدون في المشي، ويتكلمون رويداً، ويبدو على وجوههم الضعف والسكينة والوهن، فقالت: ما هؤلاء؟ قالوا: نسَّاك!

لقد كانوا جماعة من الشباب الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الدنيا بما فيها من متاع الغرور، ولزموا المساجد في الذكر والطاعة والعبادة، وعزفوا عن الحياة بما فيها!

ولكن الشفاء رفضت سلوكاً كهذا وقالت: كان والله عمر بن الخطاب إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو والله الناسك حقاً.

وفي الواقع فإن المروي عن الشفاء مثير، ومع أننا لم نرصد اعتراضاً وجيهاً على عملها في كتب الرواية، ولكن من المؤكد أن اقتحاماً كهذا كان يواجه بالصدود من قبل تيارات معروفة

في المجتمع الإسلامي، خاصة في تلك الفترة حيث كان الغالب على ثقافة النساء منطق «وقرن في بيوتكن»، والزموا ظهور الحصر، وخير أحوال المرأة أن لا ترى الرجال ولا يراها الرجال، والمرأة إذا أقبلت فهي شيطان وإذا أدبرت فهي شيطأن، والمرأة عورة من رأسها إلى أخمص قدميها، وهي أخطر الفتن على الرجال، وغير ذلك من السلوكيات التي كانت شائعة في الناس ذلك الزمن، وبهذا فإن الشفاء كانت تنتمي إلى مدرسة عائشة بنت أبي بكر التي خرجت إلى الحياة بقوة واقتدار وردت على الفقهاء والرواة، وشاركت في الحياة السياسية وقادت جيشاً عرمرماً، بغض النظر عن صواب خياراتها أو خطئها في ذلك.

وبعد رحيل الشفاء قام بمؤسستها من بعدها ابنها سليمان بن حثمة، واستمرت دارها ملجأ صحياً للمرضى من أبناء المجتمع الإسلامي، ويمكن القول أن الشفاء أسست بجدارة أول بيمارستان حقيقي في الإسلام وفي جزيرة العرب.

وعهدت الشفاء لابنها سليمان أن يؤم النساء ويرعاهن، فكان يقوم بشأن النساء في المدينة، وهذا يعكس أيضاً روح التكامل بين المرأة والرجل التي كانت تسود في المجتمع الإسلامي الأول آنذاك.

وأقر الخليفة عمر سهيل بن حثمة في إمامة النساء وعرف بإتقانه القرآن الكريم، وتحول مع الفتوح الإسلامية إلى أذرح وأقام فيها واشتهرت إذرح بأنها أرض الصلح ففيها جرى التحكيم بين أبي موسى الأشعري وبين عمرو بن العاص وفيها صالح معاوية الإمام الحسن، وكانت عند سليمان في أذرح بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي أعدتها له الشفاء حتى أخذها مروان بن الحكم.

تُوفيت الشفاء بنت عبد الله عام ٢٠ للهجرة في خلافة عثمان بن عفان.

سكينة بنت الحسين

الاسم الكامل	سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب	
ألقاب مشهورة	رائدة الأدب النسائي وفقيهة المجتمع السعيد	
التاريخ	٤٧-١١٧هـ	٦٦٩-٧٣٦م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت بالمدينة وارتحلت مع أبيها إلى العراق وشهدت كربلاء ثم حملت أسيرة إلى دمشق ثم ارتحلت إلى المدينة فالعراق ثم عادت إلى المدينة وتوفيت فيها.	
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثرت بهم	الحسين بن عليّ	
أهم من تأثروا بها	النخب الثقافية في العهد الأموي	
أهم قضايا نادت بها	• حق المرأة في الحرية السياسية والاستقلال بالعمل العام. • حق المرأة في الزواج والطلاق ورفض الإجبار على الزواج. • حق المرأة في قيادة الثقافة والمؤسسات العلمية والثقافية. • تأسيس حق المجتمع في الحياة السياسية ومعارضة السلطة.	

مدراس ومؤسسات باسمها	عشرات المدارس والكليات العلمية اختارت اسم سكينة في العراق وقطر والشام ومصر والمغرب
الضريح	ضريح السيدة سكينة في وفى الباب الصغير بدمشق

أول صالون أدبي في الإسلام

هي سكينة بنت الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، أمها الرباب بنت امرئ القيس الكلبية، روت السنن عن أبيها وعن عدد من الصحابة والتابعين، وكانت بارعة الذكاء والجمال واشتهرت أخبارها وأيامها وأقوالها.

نشأت سكينة بنت الحسين في بيت أبيها الحسين بن علي، حيث كانت داره تغلي بالأحداث الجسام، وكان الحسين قد اختار موقفه في الثورة ضد حكم يزيد بن معاوية، وكان على السيدة سكينة أن تواجه أقداراً قاسية مريرة، خطبها ابن عمها عبد الله بن الحسن الأكبر، واشتهر أمر هذه الخطوبة وبدا للناس أنه زواج العصر بين العريس الحسني والعروس الحسينية، وفي غمرة أيام خطوبتها وفرحها، وجدت نفسها في الطريق إلى كربلاء، مع أبيها الحسين وخطيبها عبد الله بن الحسن، وفي يوم الطف الدامي تقدم خطيبها عبد الله بن الحسن يقاتل مع أبيها في كربلاء، وفي ساعة واحدة فارقت أباها وزوجها وسبعين من أهل بيته في مأساة دامية قاسية، ومباشرة وجدت نفسها في الأغلال يقودها قوم قساة إلى دمشق في موكب ظالم فيه رأس الحسين سيد الشهداء، ولتجد نفسها تحمل مع السبايا من كربلاء إلى دمشق مروراً بحلب وحماة ووقفت أمام يزيد وهي ترى ما يصنع بأبيها وزوجها، وشهدت مواقف عمتها زينب في مواجهة يزيد،

وتعلمت منها الشجاعة واليقين، وبعد أن أتم يزيد نكايته بأهل البيت جهّز السبايا وردهن إلى المدينة المنورة، ومضت سكينة في درب الآلام إلى المدينة المنورة وهي تستعد لمشوار طويل من العمل والعطاء.

كان لديها ألف مناسبة للبكاء، وكان بالإمكان أن تحشد حياتها بالمراثي والآلام ولكنها اختارت أن تنهض من جراحها وآلامها، وقررت أن تحارب الظلم بالفرح والقهر بالعطاء وآبت إلى المدينة المنورة، وهناك بدأ مشوارها في خدمة الثقافة والأدب والفن كانها أرادت أن تقول للعالم أن ركام المظالم لا يمكنه أن يمنع إرادة الحياة.

في المدينة المنورة قامت سكينة بنت الحسين بتأسيس ما يمكن تسميته أول صالون أدبي في الإسلام، وأفادت سكينة من أجواء الاستقرار في المدينة التي كانت نسبياً نائية عن الأحداث الدامية في العراق والشام، حيث ازدهر فيها الفن والغناء، واشتهر فقهاء المدينة بالفتيا بجواز الغناء، وفي دار سكينة كان يحتشد الشعراء والأدباء والفقهاء أيضاً، فالمرأة من سيدات بيت النبوة، وعندها علم العترة الطاهرة، وروت التفسير والسنن عن أعلام الصحابة والتابعين، ولكنها اختصت برعاية الفن البريء الأصيل، وتمكنت من جمع الشعراء والأدباء على بابها.

وقال الذهبي: ربما اجتمع ببابها جرير والفرزدق وجميل وهم عيون شعراء العصر الأموي، فأمرت لكل واحد منهم بألف درهم.

واشتهر أمر سكينة بنت الحسين وروت لها كتب الأدب عشرات المواقف الفريدة والطريفة، وخطبها بعد ذلك الملوك، وروت كتب الأدب أخبار خطوبتها وأورد صاحب تاريخ دمشق أن مصعب بن الزبير وكان مصعب وهو أبرز رجال السياسة والحكم في العصر الأموي قبل أن ينفرد بحكم الحجاز ضد بني أمية، قام حتى أخذ بالركن اليماني فقال اللهم إنك رب كل شئ وإليك يصير كل شئ أسألك بقدرتك على كل شئ أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين، وقد حضر ذلك الخليفة عبد الملك بن مروان، ولا شك أن هذا الموقف يعكس لك النفوذ الكبير الذي بلغته سكينة بنت الحسين حتى صارت منتهى آمال الملوك، يخطبون ودها علانية في ظلال البيت الحرام.

وبالفعل تزوجها مصعب بن عمير وخاضت معه حياة سياسية صاخبة حافلة بالأحداث، وقد انتهى أمر مصعب بن الزبير بحرب طاحنة ضد عبد الملك بن مروان قُتل فيها مصعب قبل أن يستتب الأمر لعبد الملك بن مروان، وعلى الرغم من هذه النهاية الدامية فإن الخليفة عبد الملك تبرأ من ابن ظبيان قاتل مصعب وأمر بقتله، ففر إلى عمان، ثم تقدم عبد الملك إلى سكينة

يخطبها إليه ولكن سكينة أظهرت تمنعاً فريداً في مواجهة عبد الملك ورفضت أن يتزوجها على الرغم من أنه غدا الحاكم المطلق آنذاك للأمة الإسلامية.

ولم يكن رفضها لعبد الملك بن مروان إلا تأكيداً على حرية الاختيار التي بلغتها المرأة آنذاك فلم يكن للملوك سلطان على قرارها وإرادتها، ومع ذلك فقد ظلت كبيرة ومؤثرة عند الملوك وحين آل أمر الخلافة إلى ابنه هشام بن عبد الملك حاول أن يسترضيها وكان لا يرد لها طلباً، وقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أنها دخلت على هشام بن عبد الملك فسلبته عمامته ومطرقته ومنطقه فأعطاها ذلك كله.

وإذا أردنا أن نعرف دور سكينة بنت الحسين ومنزلتها فإن علينا أن نتذكر شريكة كفاحها في مشروعها التنويري وهي السيدة الفاضلة عائشة بنت طلحة بن عبيد الله عقيلة قريش التي كانت هي الأخرى بارعة الذكاء والجمال وقامت بدور مباشر في تنوير المرأة حيث عقدت هي الأخرى في دارها صالوناً أدبياً فريداً يغشاه عيون الناس ووجوه القوم كانت تلقي فيه رؤيتها في تنوير المرأة المسلمة وحقوقها وواجباتها.

لقد أدركت سكينة بنت الحسين أن النشاط السياسي محجوب عن أهل البيت في تلك المرحلة الدقيقة فاختارت أن تنصرف للعلم والفن والثقافة، واستطاعت أن تمنح المرأة قدماً راسخة في التوجيه والتنوير، وعززت دور المرأة حاضنة للثقافة والفنون، تملك عن بصيرة وإرادة مكانها في الاختيار والتدبير.

لما قتل مصعب خرجت سكينة بنت الحسين تريد المدينة، فأطاف بها أهل العراق، وقالوا: أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله. فقالت: لا جزاكم الله عني خيراً، ولا أخلف عليكم بخير من أهل بلد، قتلتم أبي وجدي وعمّي وزوجي، أيتمتموني صغيرةً وأرملتموني كبيرة.

أما ابن خلكان فقد ترجم لها في وفيات الأعيان:

هي السيدة سكينة ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم؛ كانت سيدة نساء عصرها، ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، وتزوجها مصعب بن الزبير فهلك عنها، ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام فولدت له قريناً، ثم تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول، ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقيل في ترتيب أزواجها غير هذا، والطرة السكينية منسوبة إليها.

واشتهر عن سكينة القول بأن المرأة تلي أمر زواجها، وهو الرأي الذي كان يرفضه الجمهور آنذاك، وقبله فيما بعد فقهاء الحنفية بشروط، وقد مضت سكينة في تزويج نفسها بنفسها

لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وقد أثار هذا الرأي الجريء حفيظة المتشددين فكتبوا بذلك إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك قد حارب زوجها مصعباً فأمر واليه هشام ابن إسماعيل بالتفريق بينهما بالقوة، وتمسكت سكينة برأيها، وأثار ذلك نزاعاً شديداً بين بني هاشم وبني زهرة، وانتهى الأمر بالتفريق بين الزوجين، وفي رواية أن الزواج لم يتم أصلاً وأن سكينة رفضته.

وقد أورد الأصفهاني في الأغاني عشرات المرويات عن سكينة بنت الحسين ومواقفها مع الشعراء والأدباء ومجالسها وحواراتها معهم، وهذه الروايات تعزز حقيقة واحدة وهي أن سكينة كانت بالغة التأثير في مجتمع المدينة، وكانت كلمتها مسموعة عند العامة والخاصة، وربما غيرت اسم الشاعر أو العالم فيشتهر بما سمته به سكينة، فقد عرف مثلاً ابن الماجشون مفتي المدينة باسمه هذا بعد أن أطلقت عليه سكينة هذا اللقب، وحتى نسي الناس اسمه الأول.

وتنفرد هذه الدراسة بأنها تقدم سكينة بنت الحسين ليس محض سيدة شاعرة وأديبة، وليس مجرد سيدة طاهرة من أهل البيت يلتمس عندها الدعاء والضراعة، بل إننا نقدمها هنا فقيهة مجتهدة، وعالمة أصولية، ملكت شرائط الاجتهاد، حيث صدر اجتهادها بشروطه المعتبرة، من أهله وفي محله، وملكت الشجاعة والحرية في الاجتهاد، وتقديم الحلول للمجتمع، ورفع الحرج وتوفير الحلول، وتقديم قراءة واعية وبصيرة للكتاب والسنة، وكانت رسالتها الواضحة تقديم فقه ناضج لمجتمع إسلامي سعيد.

وخلال التاريخ الإسلامي لم يتوقف المؤرخون والرواة عن رواية أخبار سكينة، ومن المدهش أنها ارتسمت لها عدة صورة متناقضة، تختلف في كل شيء، ولعل سيرة سكينة هي أوضح الصور لتدخل الإيديولوجيا في البحث العلمي، ومن العسير أن نجد قراءة موضوعية محايدة عن السيدة سكينة، وحتى هذه الدراسة فإنها بيوريتانياً لا تزعم ذلك أيضاً، وقد استفظع الرواة سنياً وشيعياً أن تكون هذه السيدة الجليلة وهي من أئمة أهل البيت خارج المألوف، وفي الغالب فإن ما روي عنها في الشجاعة والحرية والتحرر كان قلقاً لرواة النص التقليدي دفع كثيراً منهم للتشكيك في الرواية واتهام الرواة بالدجل والكذب، ولم نعثر على فقيه بدا مستعداً لتغيير مواقفه استناداً على الرواية عنها، بل ظل الاتجاه السائد هو قبول ما اتفق مع المألوف من الرواية ورد ما لا يتفق.

وقد وردت أخبار سكينة مفصلة في كتب الطبقات والتاريخ وكتب الأدب والشعر، وتجدها في الترتيب الزمني كالتالي: جمهرة النسب لابن الكلبي ت ٢٠٤هـ والمردفات من قريش لابن

المدائني ت ٢٢٥هـ والطبقات الكبرى لابن سعد ت ٢٣٠هـ وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري ن ٢٣٦هـ وكتب المحبر لأبي جعفر الهاشمي ت ٢٤٥هـ والتاريخ الأوسط للإمام البخاري ت ٢٥٦هـ وكتاب جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار المكي ت ٢٥٦هـ وأخبار مكة للفاكهي ت ٢٧٥هـ وابن قتيبة ت ٢٧٦هـ في كتبه الأربعة: المعارف، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار والمسائل والأجوبة، وأنساب الأشراف للبلاذري ت ٢٧٩هـ والمختار لابن خودذابه ت ٢٨٠هـ وبلاغات النساء لابن طيفور ت ٢٨٠هـ ومجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ت ٢٨١هـ.

فهذه الكتب كلها تناولت حياة سكينة في عصر التدوين الأول وكلها قبل عام ٢٨١هـ ثم ظهر بعد ذلك كثير من الرواة الذين تناولوا حياة سكينة بالاستناد إلى الكتب الأولى مثل كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي، ومسند أبو يعلى، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والمرقصات المطربات لابن سعيد الأندلسي، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي وغيرها كثير.

ولكن لا بد من التحفظ على بعض ما روي في كتب الأدب في شأن سكينة وخاصة في كتابي الأغاني والمطربات المرقصات ومصارع العشاق، فمن المؤكد أن شهرة سكينة وتأثيرها وشخصيتها دفعت كثيراً من الرواة إلى رواية الحكايا على عواهنها عن سكينة دون تمحيص، لكن ما لا شك فيه أن سكينة كانت قوية التأثير وقد تركت بصمتها الواضحة على الحياة الثقافية والفنية والعلمية في المدينة المنورة.

ومن المدهش تواتر الروايات حول اجتماع الشعراء ببابها وبشكل خاص جرير والفرزدق وجميل بثينة، وهؤلاء الثلاثة أبرز شعراء العصر الأموي، ومن المؤكد أن سكينة كانت واضحة القول في رفض حكم بني أمية، ولكن شخصيتها الآسرة ومكانتها الكبيرة منحتها هذا الهامش الكبير بحيث ينوس شعراء الدولة الكبار بين قصور البلاط الأموي وبين صالونها الأدبي الرفيع.

وإنما يوجب الكتابة عن سكينة ريادتها في خمسة حقول:

١. هي واحدة ممن شهد أكثر مواقف التاريخ جدلاً وقسوة ومرارة، ومع أن ظروف الحرب والدم والسبي كانت كافية لتدفعها إلى واقع مرير من الحزن والاكتئاب والخيبة، ولكنها في الواقع قدمت قراءة مختلفة تماماً وقدمت نموذجاً للناس من حياة التعافي والعمل والأمل والسعادة، ومع أن حياتها سجل من العذاب والأسى ولكنها نجحت في وسم حياتها بالبسمة والفرح.

٢. هي رمز اتفاقي بين السنة والشيعة، وتحظى بأعلى درجة من الاعتبار بين أئمة السنة

والشيعة في السلف والخلف، ويمكن اعتبارها سارية سامقة لبناء الإخاء السني الشيعي التائه في التاريخ والذي انفجر في العقود الأخيرة على شكل خصومات وحروب مدمرة.

٣. هي رمز المرأة الواثقة القادرة التي استطاعت أن تكون مؤثرة وحاضرة في الحياة الاجتماعية، ومع أنها لم تعش حياة زوجية مستقرة، ولكنها حضرت في بيوت أهم قادة المرحلة وكان لها تأثير مباشر وواضح في أخطر القرارات السياسية في تلك المرحلة

٤. هي فقيهة معتبرة ومحترمة، كانت صاحبة رؤية تنويرية جريئة، وقد قامت بدور أساسي في رعاية الفنون الجميلة من الأدب والشعر والغناء والموسيقا، ويمكن أن نقول إنها كانت وراء النهضة الفنية المتميزة التي شهدتها المدينة المنورة في عصر الفتوح.

٥. هي صاحبة مشروع حقيقي في تمكين النساء، وقد قامت بدور أساسي في منح المرأة حقوقها ومساواتها، وحقها في الكسب والسعاية، وحقها في الخروج والسفر، وكذلك حقها في اشتراط خلوها للزوج فلا يعدد عليها، وهي حقوق تنهض بها اليوم مؤسسات كاملة للأسرة والمرأة.

وكانت وفاة سكينة بالمدينة يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة ١١٧ هجرية، ولكن عدداً من المؤرخين يميلون إلى أنها استقرت بعد كربلاء في دمشق أو في القاهرة.

وكما اختلفوا في مكان وفاتها فقد اختلفوا أيضاً في اسمها فقيل اسمها آمنة، وقيل أمينة، وقيل أميمة، وسكينة لقب لقبتها به أمها الرباب ابنة امرئ القيس بن عدي، ولا شك أن اضطراب الروايات حول سكينة ناشئ من تنازع السنة والشيعة على تحقيق انتمائها إليهم، وما تحمله سيرتها من مجد ومكانة.

عائشة بنت طلحة

الاسم الكامل	عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي	
ألقاب مشهورة	أجمل نساء العرب	جليسة الملوك
التاريخ	تُوفيت ١٠١هجرية	٧٢٠م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت بمكة في كنف أبيها طلحة بن عبيد الله وهاجرت إلى المدينة ثم ارتحلت مع أزواجها في حياة سياسية صاخبة بين العراق والشام والحجاز.	
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثرت بهم	أبو بكر الصديق ـ طلحة بن عبيد الله ـ عثمان بن عفان	
أهم من تأثروا بها	الطبقة السياسية وشعراء الدولة الأموية ومصعب بن الزبير وأبو زرعة ويحيى بن معين	
أهم ثلاث قضايا نادت بها	• حق المرأة في السفر والارتحال وقيادة الأعمال • حق المرأة في المساواة مع الرجال في كل المناصب • مسؤولية المرأة في قيادة الحركة الثقافية	

مدارس ومؤسسات باسمها			

الفقيهة الشاعرة.. رائدة التنوير والتجديد.. جليسة الملوك

عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم. تُوفيت سنة ١٠١ هجريـة، الأديبـة الفصيحة العالمة بأخبار العرب، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتها عائشـة أم المؤمنين، وكانت أشـبه الناس بها، أما أبوها فهو صحابي كبير هو طلحة بـن عبيـد الله التيمي، وهو من السـابقين الأولين في الإسـلام، وقد ارتفع شـأنه في الإسـلام ورشـحه عمر للخلافة بعـد موته ولكنه آثر عثمان بن عفان، فلما قُتل عثمان بن عفان شـكل طلحـة حلفاً ثلاثياً مع عائشـة بنت أبي بكر والزبير بـن العوام للثأر من قتلة عثمان، وقد كتب الله أياماً سـوداء مؤلمة حين اختلطت الأمور ووجد الثلاثة أنفسـهم في مواجهة مباشـرة مع علـيّ بـن أبي طالب ووقعت معركـة الجمل المؤلمة التي تركت آثاراً بالغة السـوء في تاريخ الأمة.

في هذه الأجواء الملتهبة وُلدت عائشة بنت طلحة، وتعرفت على المسؤوليات الجسام، وظهر نبوغها مبكراً واشـتهرت بقوة الحافظة وقوة الفصاحة والبلاغة، وبدأت مشـوارها في الرواية والتعليم حتى صارت مقصد الناس.

حددت عائشـة بنت طلحة رسـالتها في الحياة وهي تمكين المرأة في حقوقها وواجباتها، وبإمكاننـا أن نـرى هذه الحقيقـة من خلال تتبع أخبارهـا الكثيرة التي نقرؤهـا عنها في كتب الرواية والأدب والتاريخ.

ونالـت عائشـة بنت طلحة قدم السـبق في الروايـة عن النبي الكريم حتـى روى لها الأئمة الستة البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه، وقد وثقها الإمام ابن حجر فـي تقريـب التهذيب، وقال العجلي هي تابعيـة ثقة، أما أبو زرعة الدمشـقي فقد حدث عنها فقـال: امـرأة جليلة حـدث الناس عنها لفضلها وأدبهـا، وأكثر روايتها عن عائشـة رضي الله عنها، أما تلامذتها فهم كثير وقد عد منهم الحافظ الذهبي أحد عشـر عالماً من أشـهر علماء

التابعين منهم عطاء بن أبي رباح والمنهال بن عمرو وعمرو بن سويد وعبد الله بن يسار والفضيل بن عمرو وطلحة بن يحيى وحبيب بن أبي عمرة.

ولا شك أن رواية هؤلاء الأعلام عنها وروايتهم لعلمها دليل على المنزلة الرفيعة التي بلغتها عائشة بنت طلحة في العلم.

واشتهرت عائشة بالاجتهاد في الفقه الإسلامي، والنظرة المقاصدية فيه، وبعد وفاة أبيها طلحة ودفنه بالكوفة، قامت عائشة مع جماعة من النساء بنقل الجثة إلى البصرة واستخرجت جسد أبيها فلفته في الملاحف واشترت له عرصة بالبصرة فدفنته فيها، وبنت حوله مسجداً. وربما كانت عائشة بنت طلحة أول من سن العطور في القبور، وأمرت النساء أن يجبلن تراب القبر بماء المسك، فلقد رأيت المرأة من أهل البصرة تقبل بالقارورة من البان فتصبّها على قبره حتى تفرغها، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى صار تراب قبره مسكاً أذفر.

وعملت عائشة بنت طلحة على تمكين المرأة في حقها في الزواج والطلاق وإذا كانت سكينة بنت الحسين قد وليت أمر زواجها بنفسها فإن عائشة بنت طلحة وليت أمر طلاقها بنفسها، وعلى الرغم من أن زوجها مصعب كان أمير الحجاز والعراق ولكنها لم تخضع له خضوع ذلة قط، وأغضبها يوماً فظاهرت منه قائلة أنت عليّ كظهر أمي، وكانت ترى حق المرأة إذا ظلمها الزوج في مفارقتة ولو بدون إذنه، ولم تعد عن إيلائها وظهارها إلا بعد تدخل لجنة من الفقهاء فيهم قاضي العراق الشعبي والفقيه ابن قيس الرقيات، وعدلت عن رأيها .

ويسجل لعائشة بنت طلحة جرأتها في فهم نصوص القرآن الكريم، وقد اختارت موقفاً فقهياً جريئاً في تفسير آيات اللباس في القرآن ولم تقبل تفسير فقهاء عصرها بأن المقصود هو ستر وجه المرأة وكانت لا تستر وجهها، فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير في ذلك، فقالت: إن الله قد وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأستره، ووالله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد.

ولم تكن عائشة ترى تحريم تعطر المرأة وتزينها، وكانت تستغرب الروايات التي تمنع المرأة من الطيب والزينة، وكانت تروي عن خالتها عائشة بنت أبي بكر: كنّا إذا سافرنا مع رسول اللّه إلى مكّة نضمّخ جباهنا بالمسك ، فكنّا إذا عرقنا سال على وجوهنا، ورسول اللّه ينظر إلينا ونحن محرمات، فلا ينهانا.

واشتهر علمها وفقهها بين العرب حتى صارت حديث الملوك، وحين وفدت على الشام

لزيارة الخليفة هشـام بن عبد الملك وهو يومئذ خليفة بني أمية، بعث إلى مشـايخ بني أمية أن يسـمروا عنده، فما تذاكروا شـيئاً من أخبار العرب وأشعارها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته.

ويعكـس هـذا الموقف منزلة عائشـة بنت طلحة في العلـم، ودورها السياسـي البارز في الأحـداث، فعلـى الرغم من أن هشـاماً هـو ابن عبد الملك بـن مروان الذي حـارب زوجها مصعب ولكن عائشـة وجدت السـبيل لبناء جسـور من الثقة مع الخليفة الأموي بعد رحيل عبـد الملك، وأعادت العلاقات بيـن البيت التيمي والبيت الأمـوي، وقابلت الملوك بكفاءة واقتدار، وشاركتهم مجالسهم بجرأة ومسؤولية، ونالت احترام الجميع.

وأفادت عائشـة بنت طلحة من مكانتها كسيدة أولى حيث كانت زوجة مصعب بن الزبير حاكـم العراق والحجاز وأسسـت نواديهـا الأدبية والعلميـة في المدينـة والطائف وصارت دارها ملتقى العلماء والفقهاء والأدباء، وبذلك سـنت للنسـاء سـنة المشـاركة الحقيقية في الحياة العلمية والثقافية من موقع ريادي وقيادي.

وبعد مقتل مصعب بن عمير تزوجها عمر بن عبيد الله التيمي، ومات عنها (سنة ٨٢ هـ) فتأيمت بعده، وخطبها جماعة فردتهم.

وكانـت تقيـم بمكة سـنة، وبالمدينة سـنة، وكانـت تدير أموالهـا بكفاءة واقتدار وانتشـر عمالها بين مكة والمدينة والطائف حيث اتخذت قصراً في الطائف وكانت تعقد فيه مجالس الأدب والشـعر والروايـة والحكمـة، وتقـدم صورة واضحـة لتمكين المرأة ومشـاركتها في الحياة العامة.

واشـتهرت عائشة بنت طلحة مع السيدة سكينة بنت الحسين برعاية الأدب والفن والغناء في المدينة ، وقد اشتهرت المدينة بالغناء أيام التابعين حتى صارت ملجأ للأشواق والأذواق، ومـن الأعلام الذين عرفـوا بزيارتها في مجالسـها بمكة والمدنية والطائـف جرير والأخطل وعمر بن أبي ربيعة .

وأخبارها مع الشـعراء والمنشـدين كثيرة، ومن الجدير ذكره أنهـا خاضت هذا اللون من رعايـة الفـن والآداب وظلت محل احتـرام الرواة والمحدثين والفقهاء، وقـد قدمنا طرفاً من أقوالهم في علمها وفضلها ومنزلتها، وتتلمذ عليها عدد من أئمة التابعين.

وقـد عـلا كعبها في العلم وأخـذ عنها علماء عصرها، بل أن عدداً مـن العلماء من ذريتها انتسـبوا إليهـا ومنهم عبيد الله بن محمد العيشـي البصري الأخبـاري المتوفى ٢٢٨ وقيل له

بن عائشة والعائشي والعيشي نسبة إلى عائشة بنت طلحة لأنه من ذريتها وكان ثقة جواداً ثقة جواد روى عنه أبو داود والترمذي والنسائي، ولا شك أن انتسابه إلى عائشة بعد أكثر من قرن على وفاتها دليل على حضورها العلمي والثقافي ومنزلتها في الفقه والمعرفة.

وعلى الرغم من مواقفها الجريئة، وبشكل خاص في حقوق النساء والتمرد على تقاليد القبائل وانفتاحها الكبير على اللقاء المشترك بين الرجال والنساء فإن عائشة ظلت محل احترام الفقهاء والعلماء والرواة، وقد أجمع علماء الجرح والتعديل على وثاقتها وعلمها وفقهها.

تُوفيت عائشة بنت طلحة عام١٠١هجرية .

رابعة العدوية

الاسم الكامل	رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية	
ألقاب مشهورة	شهيدة العشق الإلهي	إمامة المحرومين
التاريخ	١٠٠-١٨٠ هـ	
الولادة والارتحال والوفاة	وُلدت في البصرة ثم ارتحلت مع أهلها بعد قحط وجفاف ثم وقعت في الأسر وبيعت في سوق الإماء ورحلت إلى بيت المقدس ثم عادت وتُوفيت بالبصرة	
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثرت بهم	سفيان الثوري وعمر بن عبد العزيز	
أهم من تأثروا بها	أئمة التصوف في التاريخ الإسلامي إبراهيم بن أدهم ورياح بن عمر القيسي، وسفيان الثوري، وعبد الواحد بن زيد ومالك بن دينار ورباح القيسي وشفيق البلخي وكتب عنها الذهبي والسهروردي وابن الجوزي	
أهم قضايا نادت بها	• إحياء ثقافة الروح والإشراق واعتبار النبوة عطاء موصولاً. • حق المرأة في ريادة الفنون والآداب.	

	• الدعوة لتصحيح عقيدة الإيمان بالدار الآخرة على أساس من العدل والرحمة. • تصحيح عقيدة التوحيد فيما يتصل بالقهر والجبر ونفي كل ظلم أو مكر منسوب للخالق.
مدارس ومؤسسات باسمها	 مئات المدارس والمعاهد في العالم الإسلامي سُميت باسمها في الخليج والعراق والشام ومصر وإفريقيا وآسيا
ضريحها	 لها ضريح في القدس وآخر بالبصرة .

رابعة العدوية البصرية
فيلسوفة الإشراق والأشواق (١٠٠ – ١٨٠ هجرية)

رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، بنت إسماعيل البصرية، مولاة آل عتيك، من أعيان عصرها، فضلها مشهور.

وأشهر من كتب سيرتها ابن الجوزي في جزء له والذهبي في أعلام النبلاء.

اسمها رابعة وعُرفت بكنيتها «أم الخير»، وهي بنت إسماعيل العدوي، وُلدت في مدينة البصرة، وكانت لأب عابد فقير. ومات الأب ورابعة لم تزل طفلة دون العاشرة. ولم تلبث الأم أن لحقت به. فذاقت رابعة مرارة اليتم الكامل، دون أن يترك والداها من أسباب العيش لها سوى قارب ينقل الناس بدراهم معدودة «معيبر» في أحد أنهار البصرة. خرجت لتعمل مكان أبيها ثم تعود بعد عناء تهون عن نفسها بالغناء. وبذلك أطبق الشقاء عليها وحرمت من الحنان والعطف

الأبوي.

وبعد وفاة والديها غادرت رابعة مع أخواتها البيت بعد أن دب البصرة جفاف وقحط أو وباء وصل إلى حد المجاعة، ثم فرّق الزمن بينها وبين أخواتها، وبذلك أصبحت رابعة وحيدة مشردة.. وأدت المجاعة إلى انتشار اللصوص وقطاع الطرق.. وقد خطف رابعة أحد اللصوص وباعها بستة دراهم لأحد التجار القساة من آل عتيك.. وكانت رابعة جميلة المظهر رائعة الصوت وكانت تعزف على الناي، فاستغل سيدها موهبتها في جني المال وجمع الناس دون التفات لمشاعرها الرقيقة وروحانيتها الصافية التي كانت تتأبى أن تكون تلك المواهب العظيمة سبباً لجمع الثروة، وتناقلت الأخبار فظائع من قسوته على رابعة، وربما كان ذلك ما أطلق في نفسها مشاعر الوجد بالله والحنين إلى العالم الأسمى الذي ينتصف فيه المظلوم من الظالم.

وكانت روحها تواقة إلى الحرية، ولذلك عظمت معاناتها في أسر الرق، وروى فريد الدين العطار أنها لما طال عناؤها كانت تدعو الله في جوف الليل فتقول: اللهم إن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك.

وأن مولاها أطلقها لما سمعها تدعو بذلك، فرحلت إلى الصحراء زمناً ثم آبت إلى البصرة واجتمع عليها المريدون والطلبة والفقهاء.

تعتبر السيدة رابعة العدوية واحدة من أشهر النساء في تاريخ الإسلام، وقد تمكنت من تأسيس مدرسة فريدة في العلم والإشراق وتتلمذ عليها كثير من فقهاء العراق وصارت مرجعاً لثقافة الإشراق الروحي والمعرفة الربانية.

وقد شهدت رابعة العدوية أيام بني أمية وأول أيام بني العباس، وكانت البصرة آنذاك تغلي بالأحداث الجسام ولكن رابعة العدوية استطاعت أن تؤسس روضة روحية سامية لا يكدرها الهول السياسي الذي كان طاحناً في تلك الأيام، واستطاعت أن تجلب إلى دارتها الروحية عجائب الحكمة وظلال الأذواق والأشواق، فيفيء إليها الراغبون بالسلوك إلى الله والمشتاقون إلى عالم من الحكمة لا يكدره صخب السياسة والعسكر.

روى الهجوري في كشف المحجوب قال: «جاء أمير البصرة إلى رابعة يعودها وقد حمل إليها أموالاً كثيرة وسألها أن تستعين بها على حياتها، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: هو يعلم أني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف آخذها ممن لم يملكها. وحذرت أمير البصرة أن يعود إلى مثلها».

وكانت رابعة العدوية جريئة في طرح أفكارها، ولم تكن تبالي أن تواجه غضب كثير من الناقدين إذا كانت ترى أن ما تقوله حق، ولم يكف خصومها عن الخوض فيها، ولم تكن تختار رأياً أو اجتهاداً ليس عليه الناس إلا ويثور أهل التعصب والتزمت، ومن ذلك أنها لما قالت:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

قال أبو سعيد بن الاعرابي: فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت، وإلى الإباحة بتمامه.

ومن أشهر من أنكرها وحكم بضلالها الإمام أبو داود السجستاني، وقد اعتذر له ابن خلكان بقوله ولعله قد بلغه عنها شيء من كلام حاسديها.

ومن أشهر من دافع عنها وشرح مقاصد أقوالها الإمام شهاب الدين السهروردي في كتابه عوارف المعارف والإمام ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة وكتابه شذور العقود، والذهبي في سير أعلام النبلاء.

ورابعة امرأة فريدة في تاريخ الإسلام، لقد استطاعت أن تؤسس لمدرسة فلسفية عرفانية فريدة، خالفت فيها المألوف، وخرجت عن آراء الرجال، ودعت إلى عبادة الله وحده بعيداً عن رغائب الجنة والنار، وقالت: أن قوماً عبدوك رجاء جنتك فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوك خوفاً من نارك فتلك عبادة العبيد، ولم يعرف حبك إلا من عبدك لأنت أنت الله، المستحق للعبادة والحمد، وهو ما عبرت عنه بقولها:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك	وأغلقت قلبي عمن سواك
وكنت أناجيك يا من ترى	خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراك

وقد أخذ عن رابعة وروى عنها عدد من أبرز علماء العصر العباسي الأول ومنهم إبراهيم بن أدهم ورياح بن عمر القيسي، وسفيان الثوري، وعبد الواحد بن زيد ومالك بن دينار ورباح القيسي وشفيق البلخي.

إن ما يعنينا في هذه الدراسة هو التأكيد على الدور الريادي الذي حققته السيدة رابعة العدوية لتمكين المرأة، ويمكن رصد ذلك من خلال النقاط الآتية:

أطلقت رابعة مدرستها العرفانية على غير مثال، ولم تكن بحاجة إلى رجل يرعى مدرستها أو

يؤصل لفكرها وفلسفتها، بل إن كثيراً من العلماء والفقهاء والنساك كانوا يأتون إلى دوحة رابعة تلامذة نجباء، يأخذون عنها الحكمة ويروونها في الناس، وبذلك أكدت أهلية المرأة في قيادة الفكر وتأسيس الحكمة، وأن قلوب النساء يمكن أن تكون مستودعاً لدقائق الحكمة ومشارق النور.

إن العناء الذي كابدته رابعة في حياتها القاسية يقدم مثلاً أعلى لكفاح النساء، ولم تنتظر رابعة أن يكون في فمها ملعقة ذهب حتى تأخذ دورها في بناء الحياة، لقد تمكنت من الإسهام الإيجابي في بناء الحياة على الرغم من ظروفها القاسية المريرة التي كابدتها.

تميزت رابعة بالجرأة في طرح أفكارها، وبذلك كانت تتحدى كثيراً من الثقافة السائدة، ومن أفكارها الجريئة موقفها الجديد في مسألة الجنة والنار، وإصرارها على إمكان رؤية الله تعالى للمؤمنين الراغبين، واستعمال كلمة العشق الإلهي، ورفضها لثقافة الكراهية ضد أي أحد من الخلق، وقالت إن حب الله ملأ عليّ قلبي ولم يترك مكاناً لبغض شيء!

ولم يمر هذا التحدي بدون صخب فقد تتالت الفتاوى في تكفير رابعة والإشارة إلى زندقتها وضلالها، ولكن ذلك كله لم يثنها عن مشروعها التنويري الذي كانت توقن به وتكافح من أجله.

ترتكز فلسفة رابعة في الإسلام على تمجيد الحرية، فقد رفضت أن تكون العبادة محض خضوع وخنوع، وأسست لعبادة سامية في أجواء الحرية، وفق منطق القرآن الكريم، يحبهم ويحبونه، واعتبرت العبادة علاقة متبادلة بين العبد وبين الرب، لا يُساق إليها العبد بالعصا، ولا يسعى إليها رجاء الحور والقصور، بل صارت العبادة عند رابعة كفاحاً شريفاً للوصول إلى الملأ الأعلى عن جدارة ومسؤولية ويقين.

إن فلسفة رابعة في العشق الإلهي كانت مصدراً ثراً لتطور الفن البريء الطاهر في الغناء والشعر والجمال، وعلى الرغم من الظروف العاصفة التي شهدتها حياة رابعة ولكنها تمكنت بكفاءة واقتدار من تأسيس روضة روحية غامرة تعمر بالفن البريء، وتنشر ثقافة الحب والسلام.

ولا بد من القول أن الدراما العربية أعادت سيرة رابعة العدوية بأنماط متعددة ربما خرجت عن سياق رسالة رابعة في العشق الإلهي، وقدمتها الدراما العربية للجمهور على شكل غانية لعوب، انطفأ شبابها فاختارت حياة العزلة والتنسك.

ومن أشهر الأعمال الفنية التي قامت على حياة رابعة الفيلم الذي كتبه الشاعر المصري طاهر أبو فاشا «شهيدة العشق الإلهي» والذي ملأه بشعر على لسان رابعة غنته أم كلثوم، وكذلك الفيلم السينمائي المصري الذي قامت ببطولته نبيلة عبيد وفريد شوقي، كما كتب المفكر المصري

عبد الرحمن بدوي كتاباً بعنوان رابعة شهيدة العشق الإلهي.

قال ابن خلكان وابن الجوزي: تُوفيت رابعة سنة ١٨٠ أو ١٨٥ ودُفنت ببيت المقدس، وقبرها معروف شرق القدس، يزار، وهو على جبل هناك يقال له الطور.

والأرجح أن رابعة ولدت وعاشت وتُوفيت في البصرة، وأن المزار المشهور ببيت المقدس مشهد زارته وأقامت فيه زمناً قبل أن تعود إلى البصرة، أو أنه لرابعة أخرى ولعلها رابعة الشامية.

وقد كرمت السيدة رابعة العدوية بإطلاق اسمها على عشرات الشوارع والمدارس اعترافاً بدورها في تمكين المرأة والسمو بها.

عمر بن عبد العزيز

الاسم الكامل	عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف	
ألقاب مشهورة	خامس الخلفاء الراشدين	
التاريخ	٦٠-١٠١ هـ	٦٨٢-٧٢٠م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بدمشق وحكم خناصر قرب حلب ثم المدينة ثم عاد إلى دمشق ومات في إدلب	
أهم ما ألف عنه	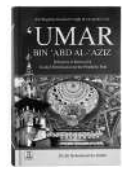 تاريخياً كتب ابن الجوزي وابن عبد الحكم كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز، وصدرت عنه مئات الكتب وفيما يلي بعضها باللغات العالمية المختلفة	
أهم من تأثر بهم	الصحابة ـ الخلفاء الأمويون- رجاء بن حيوة ـ يوحنا الدمشقي ـ غيلان الدمشقي	
أهم من تأثروا به	الأجيال الإسلامية التالية كلها	

أهم القضايا التي نادى بها	• العدالة الاجتماعية • الاجتهاد الجماعي • منع امتيازات السلطة الحاكمة • استقلال السلطة القضائية وسموها على الجميع • استحداث محكمة نقض خاصة في الدماء يرأسها الخليفة نفسه. •وقف الفتوح
مساجد بُنيت باسمه	هناك آلاف المساجد التي بُنيت باسمه في العالم الإسلامي
أفلام عنه	مسلسل عمر بن عبد العزيز بطولة نور الشريف إضافة إلى عشرات الأفلام والحلقات الوثائقية عن عمر بن عبد العزيز
الضريح	الأشهر أن ضريحه في دير شرقي عند معرة النعمان ويقال بل في حمص ويقال بل في القنوات بدمشق

عمر بن عبد العزيز.. إمام السلم والرحمة

لا يختلف اثنان على مكانة عمر بن عبد العزيز وإمامته وأهليته لما وصفته به الأمة من أنه الخليفة الراشدي الخامس.

وقد عاش عمر بن عبد العزيز أربعين عاماً، حكم منها خمس سنوات والياً للمدينة، ثم سنتين ونصف خليفة أموياً ولكنه ترك أثراً كبيراً في التاريخ الإسلامي وبات أكثر الخلفاء تعبيراً عن نهج النبوة والخلافة الراشدة.

المواجهة مع رموز الاستبداد والفساد

كانت سياسته في الحكم صارمة إلى الغاية، في مكافحة الفساد، وقد تميز بمواقف دقيقة جداً في مواجهة ممارسات الفاتحين، فقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي الرجل القوي في الدولة

الأمويـة قد تبنى خيار الفتوح والحروب تأسيسـاً على ضلال الأمـم ووجوب اجتثاثها أو إرغامها على دفع الجزية وهي صاغرة، وقد سار في هذا الركاب محاربون كثير، وبشكل خاص في شرق العالم الإسـلامي، واشتهر بشكل خاص قتيبة بن مسـلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي، ومن المحزن أننا ندرس الرجلين كأبطال فتح ومجد، في حين أن كل سطر في الحروب التي خاضوها كان يمثل انتهاكاً عميقاً لقيم السلام والتراحم وإخاء الإنسان والأديان.

وقـد كان عمر بن عبـد العزيز يتابع بغضب شـديد أخبار قتيبة ومحمد بن القاسـم، وبخلاف ما كان يبهج الناس من انتصاراتهما فقد كان عمر حزيناً من المآسـي التي فرضت على الشـعوب المغلوبـة، والتجـاوزات التي كان يمارسـها الفاتحون في حق الشـعوب المغلوبة، ولعل أوضح الأمثلـة علـى ذلك ما قام بـه فور توليه الخلافة إذ عقد محاكم مفتوحة لمراجعة سـلوك قتيبة وهو ما نبينه بعد قليل.

أمـا الحجـاج فقد كان عـدوه الأول، ولم يتقبل على الإطلاق بطشـه الصارم فـي العراق على الرغـم مـن إجماع الخلفاء الأمويين على أن الحجـاج كان رجل الدولـة الأول وحاميها ومثبت ملكها.

كان عمـر بن عبد العزيز شـديد النقد لسـلوك الفاتحين، وبشـكل خاص أولئـك الذين كانوا يرتبطون بالحجاج وبرامجه التوسـعية القائمة على الإكراه والتوسـع، وكان الحجاج يمكر بعمر بـن عبد العزيز وقد نجح في عزلـه عن المدينة أيام الوليد، وكان عمر يتوعده، حتى كان الحجاج يدعـو اللهـم اقبضني قبل أن يلـي عمر، وبالفعل ومن حسـن ظنه أنه مات قبل سـنوات من تولية عمر.

في رفضه لمبدأ الفتح بالسيف:

لم يوافق أبداً على أن العالم عدو كافر ماكر، يجب قتاله، بل أمم أمثالنا، خلقهم الله ليتعارفوا.. ولدينا كتاب مصدق لما بين يديه، ولديهم قيم مشتركة نبيلة، وعلينا أن نؤسس العلاقات الدولية على أسـاس من القانون والاحترام، وأن الحرب والثأر ليس شـكل العالم المتحضر، بل السـلام والحب والرحمة.

وحين ولي الخلافة بدأ على الفور تحقيق أفكاره في وقف الحرب والدعوة إلى السلام حظي الخليفـة الراشـدي عمر بن عبـد العزيز باحترام المسـلمين كافة، ومع أن فتـرة حكمه لم تتجاوز سـنتين ونصـف ولكنـه أنجز إصلاحات كثيـرة وتمكن من فـرض قيم جديدة للسـلم خلال فترة

حكمه التي امتدت بين عامي ٩٩ و١٠١ هجرية (٧١٠-٧١٢) ميلادية، وحققت من الازدهار والعدالة ما لا مزيد عليه، حتى أطبق المؤرخون على تسميته خامس الخلفاء الراشدين.

جاء عمر بن عبد العزيز في أيام مجد الدولة الأموية حيث أنجز الأمويون فتح الساحل الإفريقي كله ودخلوا الأندلس عام ٩٢ وأصبحوا يمثلون وجوداً مؤثراً في القارة الأوروبية، كما أنهم كانوا يحاصرون القسطنطينية، أما في الشرق فقد توغلوا على تخوم الصين، ووصلوا كاشغر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي.

كانت الانتصارات المتتالية في الفتوح قد عززت ثقافة القوة والتغلب، وأصبحت الحرب للحرب، أما رصد الجهود الدبلوماسية والحوارية فيمكن القول أنها كانت تعيش ظروف الدبلوماسية في خدمة الحرب وليس الدبلوماسية بدل الحرب.

كان عمر بن عبد العزيز من أشد الناس كراهية للحرب، وكان على خصومة شبه دائمة مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان أشهر قادة بني أمية وأشدهم بطشاً وفتكاً، وكان لا يكتم موقفه المطالب بعزله ومحاسبته، وقد صرح بذك مراراً للخلفاء الوليد وسليمان، وفي مجالس مختلفة، حتى قال لهم يا معشر بني أمية والله لو جاءت كل أمة بذنوبها وجئتم بالحجاج بن يوسف الثقفي لغلبتم سائر الأمم.

وكان يمثل داخل البيت الأموي الجناح المناصر لحقوق الناس والمدافع عن كرامتهم، وكان يجتهد في وقف المظالم، وقد ولي المدينة ست سنوات، واشتهر فيها بالعدل والرحمة.

وفي رصد هام من الجانب الأوربي لعصر عمر بن عبد العزيز كتب ول ديورانت في قصة الحضارة: قرَّب عمر بن عبد العزيز إليه أتقى العلماء في الدولة، وأتخذهم له أعواناً ومستشارين، وعقد الصلح مع الدول الأجنبية، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين.[١]

وخلال الشهور الأولى من خلافته يمكن رصد تطور الأمور عبر الجبهات الثلاث:

وقف الحرب في القسطنطينية:

ففي الشمال كان المسلمون يحاصرون القسطنطينية، وكان هذا الحصار يستهلك خزينة الدولة حيث يشارك به كبار أمراء بني أمية، وعلى رأسهم مسلمة بن عبد الملك وهو شقيق

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة ج ٢٢ ص ٤٣٢

الخلفاء الأربعة، وكان الحصار يتم على الجانب الآسيوي من القسطنطينية، حيث أدى الحصار الطويل إلى ترهل كبير في الأداء ونفقات هائلة في العطاء.

كما كان هناك جيش آخر يحاصر القسطنطينية من جهة البحر بقيادة هبيرة بن عمر، ولا شك أن نفقات هائلة كانت تلزم الدولة الإنفاق على الجيشين في حصارهما المرير للقسطنطينية.

ومن المعلوم أن حصار القسطنطينية بدأ مبكراً حيث ذهبت أول حملة لفتح القسطنطينية أيام عثمان بن عفان وشارك فيها أبو أيوب الأنصاري، فهي مستمرة إذن منذ نحو سبعين عاماً، وهي ترتبط عادة ببشارة النبي الكريم لفاتح القسطنطينية وهي بشارة كان يتمناها كل واحد من قادة الفتح: لتفتحن لكم القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش.

وقد كان الوجود العسكري في الشاطئ الشرقي للقسطنطينية مع غياب المشروع الحواري سبباً في تكتل الدول الأوروبية ضد الوجود الإسلامي، وقد أسس ذلك لتعاون بين الممالك المتعادية في أوروبا الشرقية من بلغار وبلقان ويونان للتعاون في صد المسلمين، وكان ذلك يشكل من وجهة نظر عمر بن عبد العزيز انتكاسة حقيقية لجهود المسلمين في نشر الدعوة والسلم في الأرض.

وأدرك عمر بن عبد العزيز أن الحصار ليس السبيل المناسب لفتح القسطنطينية، وأن ظروف الفتح العسكري غير متوفرة، وأن الفتح يمكن أن يتحقق من خلال الدبلوماسية والحوار والحكمة والموعظة الحسنة، وقرر وقف الحرب على القسطنطينية.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك يأمره بالقفول وكان يحاصرها من جهة البر، كما كتب لهبيرة بن عمر وكان يقود حصاراً بحرياً على القسطنطينية وكان معه مقاتلون من مصر وليبيا، وأمره بالانسحاب على الفور والحضور لدمشق.

وكان فتح القسطنطينية يتم بدوافع انفعالية غير واقعية، ولم تكن هناك مصلحة حقيقية للمسلمين بالاستمرار في حصار القسطنطينية ولا توجد مؤشرات حقيقية على قدرة المسلمين على دخولها أو بسط السلم فيها، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر بغزو القسطنطينية وحشد لها قوات كثيرة وأنفذ أخاه مسلمة لفتحها، وظلت قوات مسلمة تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، واستنزفت بذلك أرواحاً وأموالاً طائلة دون جدوى.

وكان سليمان بن عبد الملك مصراً على فتح القسطنطينية ولكن ذلك لم يكن واقعياً على الإطلاق وقد اشتد الضنى على المحاصرين، واشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب

من الجهد والجوع.

فلما ولي عمر رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب، وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين.(٢)

وبالفعل فقد رفع المسلمون حصار القسطنطينية وعادت الجيوش إلى الشام، وبدأ عمر برنامجاً دبلوماسياً لبناء علاقات حسن جوار مع الروم في بلاد الأناضول وعلى تخوم القسطنطينية.

وجاءت الأيام بصدق ما فعل عمر بن عبد العزيز، إذ لم تكن أية ظروف واقعية متوافرة لهكذا لون من الفتح، وكان علينا أن ننتظر سبعمائة سنة أخرى حتى تتوفر الظروف لمحمد الفاتح في استئناف فتح القسطنطينية من جديد.

الأندلس

أما في الأندلس فقد كان موقفه أشد عجباً، فقد فتحت الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك قبل خلافة عمر بنحو سبع سنين، على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، حيث استفاد موسى بن نصير من خلاف الكونت يوليان مع رودريك ملك القوط ودخل بناء على دعوة يوليان إلى الأندلس وحارب ببسالة الجيش القوطي، وتمكن من تأسيس موطئ قدم للمسلمين في الأندلس.

واعتبر ذلك الفتح أعظم انتصارات بني أمية، وأول دخول للإسلام إلى القارة الأوروبية، وبالتالي اعتبر أهم حدث عالمي في القرن الثامن الميلادي.

ولكن الفتح لم يكلل أبداً باستقرار مقنع في الأندلس، وتصرف الفاتحون كمحاربين قساة، ولم ينجحوا في بناء الجسور مع الشعوب الأصلية، وتصرفوا مع الأندلس كتابعة للشمال الإفريقي، حيث كان موسى بن نصير يحكم المغرب الأوسط والأقصى، وهو ما زاد من مخاوف السكان وزاد من نفورهم تالياً من الإسلام وقيمه، وأصبح اللقاء المتاح بين الحضارة الإسلامية والشعوب المحلية هو في ظلال السيوف والحتوف، ومن المؤكد أن هذا الواقع لن يقود إلى تحول الأندلسيين إلى الإسلام، بل إلى زيادة مشاعرهم العدائية ضد الفاتحين وضد الدين الذي جاؤوا به.

وهكذا بدا دخول الأندلس بالنسبة لعمر بن العزيز مغامرة غير محمودة العواقب، وبدا له

(٢) ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم، الكامل في التاريخ، ج ١٨ ص ٤٠

أن العلاقة مع القارة الأوربية يجب أن تخضع لقواعد أخرى، وأننا لن نستطيع أن نقدم هداية للأندلسيين عبر جيوش محاربة.

كان قرار عمر بن عبد العزيز الخروج من الأندلس، ولا شك أن قراراً كهذا كان يمثل استراتيجية ثورية في سياق الأحداث وتطوراتها، ولم يكن من السهل اقتناع الناس بمبدأ عمر بن عبد العزيز في وقف الحروب وفتح الحوارات وخطوط الدبلوماسية، ولكنه مضى في موقفه هذا وأرسل والياً جديداً على الأندلس وهو السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه بإخلاء الأندلس من المسلمين إشفاقاً عليهم، إذ خشي تغلّب العدو عليهم لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين.

وبعد أن تسلم السمح مقاليد الأندلس، ووقف على الواقع عن قرب، بدا له أن الانسحاب من الأندلس ستكون له عواقب سلبية جداً، ولن يؤسس لبرنامج هداية وإصلاح كما يأمله عمر، كما أنه سيكون محفوفاً بالمخاطر وسيكون له عواقب كارثية للذين وقفوا مع الفتح من الأندلسيين، فكتب إلى الخليفة يقول: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، وإن أهل الأندلس يزدادون إسلاماً» وأكد له أن الزمن كفيل ببناء علاقات إيجابية مع الناس فيها.

ومع أن عمر لم يتمكن من سحب الجيوش من الأندلس لأسباب موضوعية ولوجستية ظاهرة، ولكنه أدخل إصلاحاً جوهرياً فيها حين رفع عنها تبعية الشمال الإفريقي، وقرر أن أمراءها يرسلون من الخلافة مباشرة، ووطأ لقيامها دولة مستقلة، وهذا بالفعل ما حصل بعد ٣٦ عاماً حين وصل إليها عبد الرحمن الداخل وأسس لدولة إسلامية أندلسية مستقلة تعنى بشؤون أوروبية بحتة وتسهم في بناء القارة الأوربية على أساس من قيم الإسلام.

في وقف حروب الشرق

أما في الجانب الشرقي فقد كانت حملات قتيبة بن مسلم الباهلي قد بلغت تخوم الصين وفي عام ٩٤ هجرية ٧١٤ ميلادية اشتهرت غزوات قتيبة في سمرقند وبخارى، مستأنفاً فتوحات الأحنف بن قيس وحذيفة بن النعمان في إيران، وقد اندفع قتيبة شرقاً حتى وصل إلى كاشغر داخل الصين الحالية اليوم، وتوغل إلى كاشغر ودخل تركستان الصينية، وأرسل سفيره هبيرة بن المشمرج إلى ملك الصين في عمل طافح بالتحدي ينذر باندلاع حروب جديدة.

ولكن هذه الانتصارات لم تبد ذات بال في رأي عمر بن عبد العزيز وهي انتصارات يتلقاها الناس عادة بالابتهاح والتمجيد على أنها مظهر قوة الأمة وشموخها، وأنها تحقق انقياد الملوك إلى سطوتها وجبروتها، ولكن عمر بن عبد العزيز كان يراها في سياق آخر، وكان يرى هذا اللون

من التحدي لا يخدم رسالة الهدى إلى الإسلام، وكان يراه مقدمة لإشعال الحروب، وأي فائدة للمسلمين أن يدخلوا في حرب مع أمة الصين العظيمة قد لا تنتهي بقرون طويلة.

وبعد سحب الجيوش من القسطنطينية والشرق أنجز مراجعات عميقة لحركة الفتوح ونصب محكمة دستورية هائلة في الشرق برئاسة القاضي جميع بن حاضر، وقد قامت المحكمة باستدعاء الحكام والجنرالات الكبار من رجال قتيبة، وبعد محكمة عظيمة أصدر القاضي أمره ببطلان الفتح وتناقضه مع قيم الإسلام العظيمة. وأمر عمر واليه على ما وراء النهر عبد الرحمن بن نعيم أن يقفل راجعاً بالمسلمين من بلاد ما وراء النهر إلى مرو، وأمر الجيوش الفاتحة أن تخرج من سمرقند وفرغانة وأعاد البلاد إلى أهلها يختارون ما يشاؤون. وألغى على الفور الرسوم التي فرضها عليهم الفاتحون ومنها رسم الأعياد ورسم الزواج ورسم الفتوح التي كانت تجنيها الدولة من السكان، وهو ما كان يشكل مغنماً للمحارب وللدولة على حساب الشعوب المغلوبة.

لم تكن المحاكمة مجرد صدفة بل كانت منهجاً عمرياً راشدياً. وحين كانت الجيوش تخرج من المدن، وتعيد للناس الغنائم المسلوبة منهم، كان الناس يدخلون في الدين أفواجاً. أن الناس لم تسلم بسيف قتيبة ولا بسيف محمد بن القاسم ولا ببطش الحجاج. وإنما أسلمت بعدل عمر.

في وعيه بالتشاركية والحوار

لقد كان يعتبر حروب الفتح حروب سيطرة وغلبة، تسيء إلى جوهر الإسلام في بناء إخاء إنساني، وكان لا يرى أي بركة في دخول الشعوب في الإسلام بلا قناعة ولا حوار، ولذلك فإنه أوقف الفتوح على الفور، ونجح في إقامة علاقات متميزة مع المسيحيين بوجه خاص، فاستوزر يوحنا الدمشقي وهو كاهن مسيحي بارز طوبه المسيحيون قديساً فيما بعد، وشكا له نصارى دمشق ضم كنيستهم إلى المسجد أيام الوليد فما زال يحاورهم ويستمع منهم حتى أرضاهم ببناء كنيسة كبرى في دمشق لا يزال مكتوباً عليها كنيسة مار يوحنا الكبرى بناها الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز، وأنشأ علاقات متميزة مع رجال الدين المسيحي في دمشق والقسطنطينية.

ولعل من أعجب ما احتص به عمر بن العيد العزيز أنه استوزر يوحنا الدمشقي، وهو أحد كهنة النصارى المشهورين، واسمه منصور بن سرجون بن منصور بن سرجون، وهي أسرة مسيحية نافذة تولت بيت المال للبيزنطيين ثم للمسلمين بعد الفتح وامتازت بالكفاءة والقدرة وحظيت بقدر كبير من التسامح، وقد كان يوحنا واضح الموقف في تعصبه لنصرانيته وللأيقونات النصرانية تحديداً كما سنبينه، بل أن لدينا كتاباً منسوباً إليه اليوم بعنوان الهرطقات، وفيه يعتبر العقيدة

الإسـماعيلية هرطقة مسيحية ضالة، ويقصد بالإسـماعيلية أبناء إسـماعيل مقابل أبناء إسرائيل، وهـي الصيغة التي كان يتحدث بها عن الإسـلام، ولا نعلم كيف علم عمر بن عبد العزيز بأفكاره تلـك ثـم أبقاه على الوزارة، وفـي كل الأحوال فإن عمر كان يعكس موقفـاً متقدماً جداً من تقدير الكفاءة والاحتكام إليها بغض النظر عن الاعتقاد الديني وهو وعي لم يكن موجوداً على الإطلاق فـي تلـك المرحلة من التاريخ، وأغلب الظن أن يوحنا قـد كتب كتابه هذا بعد أن خرج من خدمة الدولة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز.

ومن عجائب ما قام به أنه استقدم وفداً من البنائين من نصارى الروم إلى المدينة المنورة حين كان والياً عليها لتجديد المسـجد النبوي، وقد كان ذلك برأي الوليد وأمره، ويشـير ابن الجوزي إلى أن الوليد بعث إلى صاحب الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ، وأن يعينه فيه، فبعث إليه بمائة ألف مثقال من ذهب، وبمائة عامل، وبأربعين حملاً من الفسيفساء، فبعث به إلى عمر، وتجرّد عمر لذلك،[٣] وبالفعل تم ذلك له، ولم نقرأ اعتراضاً في التاريخ على دخـول النصـارى إلـى المدينة المنـورة وقيامهم ببناء المسـجد النبوي، ولا شـك أن هذا يعكس موقفاً متقدماً من التسامح وإخاء الأديان.

ومـن الواقعـي تماماً أن نطرح اعتراضاً على ما يجري اليوم من منع غير المسـلمين من دخول مكة والمدينة، وذلك اسـتناداً إلى فتوى متشـددة للحنابلة، مع أن السـلف كانوا لا يرون هذا كما رأيناه في هدي عمر بن عبد العزيز، وبالإمكان أن يتم التحول إلى فتوى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو المشهور عند الحنفية.

وجعل على رأس أولوياته وقف نار العداوة مع النصارى وأمر الجيوش أن تنسحب على الفور وكان مسـلمة بن عبد الملك وهبيرة بن عمر يحاصران القسـطنطينية قبـل توليه فأمرهم بالرجوع فوراً إلى دمشـق، وأطلق علاقات دبلوماسـية مسؤولة مع الروم، ونشأت بينه وبين الإمبراطور ليو الثالث علاقة احترام ومودة.

وتعتبر العلاقة المدهشة التي قامت بين عمر وبين الإمبراطور البيزنطي في غاية النجاح والغرابة، فقد جاءت عقب حملة دامية خاضها المسلمون لغزو القسطنطينية واستمرت سنين طويلة.

وتذهب دراسـات بيزنطية مهمة نشـرها الدكتور عبد الوهاب القرش إلى تأثير هائل لعمر بن عبد العزيز على الأكلوجيا (التشـريع البيزنطي) الذي أنجزه الإمبراطور ليو الثالث والذي أسـس

(٣) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٦ ص٢٨٤

فيه نظام أسـرة شـبيهاً بالشـريعة الإسـلامية، ومن المدهش أن المراسـلات كانت تتم حول أدق تفاصيـل العبادة وثبوت القرآن الكريم وخطه وشـكله ونقطـه، وكذلك في موقفه الصارم من منع عبـادة الأيقونات حيث أعلن أن الأيقونات تفسـد التوحيد ويجب أن تنـزه عنها الكنائس كما هو الحال في المساجد.

ومن المدهش أن يوحنا الدمشقي الذي كان وزيراً في دولة عمر بن عبد العزيز رفض بالمطلق رأي الإمبراطـور ورأي عمر وتحداهما، وأطلق حملة معاكسـة لتعظيم الأيقونات ومع ذلك فقد استمر في وزارته للأمويين إلى أيام هشام بن عبد الملك.

وأحسـن عمر بـن عبد العزيز في النصارى واسـتوزر منهم يوحنا الدمشـقي، وحين اعترضوا على ما قام به الوليد من ضم الكنيسـة الصغيرة للمسـجد الكبير أنصفهم في كنيسـتهم وبنى لهم كنيسـة مار توما الكبرى في دمشـق، ولكنه منعهم من السلاح كله، وأمر أن لا يكون سلاح خارج الدولة.

ولعل أكثر الأمور إدهاشاً أن عمر بن عبد العزيز اختار بنفسه أن يدفن في دير سمعان الشرقي قـرب معرة النعمان،(٤) وهو ما يطرح تسـاؤلاً مباشـراً كيف يمكن أن نفهـم ذهاب عمر بن عبد العزيـز إلـى معرة النعمـان ليدفن في دير مسـيحي وهو خليفة المسـلمين ودولتـه تمتد من تخوم

(٤) حقق ياقوت الرومي في معجم البلدان أن ضريح عمر بن عبد العزيز في دير قرب المعرة يقال له دير سمعان، ولم يعد اسم سمعان يطلق على هذا الدير اليوم بل يقال له دير شرقي، ولكن يبدو أنه كان يسمى في الماضي بدير سمعان، ومما ذكره ياقوت في ذلك:

وقال كثير عزة:

سقى ربنا من دير سمعان حفرة ***بها عمر الخيرات رهنا دفينها
صوابح من مزن ثقال غواديا *** دوالح دهما ماخضات دجونها

وقال الشريف الرضي الموسوي:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـــن فتى من أمية لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتم***** فلو أمكن الجزا لجزيتك
دير سمعان لا عدتك العوادي***** خير ميت من آل مروان ميتك

وفيه يقول أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خرابا فغمه:

يا دير سمعان قل لي أين سمعان***وأين بانوك خبرني متى بانوا؟
وأين سكانك اليوم الألى سلفوا*** قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفرا خرابا مثل ما خربوا ***بالموت ثم انقضى عمرو وعمران
وقفت أسأله جهلا ليخبرني****هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجابني بلسان الحال: إنهم**** كانوا، ويكفيك قولي إنهم كانوا

وسمعان هذا الذي ينسب الدير إليه أحد أكابر النصارى ويقولون إنه شمعون الصفا، والله أعلم، وله عدة أديرة، الحموي، ياقوت الرومي، معجم البلدان ج ٢ ص٥١٧

الصين إلى الأندلس؟

حتى أن بعض الظرفاء من النصارى قالوا إن عمر قد استبصر واختار الخلاص بيسوع وطلب أن يُدفن في دير ومات على الملة النصرانية!!

والحقيقة أن الروايات كثيرة أن عمر بن عبد العزيز أصابه المرض أو السم على المشهور فيما كان في طريقه إلى حلب واشتد المرض به عند معرة النعمان. ومن الطبيعي أن يأوي إلى الدير الموجود هناك حيث كان على صلة براهب الدير منذ أن كان والياً على خناصر قبل عشرين عاماً وكانت لأمه أرض قريبة من أراضي المعرة، وبينها وبين مزارع خناصر بطريق الخيل نحو ٦٠ كم.

والخلاصة أن اجتهادات عمر بن عبد العزيز كانت ثورية وصادمة لخطاب الجمهور، وبشكل خاص في مواجهة الفتوح وسحب الجيوش، ثم الانفتاح على الأديان وإدخال النصارى إلى المدينة المنورة وتوزير القديس يوحنا النصراني على مال الدولة والاستشفاء في الدير والوفاة فيه.

وإزاء ذلك فلم يسلم عمر أيضاً من نقد شديد تولاه خصومه ولكنه في الواقع نجح في تقديم مثال للنزاهة والفضيلة لا يجاريه في التاريخ الإسلامي كله أي مثال آخر.

غيلان الدمشقي

الاسم	غيلان الدمشقي
المولد والوفاة	حوالي ٣٠ هجرية والوفاة ١٠٦ هجري الموافق ٧٢٤م
المولد والوفاة	ارتحل من مصر مع والديه فسكن العراق والمدينة ثم استقر بدمشق. اشتهر بمذهبه في نفي القدر، وكان يرفض بشدة الخضوع للمستبد، وكان يرى أن القدر ذريعة استغلها الاستبداد لإرغام الناس على الرضا بالظلم بوصف ذلك قدراً إلهياً.
المنصب	كان أمين المال وقاضي المحاسبات في زمن عمر بن عبد العزيز
أهم الأفكار التي عمل لها	• التأكيد على الحرية الإنسانية ورفض القدر. • محاربة الفساد الإداري والسياسي. • نزع الصفة الإلهية عن الحكام ووجوب اختيارهم شعبياً ومساءلتهم.
كتب عنه	

الوفاة	تم إعدامه بأمر من هشام بن عبد الملك بتهمة الزندقة

غيلان الدمشقي
شهيد الحرية في دمشق

غيلان الدمشقي المتوفى ١٠٦ هـ، ثائر من الطراز الأول قدم نموذجاً فريداً للحرية الثائرة، وواجه الاستبداد وانقض على براهينه وحججه، ودفع حياته ثمناً للدفاع عن الحرية.

وُلد غيلان في عائلة قبطية، ارتحلت إلى دمشق، وقد دخل أبوه في الإسلام أيام عثمان بن عفان، ونشأ الفتى في مشهد من التحولات الصاخبة، فاختيار دين دون دين ليس حدثاً عادياً، ولكنه قرار مصيري صارخ يحتاج إلى شجاعة ورؤية ووضوح.

نشأ غيلان موهوباً ذكياً، وبالفعل فقد ارتحل في طلب العلم وظهر نبوغه طفلاً وسافر إلى البصرة وأخذ عن الحسن البصري، واعترض بشدة على تبرير مظالم الحجاج بأنها أقدار الله وقضاؤه، وأنها ذنوبنا، وكان غيلان يرفض ذلك كله ويرى أنها مظالم ومآثم لا يبررها قدر الله بل تعالجها ثورة تحطم عروش الطغاة.

ثم تحول إلى المدينة وأخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية، ولا شك أن الرجل ترك في نفسه أثراً من الاعتقاد بمظلومية أهل البيت، واعتراضاً على سلوك بني أمية، وبالفعل بات غيلان معروفاً بموقفه المنكر للقدر، وخاصة في الاستخدام السياسي لعقيدة القدر فقد كان بنو أمية يُكرّسون حكمهم بثقافة القدر التي يتولى الواعظون نشرها في الشعب، بأن ما أصابكم هو قدر الله وأن حكامهم هم أمر الله وقدره وأن عليكم أن تسمعوا وتطيعوا ولو أكلوا أموالكم وضربوا أبشاركم، أعطوهم حقهم وسلوا الله حقكم، ولا يكون من ملكٍ ولا سلطان إلا هو قدر الله وقضاؤه، ويا عبادي لا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على أمرائكم، فإن قلوبهم بيدي أصلحوا ما بيني وبينكم أصلح لكم حكامكم، وهذه هي معالم الخطاب السياسي الذي استخدمه الحجاج في قمع العراق: أنا قدر الله وحكمه وأمره، وقد ابتلاكم الله بي بذنوبكم، وأن أهل العراق قد بغوا وطغوا وأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب، وأنا عذابه وانتقامه!

عاد غيلان إلى الشام وهو يمتلئ غضباً وثورة، وكان أستاذه الحسن بن محمد بن الحنفية يقول

ما رأت عيني مثل هذا الشاب توثباً وشجاعة، إنه حجة الله على بني أمية، ولكنه مقتول!

وفي الواقع فإن غيلان كان واحداً من فلاسفة الحرية في العصر الأموي، ومن الواجب أن نذكر أسماءهم فقد ظلمهم التاريخ وذكروا في باب الزنادقة والمضلين، ودفعوا حياتهم ثمن هذه الاتهامات في حين أنهم كانوا فريقاً نبيلاً يناضلون من أجل الحرية ويحصرون كفاحهم ضد ثقافة الاستسلام والوهن المجللة بعقيدة القدر، ومن أبرزهم ابن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب ومعبد الجهني والجعد بن درهم وجهم بن صفوان وكلهم قد تكلموا في القدر، فقد كانوا يرون عقيدة القدر هي أكثر ما يبرر به الاستبداد مظالمه، وكان خيار غيلان وأصحابه هو مواجهة جذور الاستبداد الكامنة في عقيدة الجبر، ورفع الصوت بأن الإنسان هو سيد قدره وليس من حق أحد أن يمارس المظالم ثم يسند شره وظلمه لله تعالى.

ومن المحزن أننا تلقينا في التعليم التراثي أن هذه الأسماء محض مؤامرة على الإسلام وهدم لأركانه، وبات الإيمان بالقدر على الشكل الذي اختاره الأشاعرة والسلفية معاً ركناً من الدين، يلزم المسلم اعتقاده وحكم كثيرون بالردة لأنهم أنكروا القدر، واعتبر ذلك إجماعاً، مع أن الجدل حول مسائل القدر لم يتوقف يوماً في العصر الذهبي للإسلام.

في الشام تحدث الرجل بوضوح عن الحرية الفكرية وحرية الاختيار، ويمكن اعتباره أبرز مؤسسي القدرية في الإسلام، ومن العجيب أن مصطلح القدرية مستخدم في التاريخ الإسلامي لمن ينكرون القدر وليس لمن يؤمنون به، فيما كان المؤمنون بالقدر يسمون الجبرية، أو يكتفى باسم الجماعة.

ويمكنك حين تقرأ تراث غيلان الدمشقي أن تنسب له ما تشاء من فكر نيتشة وأوجست كونت وجان بول سارتر ومحمد إقبال في الحرية، فالرجل لم يكن يقل عنهم عبادة للحرية وبغضاً للجبر والقهر، وكان يستوي عنده قهر الحاكم وقهر الدين، وكان عدواً بالمطلق لكل فكر تبريري يقتل روح الإرادة في الإنسان.

وهكذا تم تصنيفه على الفور معارضاً عنيداً لبني أمية ولامس السيف عنقه عدة مرات، وظهر له أعداء واضحون من المشاهير أبرزهم ربيعة الرأي والأوزاعي.

ومع قدوم عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة أرسل غيلان رسالة قوية وشهيرة ومباشرة إلى عمر بن عبد العزيز ومن حقها أن تعتبر من وثائق الحرية النادرة في التاريخ وفيها كتب له:

أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت، اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً، ورسماً عافياً. فلا تكن ميتاً بين الأموات! لا ترى أثراً فتتبع، ولا تسمع صوتاً فتنتفع.

وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فإنظر أي الإمامين أنت، فإنه تعالى يقول: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى ومن اتبعه شركه هداه، وأما الآخر فقال تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون).

وعلى الرغم من قسوة الرسالة وجرأتها ولكنها وقعت من عمر بن عبد العزيز موقعاً حسناً، وقد دعاه إليه وعينه على الفور رئيس ديوان المظالم، وخصصه بمحاسبة بني أمية الذين كانوا يجمعون ثروات طائلة بغير وجه حق.

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز نهاه بشدة عن الخوض في مسائل الاعتقاد وأمره أن يكف عن ربط المسألة بعقيدة القدر، وأخذ عليه عهداً أن لا يتكلم في القدر، وكان ذلك وعياً إدارياً عميقاً، فأنت موظف دولة والدولة لكل رعاياها ولا ينبغي أن ندخل في جدل مع الناس في اللاهوت ولكن علينا أن لا نتهاون أبداً في محاربة الفساد، مهما كانت براهينه وحججه.

وانطلق غيلان في حملة ماحقة لمواجهة الفساد، بأمر عمر بن عبد العزيز، وقام بمصادرة أموال خيالية لأمراء بني أمية، وكان يعرضها للبيع في مزاد علني ويقول: هلموا إلى متاع الظلمة هلموا إلى أموالهم وتراثهم، يزعمون أنهم أئمة هدى ويكنزون المال والناس تموت من الجوع!

بالطبع أغضب ذلك أمراء بني أمية أشد الغضب وأقسم هشام بن عبد الملك لئن ظفر به ليضربن عنقه، وهكذا كان، وبعد موت عمر بن عبد العزيز ولي يزيد بن عبد الملك ووجد غيلان فرصة لمغادرة دمشق وهاجر إلى أرمينيا، أما هشام الذي ولي بعد يزيد بسنوات قليلة فقد أرسل على الفور إلى ولاته في أرمينيا واستطاع أن يأسر هذا المهاجر الهارب بطريقة هرموشية وجيء به إلى دمشق، وتم إعداد محكمة دينية لغيلان برئاسة الإمام الأوزاعي، ومن المؤسف أن الروايات التي تتحدث عن المحاكمة لا تقنع في شيء، حيث تم توجيه مجموعة من الأحاجي والأسئلة اللغزية اللا مفهومة للثائر المقيد، من نوع: ما الثلاثة التي لا رابع لها، وما الخمسة التي لا سادس لها، وما الفرح في وجوه الملائكة وما الحزن في وجوه الجان، وأمثالها من الألغاز، وحكم على الرجل بناء عليها بالموت، ولا شك أن هذه الروايات لو صحت فستكون لطخة في تاريخ القضاء الأموي، وفي تاريخ الأوزاعي نفسه، حيث لا يجوز بحال أن تُراق دماء الناس بهذا اللون من المحاكمات اللغزية التي تحتمل عشرات الإجابات ولا يجوز بها فرض أي عقاب.

وتكاد الروايات تجمع أن هشاماً قطع يده بنفسه بالسيف، ثم قطع رجله وألقاه في بعض سكك دمشق، وفي اليوم التالي أرسل له من يشمت به أرأيت كيف كتب الله عليك قدره، فهل ما زلت تنكر قدره!! صرخ غيلان: ويلك وهل أتهم ربي؟؟ إنما أتهم هشاماً وأعوانه من الظلمة

عليهم لعنة الله، ولم يتأخر هشام بأن أمر بصلبه وقتله من يومه.

هكذا قضى غيلان في معبد الحرية، وقد رحلت أيامه وبقي إلهامه، ومن المؤسف أن سلفنا الصالح لم يبخلوا على غيلان وأصحابه بألقاب الزندقة والانحراف والضلال العقائدي، وقاموا عن عمد بتغييب هذه المبادرات الشجاعة التي كانت تستنطق أروع ما في الإسلام من دعوة للحرية والكرامة، ومحاربة للفساد، واستبدلوا منها نماذج الخنوع للمتغلب ووجوب طاعته والسير في هواه، وتبرير جرائمه بتعلل الأقدار.

ليس المراد رواية التاريخ، ولكننا نستبصر بالماضي للحاضر، ونحتاج أن نقترب أكثر من قادة الحرية في التاريخ الإسلامي الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مع ثقافة الخنوع والموت، المنقولة بنصوص مقدسة، يقوم على تخومها شراحٌ وفقهاء يزينون للسلطان ويخونون كل ثائر.

أبو حنيفة

الاسم الكامل	النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه	
ألقاب مشهورة	الإمام الأعظم، عالم الثريا، فقيه فارس	أما خصومه فقد كالوا له التهم ومنها: ناقض عرى الإسلام، والضال المضل وفرعون هذه الأمة
التاريخ	٨٠-١٥٠ هـ	٦٩٩-٦٧٦ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بالكوفة ومات ببغداد	
أهم الكتب التي ألفها	الفقه الأكبر ـ الفقه الأبسط- العالم والمتعلم ـ الوصية	
أهم ما ألف عنه	لا يوجد إحصاء دقيق لما كتب عن أبي حنيفة ولكن من المؤكد أن أكثر من ١٠٠٠ كتاب مطبوع تحدث عن حياة أبي حنيفة، منها نحو ١٠٠ كتاب كانت بعنوان أبي حنيفة	
أهم من تأثر بهم	عطاء بن أبي رباح، وحماد بن أبي سليمان والشعبي وطاوس بن كيسان، والإمام جعفر الصادق وابن شهاب الزهري	

أهم من تأثروا به	محمد بن الحسن الشيباني والقاضي أبو يوسف وزفر بن الهذيل والحسن بن زياد اللؤلؤي وألوف الفقهاء الذين شرحوا مذهبه
أهم قضايا نادى بها	• الاستحسان: تقديم العقل على القياس • الكفاح ضد ذهنية التحريم • المساواة وتحرير فقه العتق • الحد من دور النص خاصة في روايات الآحاد
مساجد بنيت باسمه	يمكن تقدير المساجد المسماة جامع أبي حنيفة بأكثر من ألف مسجد حول العالم
أفلام عنه	مسلسل مصري باسم أبو حنيفة النعمان ١٩٩٧ بطولة محمود ياسين
الضريح	في بغداد وقد بني عليه مسجد كبير ويسمى الحي كله باسم حي الأعظمية نسبة للإمام الأعظم أبي حنيفة

أبو حنيفة
التنوير في مواجهة التكفير
٨٠-١٥٠ هجرية

إنه إمام التنويريين والمجددين، وهو أول من طرح بشكل مباشر أزمة العقل والنقل، واختار دون تردد الاستحسان، والاستحسان هو الأخذ بالعقل وتأويل النقل في مصلحة الناس، أو هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، أو هو ترك حكم النص لدليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه.

وهذا هو بالضبط ما عرفه أبو حنيفة بقوله: ما استحسنه المجتهد بعقله.

وهو بالضبط ما عرفه الشافعي بقوله: من استحسن فقد شرع.

وهو بالضبط ما عرفه ابن العربي بقوله: هو ترك الدليل على سبيل الاستثناء.

وهو بالضبط ما نقله ابن قدامة: دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه.

إنـه مصـدر ثوري بكل تأكيد.. أما ما ذهب إليه المتأخرون مـن صيغ توفيقية فهو عودة تلقائية لظاهر النص. وهو تلفيق لن يرضاه أبو حنيفة.

وبعيدًا عن العقل الانفعالي الإطلاقي الذي يحاكم الأشـياء بعواطفه ويحجم عن حكم العقل وبرهانه، فإن الأمة منذ عصر عمر بن الخطاب أعلنت عن الحاجة إلى مصدر إضافي على النص يحقـق أهدافـه وهو القياس، ونص عبارة عمر بن الخطاب لأبي موسـى الأشـعري: الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه، اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها.

ولكـن القياس على النص نفسـه لم يصمد أكثر من قرن واحد؛ إذ أعلـن أبو حنيفة أن القياس لا يأتـي دومًـا بالحلول المناسـبة وأنه يجب العـدول عن القياس إلى الاستحسـان وأعلن بالفعل بداية عصر العقل وانتهاء عصر القياس على النص، وأن الاستحسـان هو السبيل لمعرفة الأحكام والحكم على الأحداث والشـعوب والمسـتجدات في كل زمان ومكان، وعرفه تعريفًا يقطع كل جدل بقوله: الاستحسـان ما يستحسنه المجتهد بعقله، وفي عبارة أخرى هو دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه.

لم تكن ثورة أبي حنيفة سهلة، فقد تضمنت الإعلان الصريح أننا أمة العقل لا أمة النص، ولم تمر من دون حفلة تخوين هائلة، كان أهونها كتاب الإمام الشـافعي الغاضب إبطال الاستحسان، ومن استحسن فقد شرع، وقول سفيان الثوري: أنه ينقض عرى الإسلام عروة عروة، وقول الإمام مالك أنه يكيد الدين ومن كاد الدين كاده الله!

ومع ذلك فقد ثبت أبو حنيفة وأصر على الاستحسان المذهل الذي هو في الواقع احتكام إلى العقل والبرهان والشورى بمعايير تتجاوز ظاهر النص إلى مقاصده.

بالطبـع ذهـب بعـض الفقهاء -فيما بعـد- إلى اختراع تعريفـات للاستحسـان لا يرضاها أبو حنيفـة ولا ترضي طموحه، وتعيد طموح العقل إلى قفص النص، وتجعله نوعًا من القياس، وهو أبعد ما يكون عن طموح أبي حنيفة.

لمـاذا لا نعـدّ اليوم أن هذا العالم الذي اكتشـفناه في القرون الأخيرة ومـا فيه من نظم وقوانين ووسائل هو من المسكوت عنه وسبيل الحكم عليه هو الاستحسان لا القياس؟

شـعوب الأرض التـي لم يـرد ذكرها في الكتاب والسـنة وأنظمـة الحكم التي لم يـرد ذكرها

فـي الكتاب والسـنة، والنظـم الاقتصادية والمصرفيـة الحديثة، ووسـائل النقـل وقوانين الهجرة والضرائب والشـحن والعلاقات الدولية والدبلوماسـية، وكل ما أحدثه الإنسـان في الأرض فإن سبيل الوصول إليه هو الاستحسان العقلي الذي تمارسه كل الأمم باحترام وتداول وواقعية.

والاستحسـان في أجلى صوره هو العقل الجماعي وهو الرجوع إلى الشـورى والاستماع من أهل الخبرة والمعرفة في كل اختصاص، وهو الأمر الذي تطبقه كل نظم العالم المتحضرة اليوم، ومن دون تردد، يمكنني القول أن الاستحسـان هو عنوان التشـريع في سويسـرا والنمسـا واليابان وسـنغافورة والدول الإسـكندنافية والعالم الأوروبي والأميركي وكل العالم الديمقراطي، حيث يقـدم كل عاقل حجته وبرهانه، ويأكل بعض الفكر بعضًا وتحكم عليه قاعدة الله في قرآنه: «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

وكان أبو حنيفة يصر على تغير الأحكام بتغير الأزمان، وأن النصوص محكومة بظروفها، وفي نهاية جدل طويل قال أبو حنيفة بصراحة: لو كان رسـول الله حياً لقال مثل قولي!! وقد نقلها ابن عـدي الجرجاني بعبارة أشـد جراءة: لو أدركني رسـول الله وأدركته لأخـذ بكثير من قولي وهل الدين إلا بالرأي الحسن!!.

أما خصومه فقد نقلوها عنه بصيغة كاذبة: لو كان رسول الله حياً ما وسعه إلا اتباعي!!

كانـت هـذه الخيـارات الجريئة صادمـة في مطلع القـرن الثانـي الهجري، وقد صنـف الإمام الشـافعي كتاباً ضافياً في الرد عليه وسـماه إبطال الاستحسان، وقال فيه: من استحسن فقد شرع، والاستحسان إلغاء الدين والحكم بالهوى.

وقد واجه أبو حنيفة بشـجاعة الثقافة المشهورة بأنه لا اجتهاد في مورد النص، وأن ختم النبوة هو نهاية دور العقل في الإسـلام، وأننا أمة اتباع ونص، ولا يحل لنا أن نجتهد في شـيء مما رواه لنا رجال الرواية.

وفي موقف متقدم حدد أبو حنيفة بوضوح موقفه من ظاهر النص، وأن من المستحيل أن نعتمد ظاهر النص مصدراً للأحكام وهو حمال أوجه، وبعضه ناسـخ لبعض، وفيه المقيد والمخصص وغيـر ذلـك، وقد ناقش الأمر بآلة علمية واضحة حيث قسـم النص الدينـي إلى نصوص واضحة ونصوص غير واضحة، وهو ما شرحه عنه فيما بعد تلميذه البزدوي الحنفي:

أن النص الديني يدور في ثمانية أبواب أربعة في (الوضوح)، وهي: الظاهر والنص والمفصل والمحكم، وأربعة في (عدم الوضوح) وهي الخفي والمشـكل والمجمل والمتشابه، كما أفردوا المنسوخ في باب مستقل. وقد فصّل القول في هذه الأبواب الإمام الحنفي البزدوي، ونشـر نصه

كاملًا تلميذُه العلاء البخاري في كتاب مهم ينبئ عنوانه عن معناه: (كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي).

وفي هذا السياق تندرج مئات الكتب العلمية التي صنفها الأصوليون، تحت عنوان درء تعارض العقل والنقل، وتنزيه القرآن عن المطاعن، ومشكل القرآن، وغير ذلك، وكذلك ما كتبوه في باب المقاصد القائمة على استخدام العقل في إعمال النص وإهماله.

إن هذه الحقيقة في النص القرآني هي التي تفرض مكانه كتاب هداية إرشاد، وليس كتاب كيمياء وفلك وتاريخ وقانون، ولأجل ذلك؛ فإن الرسول نفسه لما أراد أن يحكم المدينة كتَب دستورًا وضعيًا اتفاقيًا بلغة القانون وليس بلغة الأدب، ولم يقل ما يقول إخوتنا السلفية: «دستورنا القرآن والسنة»!

سيقولون إنها وصفة جاهزة للتخلي عن القرآن، وجوابي بل هو السبيل الوحيد لدرء تعارض العقل والنقل، إنها العودة إلى ما انتهجته الدول الإسلامية الناجحة كلها خلال التاريخ، قبل قيام الحركات السلفية الظواهرية، وإنها الاعتدال والكف عن الغلو في الدين الذي ذمّه القرآن في عشرات النصوص.

قناعتي أنها الوصفة الوحيدة لاحترام القرآن وترتيله وتقديسه وإجلاله، ليس كنص سحري فوق العقل وفوق العلم، بل كنص تاريخاني أدبي فيه هداية وحكمة ونور تحتاج إليه الأمة، حين تقتحم المشهد الحضاري بعقول منفتحة وإرادة بصيرة وشورى ديمقراطية صحيحة.

وتعرض الإمام أبو حنيفة لأشرس هجمة تكفيرية على شخصه الكريم، وتم تكفيره وتفسيقه ورميه بالزندقة والكيد للدين.

النصوص التي ننقلها هنا مأخوذة من ستة كتب أساسية في علوم الرجال سنذكرها تفصيلاً، وهي صادمة بكل تأكيد، ولكننا نرويها هنا ليعلم الناس أن رجال التنوير والتجديد دفعوا أثماناً غالية وهم يقتحمون رسالتهم في الإصلاح الديني، وأن الناس تحارب دون وعي من يدعو إلى حكم العقل، وتجاوز ظاهر النقل.

أول الكتب التي ننقل عنها كتاب الإمام البخاري الضعفاء:

قال الإمام البخاري: عن سفيان الثوري أن أبا حنيفة استتيب من الكفر مرتين!

قال الإمام البخاري: عن الفزاري قال: لما نعي أبو حنيفة كنا عند سفيان الثوري فقال الحمد لله وسجد لله وقال: لقد كان ينقض عرى الإسلام عروة عروة!

قال الإمام البخاري: قال سفيان الثوري: ما وُلد في الإسلام أشأم من أبي حنيفة.!

قـال الإمـام البخاري: قال محمد بن مسـلمة دخل فقه أبي حنيفة البلـدان كلها إلا المدينة لأن رسول الله قال: لا يدخلها الدجال، وهو دجال من الدجاجلة!

(تم نقل هذه الاقتباسات من كتاب الإمام البخاري الضعفاء ج ١ ص ١٣٢ وما بعدها)

قال الامام ابن حبان: ما ولد في الإسـلام مولود أشـأم من أبي حنيفة!! (من كتابه المجروحين ج ٣ ص ٦٦)

وننقل عن الإمام ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: قال المقري لا تروووا عن أبي حنيفـة فقـد كان مرجئياً يدعو إلـى الإرجاء... والإرجـاء هو وصف من يمتنع عـن تكفير الناس ويقبل صالح أعمالهم!

وعن الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد: عن أيوب السختياني وقد سئل عن أبي حنيفة فقـال: يريـدون أن يطفئوا نـور الله بأفواههم! وكان في أصحابه في الحـرم فدخل أبو حنيفة فقال أيوب قوموا بنا! لا يعرنا جربه!

تاريخ بغداد قال الأوزاعي مرات كثيرة: عمد أبو حنيفة إلى عرى الإسلام فنقضها عروة عروة!

والنصوص التالية أيضاً من تاريخ بغداد:

عـن ابـن عون قال: إن فيكم صدادين يصدون الناس عن ديـن الله وأبو حنيفة يصد الناس عن دين الله!

وعن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أيتكلم برأي أبي حنيفة عندكم؟ قلت: نعم، قال: ما ينبغي لبلدكم أن تسكن!

قال الإمام مالك بن أنس: أن أبا حنيفة كاد الدين كاد الدين، ومن كاد الدين فلا دين له، وقال: إن أبا حنيفة هو الداء العضال هو الهلاك في الدين!

قال عبد الله بن المبارك: من نظر في كتاب الحيل لأبي حنيفة أحل ما حرم الله، وحرم ما أحل اللـه، ومـن كان عنـده كتاب الحيل فقد بطل حجـه وطلقت منه امرأته! وقال لـه قائل: هل كتاب الحيل من وحي الشيطان؟، فقال بل هو شر من الشيطان!

قال حماد الراوية أستاذ أبي حنيفة: بلغوا عني أبا حنيفة أني بريء منه !

وقال ابن عون: ما ولد في الإسلام مولود أشأم من أبى حنيفة !

وقال أبو سلمة الخزاعي: سعمت حماد وسمعت الشعبي يلعنان أبا حنيفة.

وقال ابن عياش: كان أبو حنيفة صاحب خصومات ولم يعرف إلا بالخصومات.

وقال عبد الله بن المبارك: اضربوا على حديث أبي حنيفة.

وقال معاذ بن معاذ العنبري: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين !
وقال عبد الرحمن بن مهدي: بين أبي حنيفة وبين الحق حجاب.
ومر أبو حنيفة بيحيى بن سعيد في أصحابه فقال لهم هذا تيس القياس لأبو حنيفة!
وقال الحجاج بن أرطأة: ومن أبو حنيفة؟ ومن يأخذ عن أبي حنيفة؟
وقال ابن عون: كيف تأخذون دينكم عن رجل قد خذل في عظم دينه؟
وقال ابن الحسن الترمذي سمعت أحمد بن حنبل يقول: أبو حنيفة يكذب.
وقال عبد الله بن حنبل عن أبيه قال: أن أبا حنيفة كاد الدين، كاد الدين. وسئل أيوب السختياني عن أبي حنيفة فقال: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

وروى الخطيب عن أبي بكر ابن أبي داود أنه قال لأصحابه: ما تقولون في مسألة اتفق عليها مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه والأوزاعي وأصحابه والحسن بن صالح وأصحابه وسفيان الثوري وأصحابه واحمد بن حنبل وأصحابه ؟ فقالوا: يا أبا بكر لا تكون مسألة أصح من هذه. فقال: هؤلاء كلهم اتفقوا على تضليل أبي حنيفة.

تم نقل هذه الأقوال اقتباساً من كتاب الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج٤ ص ١٧ وما بعدها.

ولأنه قاد ثورة العقل... وهدم أساطير الكهنة، وأخلص لله دينه وقصده... ولم يكتب لإرضاء الناس، بل لتنويرهم وإصلاح عقولهم، فقد تولى رجال الجرح والتعديل ذمه وجرحه واتهامه بما لا يتصور، منها أنهم جاؤوا بوثيقة مكتوبة فقرأها شيخه وأستاذه حماد بن أبي سليمان وقال علناً أمام الناس: اشهدوا أني بريء من تلميذي أبي حنيفة!

ومن أهم الكتب التي جرحت أبا حنيفة:

- الضعفاء للعقيلي
- المجروحين لأبي الفتح البستي
- الكامل في الضعفاء لابن عدي
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي
- المعرفة والتاريخ لأبي يوسف البسوي
- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني
- المجروحين للتميمي
- الضعفاء الصغير للإمام البخاري

• كتاب المجروحين لابن حبان
• عبد الله بن أحمد بن حنبل فصل في أبي حنيفة الجهمي الذي أجمع السلف على كفره.

وقد تصدى الإمام السيوطي في القرن التاسع للرد على الطاعنين في أبي حنيفة وصنف في ذلك كتابه: تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة.

ولم تذو تلك الدراسات الجارحة بحق أبي حنيفة فقد ظهر في كل جيل من يرددها، وفي زماننا أيضاً لا يزال كثير من السلفيين يكررون مقولات خصوم أبي حنيفة ويزيدون عليها، ومن الكتب التي ظهرت حديثاً في الطعن على عقيدة أبي حنيفة واجتهاده:

• نشر الصحيفة في ذكر الجرح والتعديل في أبي حنيفة لمقبل بن هاد الوادعي.
• إجماع السلف على تكفير أبي حنيفة، لصالح العقيلي.

وقد جمع أبو عبد الرحمن الشلالي المسيلي فتاوى الأئمة في كفر أبي حنيفة وحدد الشذوذ الذي انفرد به في أربعة أبواب اعتبر كل باب منها مكفراً وهي:

• قوله بخلق القرآن
• قوله بالإرجاء
• قوله بالخروج على الولاة
• قوله بالرأي وترك السنة

وفي الواقع فإن هذه المواقف الأربعة هي أظهر مواقف التنوير، فالقول بخلق القرآن هو الإيمان بتطوره وتاريخانيته واستجابته للظروف والأحداث، والتعامل معه بعقل وبصيرة وعدم تحويله إلى نص جامد تتحرك الدنيا ولا يتطور.

وأما قوله بالإرجاء فهو الموقف الأعلى في إخاء الأديان، وهو أن تسعى إلى بناء المحبة بين الناس على اختلاف أديانها وأن نكل أمر الحساب إلى الله تعالى، فلا نبشر الناس بجهنم ولا بعذاب السعير بل نبشرهم برحمة الله وكرمه وعدله وغفرانه، ونترك أمر الحساب إليه سبحانه.

وأما القول بالخروج على الولاة فهو المقصود بالنضال السلمي من أجل حقوق الإنسان وكرامته، ومواجهة الاستبداد وظلمه، والحق في العمل السياسي لما ينفع الناس ولو غضب من ذلك المستبد وهذا بالضبط ما فعله أبو حنيفة وفي سبيل ذلك دخل سجون المنصور ومن قبله هشام بن عبد الملك.

وأما القول بالرأي وترك السنة فهو جوهر رسالته في الاستحسان وهو بالضبط ما تحتاجه الدولة الحديثة من اعتماد الاستحسان والعقل والمصلحة المرسلة والعرف، وهو ما نحتاجه

اليوم في التشريع من النظر إلى مصالح الناس وفق الشورى مع الخبراء والعارفين ولو لم يطابق ذلك النصوص، فالنص يمكن تأويله وحده بالزمان والمكان وترك الفضاء الأرحب للعقل الاجتهادي يعمل بمقتضى الشورى وبرهانها.

بالطبع لم نقصد إلى حصر كل ما ورد في الروايات، ولم نقصد بالطبع إلى تأييدها، بل أنني أعتبره من أروع أئمة الهدى في الإسلام، ولكنني أجد فيه بعض العزاء حين أسمع ألسنة حداداً تقع في كل من ينادي بالتنوير والتجديد واحترام العقل وإخاء الأديان وكرامة الإنسان.

لقد قالوا ذلك كله.. ولكنه لم يلبث أن أثبت صواب منهجه وصار يعرف في العالم الإسلامي باسم الامام الأعظم.

من المؤلم اليوم أنك ترى ملايين الأحناف.. ولا أرى فقيها في مثل جرأة أبي حنيفة.

وبعد دراسة عميقة أجزم أن موقف الإمام أبي حنيفة يقوم على عدة أمور أساسية:

– النص نور يهدي وليس قيداً يرشد، ويمكن للأمة تأويله وتخصيصه وتقييده ونسخه إذا تأكدت في ذلك مصالح الناس.

– النص من كتاب أو سنة هو خطاب لأهله، فإذا مات رسول الله وتوقف الوحي صار قياساً في من بعده، فالمواجهة في ظاهرها عند أبي حنيفة مع القياس وليست مع النص.

– أن أهل الأديان على اختلاف مللهم ونحلهم متروك أمرهم إلى الله، وأن علينا الإرجاء فلا نحكم لهم بمآل في الآخرة، والله يفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

– الاستحسان تسعة أعشار العلم وهو تقديم العقل على النقل، وترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس.

والاستحسان في جوهره علاج ثوري لمشاكل الأمة، يتيح للبرلمان ولأهل الحل والعقد في الأمة تشريع ما يحتاجه الناس مما أذن به الله من العدل والإحسان والخير والحرية والديمقراطية والمساواة. ولو كان النص بخلافه.

ويؤكد أبو حنيفة باستمرار أن ما يرويه في العلم هو باب من الرأي وليس لأحد أن يلزم به الناس، يجب أن يعلم الفقهاء والمفتون والأئمة والخطباء أنهم يقدمون للناس قراءاتهم واجتهاداتهم ولا يقدمون لهم أوامر ملزمة ولا وصايا إلهية مقدسة.

الفتوى نصيحة وموعظة، واجتهاد ورأي، لا يلزم أحداً. ويمكن أن يصدر عن كل أحد. وقد يتأثر بمزاج المفتي تسامحاً أو تشدداً وكذلك ببيئته وقومه وشيوخه وتلاميذه.

قانون الفتوى تحكمه سنة الله... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في

الأرض.

القضاء هو الأخطر.. والقضاء ليس رأياً واجتهاداً بل هو قانون والتزام، ولا يجوز أن يتصدى له إلا من هو أهله، ومن عينته الدولة العادلة حصراً ووفرت له قانونها وتشريعها.

وفي سياق الحديث عن فقه أبي حنيفة فإنني أؤكد أن الإسلام عقيدة وفقه، ومذهب أبي حنيفة في تقديم العقل وفي الإرجاء وفي القول بخلق القرآن هو في العقيدة ما شرحه الإمام ابن عربي وابن سينا وجلال الدين الرومي وأهل العرفان، وهو فيض من الحب والرحمة والإخاء للأديان والأمم والإنسان.

ويمكننا القول دون تردد أن فقه أبي حنيفة هو جوهر القوانين المدنية والعقابية والأحوال الشخصية الحديثة التي أقرتها البرلمانات العربية والإسلامية، وهو قواعد أبي حنيفة التي طورها الفقهاء إلى السنهوري ومصطفى الزرقا، وهي فيض من القوانين الحديثة الناضجة في القانون المدني والجنائي والأحوال الشخصية، وهذه العقيدة دون شك هي جمهور الإسلام الشعبي .

وهذا الفقه وهذا الاعتقاد متصالح مع العالم.. وهو محل احترام كل الأمم المتحضرة، أما المشكلة مع جماعة ظاهر النص فهي لا تزال معقدة، تستعصي على الحل.

ومن استحسان أبي حنيفة الرائع الذي نحتاجه في زماننا:

• الإذن للمرأة البالغة الراشدة بمباشرة عقد نكاحها بخلاف ظاهر الأثر المروي: لا نكاح إلا بولي.

• الإذن بدخول المشركين إلى حرم مكة خلافاً للسائد المشهور بمنع المشركين من دخول مكة، وذلك لمصلحة حقيقية للأمة، للتعريف بالإسلام، ولئلا يبدو الإسلام ديناً غامضاً مرعباً، وليعلم الناس أن لا شيء نخفيه.

• أذن لغير العرب بالصلاة بلغتهم، وأذن بقراءة الفاتحة بالفارسية لما رأى ذلك مفيداً للناس ليعبدوا لله بما يفهمون، ولا يخرّوا على آيات ربهم صماً وعمياناً.

• ألغى خيار الشرط في البيع الذي ورد به الأثر، وذلك لما رأى تلاعب التجار ومكرهم وكيدهم في إلغاء العقود بعد إبرامها.

• أجاز صرف قيمة المال في صدقة الفطر خلاف ظاهر النص من وجوب صاع تمر أو بر أو شعير.

• أوقف صرف الغنائم لذوي قرابة النبي، وخصه بأهل الحاجة، وبذلك منع احتكار الثروة وألغى امتيازات طبقة النبلاء.

• أفتى بمنع القياس في الحدود.. وبذلك تحتاج الجرائم الجديدة إلى اجتهاد جديد قائم على العقل، وهناك اليوم ألف جريمة غير مصنفة في الكتاب والسنة ومدارها على قول علماء القانون وشورى الأمة.

• وأفتى بجواز صرف الكفارة إلى مسكين واحد، وظاهر النص يوجب صرفها إلى ستين مسكيناً.

• وأفتى بجواز صرف الزكاة إلى مصرف واحد من الثمانية والنص يوجب بذلها في الثمانية.

• ولعل أكثر آرائه جرأة هو قوله بخلق القرآن، ومع أن الرواية ترددت عنه ولكنني أرجح أنه سبق إلى ذلك، كما يدل فقهه واستحسانه.

إنه بحق الإمام الأعظم.

بالطبع سيقول بعض الأصدقاء أن أبا حنيفة لم يرد هذا وسيتأولون له استحسانه على أنه لون من القياس، وقناعتي أن هذا تلبيس معاند للحقيقة، ولو كان ذلك كذلك لما أنكر عليه الأئمة وعلى رأسهم الشافعي الذي هو أولى الناس بمعرفة مقامه وعلمه وكذلك الإمام مالك وابن حنيل والثوري والأوزاعي وغيرهم كثير.

ولا بد في النهاية من تحفظين اثنين:

– الأول: أن كثيراً من هذه الاتهامات العنيفة كانت بمكر من السياسيين الذين اصطدم بهم أبو حنيفة حيث دخل السجن مرتين أيام هشام بن عبد الملك وأيام أبي جعفر المنصور.

– الثاني: أن كل هذه الاتهامات العنيفة لم تكن إلا عنف كلام وألفاظ، وباستثناء السجن فإن أبا حنيفة لم يتعرض لأي عنف من مخالفيه وإنما تعرض لذلك من الاستبداد السياسي فقط.

على كل حال، لقد ذويت هذه العبارات وانحسرت إلى كتب أهل التعصب والتطرف، واستقر اسم هذا الإمام المجدد في تاريخ العالم الإسلامي باسم واحد شهير: وهو الإمام الأعظم.

المعتزلة

لمحة تاريخية	المعتزلة حركة عقلانية ظهرت في القرن الأول الهجري، وقد تحددت ملامحها عبر عدد من المثقفين الذين رفضوا الاشتراك في الحروب الأهلية واعتزلوا كل فتنة.
أهم أعلام المعتزلة ممن تركوا آثاراً علمية	أهم أعلام المعتزلة في التاريخ واصل بن عطاء، غيلان الدمشقي، الجعد بن درهم، القاضي عبد الجبار، بشر المريسي، جهم بن صفوان، بشر بن المعتمر، عمرو بن عبيد، ثمامة بن أشرس.
ألقاب مشهورة	التيار العقلي في الإسلام
التاريخ	ظهروا في القرن الأول ولا يزال مستمراً
بعض ما ألف عنهم	
أهم من تأثر بهم	الخلفاء العباسيون
أهم من تأثروا بهم	الفلاسفة اليونانيين وحواراتهم مع المسيحيين

أهم ثلاث قضايا نادوا بها	• العدل الإلهي ووجوب تأويل القرآن بما يتفق مع عدل الله. • إنكار القدر وتأكيد مسؤولية الإنسان وحريته • القول بخلق القرآن وتاريخانيته.

يعتبر المعتزلة قادة التفكير العقلي في التاريخ الإسلامي، وقد كافحوا خلال تاريخهم الفكري طويلاً من أجل تكريس المذهب العقلي الذي يتجاوز ظاهر الكتاب والسنة إلى مقاصدهما الكبيرة، ولم يتوقفوا عند ظاهر التأويل.

ومن الضروري في البداية أن نشير بحزن إلى تورط المعتزلة في فتنة خلق القرآن، التي كانت نتيجة التوجهات الديكتاتورية للخليفة العلماني المأمون، ومن بعده بالطبع المعتصم والواثق، وعلى الرغم من الغايات النبيلة التي استهدفتها نهضة المأمون العلمية والثقافية والفكرية ولكن تورطها في استخدام السياسة وموافقة عدد من أئمة المعتزلة على لعب هذا الدور المشين وأبرزهم أحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي وثمامة بن أشرس هو أمر لا يمكن تبريره، وقد أساء مرتين: الأولى إلى فقهاء أهل السنة الذين تعرضوا للاضطهاد بسبب آرائهم، والثانية: هي الإساءة الكبيرة لتراث المعتزلة أنفسهم الذي أصبح تراثاً مرجوماً بعد الانقلاب السياسي الذي قام به المتوكل بعد أن ولي الخلافة.

ولا بد من هذه المقدمة حتى نستطيع أن ندلل بالضبط على المعنى المقصود بمواقف المعتزلة بعيداً عن السياق السياسي والحزبي الغاشم الذي ما دخل الفكر إلا أفسده.

فهل أستطيع أن أكتب إذن بمعزل عن الفترة المريرة لتورط المعتزلة في السياسة؟

لقد ظل المعتزلة منذ ظهورهم يعانون الاضطهاد وكانت هذه المعاناة أبرز الأدلة على مشروعهم الثوري في الفكر الإسلامي السائد، وسعيهم الدؤوب لتقديم تأويل عقلي للإسلام، في قضايا الغيب وقضايا الشهادة على السواء، وإثبات أن القرآن مخلوق، وأنه غير معد لكل زمان ومكان، وأن بالإمكان التعامل معه كنص تاريخاني مخلوق العبرة فيه بخصوص السبب وليست بعموم اللفظ، وأن أسباب نزوله تحكم أفق دلالاته، وأن الخلط بين القرآن وبين الله، واعتبار القرآن هو الله ذاته، أو هو صفة قائمة فيه هو غلو في الدين، وأن عامة الفقهاء قد وقعوا في الغلو بالقرآن ومزجوا بينه وبين الله، كما وقع النصارى في الغلو بالسيد المسيح.

إن القـرآن كلام مـن اللـه، وليس هو اللـه عينه، وهو وحي مـن الله وليس الله عينـه، وأنه نزل متسقاً مع الحوادث، ولا يوجد سبب منطقي لافتراض أزلية نص تبت يدا أبي لهب وتب، أو نص فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها، فهي كلها نصوص حال جاء القرآن الكريم مخبراً عنها بعد وقوعها، وهذا أمر لا يحتاج إلى افتراض أي غيب، بل هو وثيق الصلة بعالم الشهود.

ولا بد من القول بأن اسم المعتزلة لا يصح تبريره بأن واصل بن عطاء اعتزل حلقة الحسن البصري فـي مسـجد البصرة، حين خالفه في مسـألة المنزلة بيـن المنزلتين، وفيه قال الحسـن البصري اعتزلنا واصل، فصارت التسـمية غالبة على القوم، وهذه الحكاية على افتراض صحتها لا تحمل سـبباً كافياً لتمسك المعتزلة بهذا الاسم، حيث حافظوا في كتاباتهم ودراساتهم على هذه التسمية باستمرار.

وقناعتـي أن المعتزلـة سـموا بهذا الاسـم في سـياق الواقع الرباعـي الذي كان يعيشـه العالم الإسـلامي آنذاك حيث لا يمكنك فهم أي نشـاط اجتماعي أو ديني إلا في سـياق القسمة الرباعية السائدة: السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة.

فالسنة هم من انحاز لصف الشيخين والخلفاء من بعدهم، أما الشيعة فهم من رفض الشيخين والخلفاء من بعدهم إلا علياً، والخوارج هم من رفضوا الجميع وقاتلوهم، أما الموقف الاعتزالي فهو واضح وهو اعتزال الفتنة كلها، وتحرير الصراع كله على أساس أنه صراع سياسي قائم على المطامع ولا يوجد سـبب ديني يدفعك للقتال في أي من الأطراف المتحاربة، وأن المطلوب هو اعتزال الفتن كلها، وبالفعل لا تجد معتزلياً إلا وقد اعتزل الفتن كلها ولم يكن فيها طرفاً، وبذلك يسـتقيم اختيارهم الاسـم كما تشهد له أحوالهم وسلوكهم ونشـاطهم، وليس في حياتهم سلوك مشين إلا تورطهم في هوى المأمون في فتنة خلق القرآن.

وهذا ما اختاره أهم فلاسفة الاعتزال القاضي عبد الجبار الهمذاني بقوله: إن الاعتزال ليس مذهباً جديداً أو فرقة طارئة أو طائفة أو أمراً مسـتحدثاً، وإنما هو اسـتمرار لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسـلم وصحابته، وقد لحقهم هذا الاسـم بسبب اعتزالهم الشـر لقوله تعالى: (وأعتزلكم وما تدعون) ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من اعتزل الشر سقط في الخير).[1]

ومـن أهـم أئمة الاعتـزال واصل بن عطاء الـذي ارتبط ظهور الاعتزال باسـمه توفي ١٣١ هـ، وإبراهيـم بن سـيار النظـام، وأبو الهذيل العلاف وبشـر بـن المعتمر، ومعمر بن عباد وأشـهرهم القاضي عبد الجبار قاضي الري وكذلك الجاحظ وكتابه الأهم البيان والتبيين.

(١) الجهني، مانع، موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الندوة العلمية ، الرياض، ج١ ص ٦٤

كما يمكن اعتبار عدد من الثائرين على الأمويين كأبان بن سمعان والجعد بن درهم وجهم بن صفوان وكذلك غيلان الدمشقي أصحاب مقولات اعتزالية وإن كانوا أسبق من واصل بن عطاء.

ويمكن القول أن المعتزلة في الإسلام هم مؤسسو الثيوديسيا في الإسلام وهو ما شرحه الفيلسوف الألماني لايبتنز وبعده إيمانويل كانط كما سنشرحه في موضعه، والثيوديسيا هي تبرير أفعال الله وتفسيرها تفسيراً يستند إلى العدل، بعيداً عن دلالات ظاهر النصوص وهو ما يمكن اكتشافه في كل موقف اعتزالي من المسائل اللاهوتية، وسنجده بوضوح في اختيارت فلاسفة الإسلام جميعاً كما سنوضحه أيضاً عند ابن سينا والقارابي وابن رشد وغيرهم.

لم يتردد المعتزلة في تأكيد أن عدالة الله أصل في الدين بل أن كل الذين تحدثوا عن أصول المعتزلة صدروها بأصل التوحيد والعدل، والكلمتان متلازمتان، فالتوحيد يعني أن نمتنع من إضافة أي مخلوق إلى الخالق سبحانه، وقد بلغ بهم التنزيه حداً كبيراً حتى أنكروا قدم الصفات كلها إلا صفة الوجود، وذلك كله لتنزيه الله تعالى، وبالتالي لمنع إسقاط العصمة على غير الله تعالى من صحابة وتابعين وفقهاء وحتى أنبياء وكتب مقدسة، فالكل غير الله، والكل له ظروفه التاريخانية الطارئة التي تنزع عنه صفة العصمة والخلود، إنك ميت وإنهم ميتون، إنما أنا بشر مثلكم، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم.

أما العدل، فهو الصفة المحورية لله تعالى، ولا يمكن فهم أي تكليف شرعي إلا إذا تحقق فيه عدل الله، وفي هذا السياق قاموا بنفي القدر المكتوب لأنه يتعارض مع العدل الإلهي، والأدلة على عدل الله تعالى في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً.

وفي سياق ذلك فقد أنجز المعتزلة مواقف متقدمة في إخاء الأديان ودعوا إلى إعذار الخلق في اختلافهم تأسيساً على عدل الله تعالى، وأعلنوا بصراحة رفضهم لما يذهب إليه العامة من اختيار الله تعالى لأمة دون الأمم وزمن دون الأزمنة، وشخص دون الأشخاص، ليكون محلاً لرضائه ورحمته، وأن الرسول يشفع لأمته دون الناس، ومن ذلك الإيمان بنسخ الإسلام للشرائع كلها، دون أن تقوم على الناس حجة بذلك، حيث لا يمكن أبداً التسوية بين من شهد النبوة والمبعث وهو في مكة أو المدينة وبين من شهد ذلك وهو في أدغال الهند ومجاهيل الصين، وكذلك من جاء بعدهم ولو سمعوا أن نبياً ظهر في الحجاز قال أنه أوحي إلهي وصدقه الناس من حوله، ولكنهم لم يشاهدوا ما شاهده الصحابة ولم يحاوروا حوارهم ولم يُتلى عليهم الكتاب ولم يأنسوا بالرسول الكريم، وغير ذلك، ولا يستقيم عدلاً ولا عقلاً أن يُحاسب هؤلاء حساباً

واحداً.

وقد كتب المعتزلة طويلاً في الحسن والقبح العقليين، ورأوا أن العقل قادر أن يستقل بنفسه في معرفة الحسن والقبيح، وأن الوحي نور يهدي وليس قيداً يأسر، وأن الأمم قادرة بالنظر المحض على الوصول إلى معرفة الحسن والقبيح، وأن النبوة ضرورية وواجبة لإرشاد العامة، ولكن أهل النظر والحكمة، يسترشدون بالنبوات ولكنهم يبلغون مقاصدها بالنظر، ولن تضل الأمم الصادقة دربها في الإيمان بالواحد الذي ليس كمثله شيء.

ومع أن أصول المعتزلة كافية لتأسيس فهم واضح في إخاء الأديان وإعذار المخالفين الذين لم تقم عليهم حجة الله كما قامت على العرب بوجود الرسول وخيار الصحابة والدولة الإسلامية، ولكن لم يرشح من كتاباتهم في هذا الشأن إلا القليل، وسبب ذلك بالطبع أن معظم ما نقل عنهم في هذا الباب من نقل خصومهم عنهم، ومن ذلك ما نقله الغزالي عن الجاحظ بقوله:

«ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية إن كان معانداً على خلاف اعتقاده فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضًا معذور؛ وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها. وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفًا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة». (٢)

ونقل الكوفي عن الجاحظ والعنبري قوله: لا إثم على من أخطأ الحق مع الجد في طلبه مطلقاً، حتى مخالف الملة والظاهرية. (٣)

وقد رد الغزالي على الجاحظ وسفه رأيه، ومن العجيب أنه استدل على بطلان رأي الجاحظ بأن رسول الله كان يقتل غير المسلمين إذا ثبت بلوغهم. وهو على يقين أنهم مقلدون لم تقم عليهم حجة.! وهذه عبارته:

«ولذلك قاتل جميعهم وكان يكشف عن مؤتزر من بلغ منهم ويقتله ويعلم قطعا أن المعاند العارف مما يقل، وإنما الأكثر المقلدة الذين اعتقدوا دين آبائهم تقليدا ولم يعرفوا معجزة الرسول - عليه السلام - وصدقه». (٤)

ولا يسعني بالطبع إلا أن أعترض أشد الاعتراض على ما ذهب إليه الغزالي في وصف الرسول

(٢) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المستصفى ص ٣٤٩
(٣) الطوفي، سليمان بن عبد القوي، مختصر شرح الروضة، ج٣ ص ٥٠٢ مؤسسة الرسالة ١٩٨٣
(٤) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المستصفى ص ٣٤٩

الكريم بأنه كان يقتل الناس حين يبلغون، بل وينص أيضاً أنهم كانوا غير معاندين ولم تقم عليهم حجة!! فيا سبحان الله كيف يأخذ التعصب الظاهري بأهله إلى اتهام الأنبياء الكرام بما لا يفعله إلا المستكبرون الغاشمون المفسدون في الأرض.

وبالجملة فإنني أشير إلى المعتزلة هنا لأن سياق اختيارهم في العدل يلزمهم القول بإعذار أهل الأديان، ولكنني أعترف بأنني لم أقف على ما يكفي من أقوالهم لإثبات هذ الموقف بشكل مباشر في الفروع كما يدل له كلامهم في الأصول.

الفارابي

الاسم الكامل	أبو نصر- محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي
ألقاب مشهورة	المعلم الثاني
التاريخ	٢٦٠-٣٣٩ هـ / ٨٧٤-٩٥٠ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد في فاراب بكازاخستان وانتقل إلى بغداد ثم حلب واستقر وتُوفي في دمشق
أهم الكتب التي ألفها	له نحو خمسين كتاباً من أهمها: آراء أهل المدينة الفاضلة، وآراء المنطق، والجمع بين الحكيمين وكتاب الملة ورسالة السياسة المدنية وإخصاء العلوم والموسيقى الكبير
أهم ما ألف عنه	ظهرت عشرات الكتب عن الفارابي بلغات مختلفة منها: 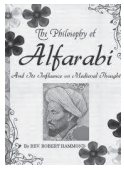 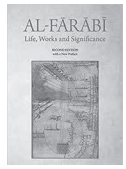 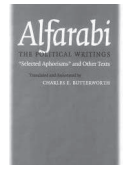 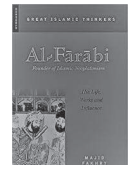
أهم من تأثر بهم	أرسطو وأفلاطون وسقراط وبطليموس والكندي ومتى بن يونس ويوحنا بن جيلان

أهم من تأثروا به	شهاب الدين السهروردي ابن باجة موسى بن ميمون وملا صدرا
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الفلاسفة ينصحون الدولة والأنبياء ينصحون العامة. • الأصل في الإنسانية الخير والمحبة. • الفيض مستمر والإنسان أهل للفيض في كل زمان.
مساجد بُنيت باسمه	عشرات الجامعات والمشافي والأكاديميات ومراكز البحث والطوابع البريدية باسم الفارابي
الضريح	ضريح الفارابي في باب الصغير بدمشق

الفارابي...
إخاء الأديان وكرامة الإنسان

لو سألت أي مسلم عن الفارابي فسيقول لك على الفور أنه الفيلسوف الأشهر في الإسلام، وهو مفخرة للحضارة الإسلامية، وفي أي حوار عن الحضارة الإسلامية في العالم فإن اسم الفارابي فخر ومجد للإسلام.

هكذا هي الصورة عبر التاريخ، ولكن مع قيام العصر السلفي المناهض للعقل تم استحضار فتاوى متعصبة مركونة منذ قرون، وفيها ذكر ابن تيمية نقلاً عن التهافت أن الفارابي خالف في عشرين مسألة كفر في ثلاث وتزندق في سبع عشرة!! وقال ابن العماد في شذرات الذهب: أكثر العلماء على تكفير الفارابي.!!!

ولا ندري من هم أكثر العلماء فأنت تجد الرجل محل احترام وتبجيل في كل كتب الرجال

في التاريخ الإسلامي إلا في الشذرات.

الفارابي أبو نصر.. أشهر فلاسفة الإسلام ٢٦٠-٣٤٠ هجرية، إنه الرجل الهائل الذي طبقت شهرته العالم، وأطلق عليه فلاسفة العالم اسم المعلم الثاني، واعتبر أشهر الفلاسفة بعد أرسطو.

من وجهة نظري فالفارابي أول من قدم فلسفة إسلامية عميقة لإخاء الأديان وكرامة الإنسان، تأسيساً على معنى توحيدي خالص وهو انبثاق الكائنات عن الله، وبذلك فقد تجاوز الفهم التقليدي لرجال الدين القائم على تصور أن الله خلقنا للجنة وخلق غيرنا للنار!!

وربما كان الفارابي أول من سبق إلى ترسيخ مبدأ المجاز في تفسير النص الديني، وقال إن الديانات تشرح الحقائق العميقة للناس على شكل حكايات وروايات قائمة على الرمز!!!

يقدم الفارابي رؤية أخرى للخلق لا تشبه قصة آدم وحواء وشجرة التفاح، لقد تحدث عن الخلق على أنه الفيض.. هو الفيض يصدر من الخالق سبحانه، فينتج ذاتاً جديدة، ويقدم هذا المخلوق كوكباً أو بشراً أو حجراً على أنه أثر من العقل الفعال الأول سبحانه، فالمخلوق فيض من الخالق وهو كالنَّفَس من المتنفس والكلام من المتكلم والظل من الذات.... وهذ الاندغام بين الخالق والمخلوق يوجب على الحكيم احترام الخلق كاحترام الخالق، ويكرس صورة الذات المترقية في المخلوق، ويسميها العقل.

المخلوق ليس عند الفارابي حجراً أبله، أنه مشروع وجود جديد، أنه العقل الثاني الصادر عن العقل الأول، أنه ديالكتيك ينتج نفسه من جديد، في دورة كاملة، ففيه من عقل الله وروحه، وهو يقاوم نوازع الشر بفيضان ذاتي ينتخب أحسن ما في الأشياء ويهمل الرديء منها.

ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً مع الوعي الإسلامي، فقد كان يرى ذلك غاية النص المباشر: ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وكرر مراراً قل كلٌ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

وفي كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة، شارحاً أفلاطون، كتب الفارابي تصوره للمدينة الفاضلة، وكان ملهماً لفلاسفة الغرب وخاصة توماسو كامبانيلا الذي كتب «مدينة الشمس» والسير توماس مور في مشروعه «يوتوبيا» وفرنسيس بيكون وهوبز، ولكن الفارابي تميز عنهم جميعاً بأن مدينته الفاضلة هي مدينة السعادة لا اللذة، والسعادة هنا قائمة على اجتماع حضاري للعقول الفعالة الناشئة من العقل الكلي، وهذا ما يميزها عن المدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة، لقد كان يتحدث عن تحضر إنساني وأخلاقي وقيمي قبل التحضر العمراني المدني، ويرى أن ملك المدينة الفاضلة هو أكمل أهلها أخلاقاً وعلو كعب في العقل والفضيلة، وأكثرهم

اتصالاً بالعقل الفعال، ويترجح أنه يقصد هنا دولة الرسول في المدينة، حيث كان الرسول الكريم أقدر الناس اتصالاً بالعقل الفعال، وحين لا يتوفر هذا الكمال في رجل واحد، فإنه دعا إلى هيئة ديمقراطية حاكمة.

وأما ما نقله ابن تيمية من قول الفارابي بتفضيل الفيلسوف على النبي فهو وهم لم يقله الفارابي، وإن كان قد أشار مراراً إلى أن النبي أفضل من الفيلسوف للعامة، وأما الفيلسوف فهو الأنسب للخاصة، لقد أراد أن يقول إن الأنبياء لم يكتبوا فلسفة عميقة ولكنهم عزفوا على أوتار صحيحة وكانوا أقرب لقلوب الناس من الفلاسفة.

يؤكد الفارابي أن الخير هو صفة الإنسانية الغالبة وأن الشر قليل، وأن إرادة الخير تطفئ نوازع الشر وأن مشروع الله على الأرض ناجح ومتنام، وأن الغاية الله والموعد الله.

وقد صنف الفارابي كتاباً خاصاً بعنوان المِلّة، يتحدث فيه عن عقيدة المجتمع في المدينة الفاضلة، ويقول فيه: «الملة؛ هي آراء، وأفعال مقدرة ومقيدة بشرائط يرسمها للجمع رئيسهم الأول، ويلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضًا محدّدًا له، فيهم أو بهم، والجمع، ربما كان عشيرة، أو مدينة، أو صقعاً، أو أمة عظيمة، أو أمماً كثيرة. والرئيس الأول، إن كان فاضلاً، وكانت رئاسته فاضلة، في الحقيقة؛ فإنه يلتمس بما يرسم، أن ينال، هو وكل من تحت رئاسته، السعادة القصوى؛ التي هي، في الحقيقة، سعادة. وتكون تلك الملّة فاضلة». (١)

ويؤكد الفارابي في كتابيه الأساسيين آراء أهل المدينة الفاضلة، وكتابه الملة أن الملة الإنسانية الأفضل هي تلك الملة التي تتأسس في ذروة تطور الصناعات الفكرية والعملية (٢)، وبذلك فإنه يظهر احتراماً واضحاً لخيارات الناس في التدين والفلسفة طالما أنها تأتي في سياق القبول الاحتماعي والاعتماد بقانون.

ومن الواضح أن الفارابي يلتزم موقفاً بالغ الحيادية في تعريف الملة، ولا يتخذ موقف المبشر بالإسلام، أو الناسخ لسواه، وإنما يتحدث عن الدين على أنه وضع اجتماعي، يستند إلى قيم عليا، ومقتضاه أن يتاح للناس التعبد بأديانهم واختياراتهم وفق ما يقره القانون، أو الرئيس بتعبيره، وهذا في الواقع سبق كبير يتيح لنا أن نكرر ما نقوله دائماً أن إعلان حقوق الإنسان هو نتاج جماعي لكل فلاسفة التاريخ وأنبيائه وعقلائه وحكمائه، والفارابي هنا واحد من أبرزهم.

وأما موقفه من عذاب الأمم في الدار الآخرة وفق ما قرره القرآن الكريم، فهو لا يكتب في

(١) الفارابي، أبو نصر، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، ص ٤٣، دار المشرق، ١٩٩١
(٢) مهدي، محسن، الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية، ص 107

ذلـك شـيئاً ولكنه يؤكد مـرات عديدة في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلـة أن البعث الأخروي هو بعث روحي وليس جسمانياً، وأن الحياة الآخرة هي حياة فكرية، وأن نعمة الحكمة والفلسفة التي يؤتاها الفلاسـفة هي أعظم نعم الله، وهي الحياة المثلى في عالم الخلود [٣]، وهو ما كرره بعده بكثرة محمد إقبال بقوله: الجنة والنار حالتان وليستا مكانين. [٤]

وفـي سـياق ما كتبـه الفارابي من دور الفيلسـوف في قيادة الأمة فقد كتب ابن باجة الأندلسـي ١٠٨٥-١١٣٨م تأكيـداً لمواقـف الفارابـي في آراء أهـل المدينة الفاضلة، وأشـار إلى أن العمل الصالح ينبغي أن يتجرد من النوازع النفعية والربحية، واعتبر من هذه المنافع ما ينتظره الناس من جنـة ونـار، وأكد أن المطلوب في العمل الصالح هو بلوغ الكمال الذي يجعله راضياً عن نفسـه، قريباً من ربه، وهو فهم عابر الأديان والأوطان، يشترك فيه كل أبناء الإنسانية على اختلاف أديانهم وأفكارهم وأعراقهم.

عـاش الفارابي حياة مدهشـة، وعلـى الرغم من شـهرته التي طبقت الآفـاق واصطفاه لأجلها الملوك، ولكنه كان يؤثر حياة بسيطة للغاية وقد خصص له سيف الدولة أربعة دراهم كل يوم كان يقتات منها، وكان يمضي سـائر يومه في غرف النواطير، في بساتين دمشق والربوة، وكان الأمراء والوجهـاء يدعونه لقصورهم باسـتمرار فيتعفـف ويعتذر، ولكنهم كانوا تصدمهم الدهشـة حين يجدونه مع نواطيرهم في أطراف البستان!

وفـي الربـوة كتـب قامـوس الموسـيقى الخالد: (صنع بسـحر) وهـي مقامات أهـل الأذواق والأشواق، الصبا والنهاوند والعجم والبيات والسيكاه والرصد.

نظـر إليـه فقهاء عصره كحكيـم كبير، وتغنى به المسـلمون عبر التاريخ، قبـل أن تطهر فتاوى التعصـب، وقد صاحب سـيف الدولـة في حلب وانتقل معه إلى الشـام، وحيـن توفي صلى عليه سيف الدولة مع أربعة من خاصته ودفن بالباب الصغير.

(٣) الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ٥٦ دار المشرق بيروت
(٤) انظر الفصل الخاص بإقبال في هذا الكتاب

ابن سينا

الاسم الكامل	أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي
ألقاب مشهورة	الشيخ الرئيس
التاريخ	٣٦٩-٤٢٧ هـ / ٩٨٠-١٠٣٧ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد في بخارى وسافر إلى العراق وتوفي بإيران ـ همدان
أهم الكتب التي ألفها	ظهرت عشرات الكتب عن الفارابي بلغات مختلفة منها:
أهم ما ألف عنه	صدرت مئات الكتب عن ابن سينا باللغات المختلفة، وهذه بعضها

أهم من تأثر بهم	أرسطو وأفلاطون وأبقراط والفارابي والكندي والرازي وواصل بن عطاء
أهم من تأثروا به	ابن طفيل ابن باجة البيروني
أهم أربع قضايا نادى بها	• عدالة الله في الآخرة ووجوب تأويل نصوص العذاب. • نفي سبق القلم وتأكيد المسؤولية والإرادة. • خلود الروح وسرمديتها. • تقديس النفس الإنسانية وحقوق الإنسان.
مساجد بُنيت باسمه	بُنيت باسم ابن سينا عشرات الجامعات والمستشفيات ومراكز البحث العلمي في العالم
أفلام عنه	فيلم روسي ١٩٥٦ بعنوان ابن سينا، وفيلم الطبيب للمخرج الألماني فريرديك شتوتسل
الضريح	ضريح في همدان بإيران

ابن سينا.... الشيخ الرئيس
إخاء الأديان وكرامة الإنسان

لم يزعم نفسه فقيهاً ولا محدثاً... ولم يكن يفتي في صلاة ولا صوم ولا بيع ولا رهن.
ولكنه أستاذ العقيدة الأكبر في الإسلام، وأكثر من قدم الله لعباده عدلاً وحباً ورحمة... وهو واضع عقيدة برهان الصديقين على وجود الله تعالى.

إنما نلجأ لهؤلاء الأئمة لأنهم يقدمون عقيدة تلتزم بالعدل ويقبلها العقل، فيما عاد خطابنا الديني إلى عقيدة التسليم والخضوع وفق فهم السلف، اترك عقلك وتعال! الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة... أراك ضالاً أخرجوه!

عاش ابن سينا ٣٧٠-٤٢٧هـ في أوزبكستان، وانتقل في حواضر الإسلام بين نيسابور وأصفهان وبخارى وهمدان، وابتسم له الحظ فنجح كطبيب طامح في شفاء الأمير نوح الساماني وهو في سن الثامنة عشرة، وأصبح بالتالي طبيب البلاط وتوفرت له فرص النجاح والمعرفة بشكل خيالي... ونجح الفتى في ترقي المناصب حتى صار وزيراً للسامانيين، ولكنه بالطبع بعد سقوط الدولة السامانية تعرض للاضطهاد والهرب مراراً أيام الغزنويين .

وبعيداً عن تاريخه السياسي والطبي، فالرجل كتب في العقيدة أدق ما يمكن أن يكتبه عارف بالله، بصير بأقداره، معظم لجلاله، وقد بنى عقيدته على أساس إخاء الأديان وكرامة الإنسان، فاعتبر الإنسان روحاً مقدسة، هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع، وأن هذه الروح فيها طيف الله وأثر الله وسر الله، وأن تعظيم روح كل إنسان وتوقير كل الأديان هو طاعة لله تعالى واحترام لخلقه وأمره.

وفي النفس يقدم ابن سينا قراءة تمزج بين الطب والفلسفة والدين، فالنفس ثلاثة: نباتية وحيوانية وإنسانية، أو الأنا والهو والأنا الأعلى وفق فرويد، أو النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء، وهو يرى أن النفس مفطورة على الخير وأن الإيمان في كل نفس، إلا النادر الذي يوبقه الشر.

وفي كل تأويل للنفس فقد كان حريصاً على تقديس النفس الإنسانية بوصفها روحاً إلهية في الإنسان، وأن احترام النفس هو احترام لله تعالى، وهي تترقى وتتهذب بتعاليم الأنبياء وهدي الأديان ونور الفلسفة.

أما جوابه على السؤال الذي يعصف بكل حائر، وهو ظاهر النص فيما يكون في الآخرة من عذاب وانتقام وزقوم وغسلين ونار سوداء، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فقد اختار أن هذه النصوص كلها من باب المتشابه الذي نرتله ولا يلزمنا الاعتقاد بظاهره وإنما هو على المجاز في ذلك كله، وأن الأصل عدل الله تعالى ورحمته وغفرانه وما أمرنا به من العفو والإحسان، وأن البعث يكون للأرواح على وجه يعلمه الله وأنه قرَّب إلينا المعاني بعبارات من الظاهر وسبيلها المجاز.

وأما جوابه على أكثر الأسئلة قلقاً وهي عدالة الحساب في الآخرة مع تمكن الأقدار المكتوبة

من سلوك ابن آدم، فقد ملك قدراً من الجرأة جعله يقول أن علم الله تعالى لا يتعلق بالزمان، وهو يشبه ما قالته الأشاعرة أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات، وهكذا فليس من لازم الاعتقاد أن القدر مكتوب على ابن آدم قبل أن يخلق، فإن الله تعالى قال: ستكتب أعمالهم، وقال: سنكتب ما قدموا، فكتابة الأقدار تكون بعد وقوعها وليس قبل وقوعها حيث ينفي التكليف والمسؤولية.

وفي الواقع فإن ما ذهب إليه ابن سينا واللاحقون من الفلاسفة حول عدل الله تعالى، ووجوب تأويل كل نص يوهم الظلم لصرفه عن ظاهره تأسيساً على وجوب تنزيه الله عن كل نقص، هو مذهب سائر الفلاسفة في الإسلام وفي الأديان الأخرى، وقد تطورت هذه المدرسة في عصر الأنوار تطوراً كبيراً وقد كتب فيها الفيلسوف ليبنتز أطروحة فلسفية كاملة بعنوان الثيوديسيا، صارت عنواناً لكل جدل فلسفي يركز على سؤال التناقض والشر في العالم الأول والعالم الآخر، ووجوب تنزيه الخالق عن إرادة الشر في الدنيا والآخرة.

وقد ظهرت الثيوديسيا في الفكر الإسلامي بوجه خاص لدى المعتزلة الذين تمسكوا بمبدأ العدل والتوحيد في الذات الإلهية.

ومع أن ابن سينا لم يكتب مباشرة في إخاء الأديان، ولكن مذهبه واضح من تقديس النفس الإنسانية واعتبار أثر الله تعالى فيها وأنها حرية بالخلود، وأنها في دار النعيم إلى جوار الله تعالى، وهذا عام في كل أهل الملل والأديان.

ويمكن اعتبار ما روي عن الناسكين الأوائل في الإسلام مؤسساً لهذا اللون من الوعي، قال أبو سليمان الداراني: أن لله عباداً لا يشغلهم عن الله رجاء الجنة ولا خوف النار [١]، وقال الفضيل بن عياض: إني لأستحي من ربي أن أعبده خوف ناره، [٢] وقالت رابعة العدوية: إن قوماً عبدوه خوف ناره فتلك عبادة العبيد، وقوماً عبدوه رجاء جنته فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوه لأنه الله فتلك عبادة الأحرار [٣]، وقال إبراهيم بن أدهم: اللهم أنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة أن آنستني بذكرك ورزقتني حبك وسهلت علي طاعتك. [٤]

حقق ابن سينا أعظم نجاح لعالم مسلم، وصار رمز الحضارة الإسلامية، وظل كتابه القانون في الطب أحد أبرز كتب العلم في الأكاديميات الأوروبية، وتحتفل به اليوم تركيا وايران والعراق

(١) الغزالي أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين ج٤ ص ٣١٠
(٢) الغزالي أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٣١٠
(٣) الأصفهاني أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، ج٨ ص ٣٥
(٤) المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي، الكواكب الدرية ج١ ص٢٨٨

واوزبكستان بوصفه بطلاً قومياً ورمزاً سامقاً لحضارة الإسلام.

من المؤسف أن الرجل نال نصيبه من التكفير، ولم يشفع له كل ما قدم للحضارة الإسلامية وكل ما قدم من براهين علمية على وجود الخالق سبحانه وعدالته في المعاد، فتواتر على تكفيره عدد من رجال الدين أبرزهم الغزالي وابن القيم وآخرون.. ولكن الرجل بقي حاضراً في الضمير العالمي، وفي عام ٢٠١٨ استيقظ العالم كله على صفحة غوغل التي يتوسطها ابن سينا كرمز عالمي أكبر للإخاء الإنساني والعلم والحضارة والتفوق، أما اليونسكو فقد خصصت عام ١٩٨٠ لإقامة مؤتمرات دولية عن ابن سينا في الذكرى ١٠٠٠ عام لمولده.

ترك ابن سينا نحو ٢٦٤ كتاباً في العقيدة والحكمة والطب، أهمها النجاة والشفاء والإشارات، وفيها كتب عقيدة العدل والحق، ونزه الله عن كل عبث وظلم، وألقى القلم وقال: بهذا ألقى الله.

إخوان الصفا

	مجموعة من الباحثين الأحرار الذين تبنوا تياراً عقلياً فلسفياً، وطالبوا بالحريات والمساواة، الأمر الذي اضطرهم للتستر والاختفاء.	
الولادة والارتحال والوفاة	عاشوا في البصرة وترحلوا بين العراق والشام ومصر في خفاء	
التاريخ	القرن الثالث والرابع الهجري	القرن التاسع والعاشر الميلادي
أشهر رجالهم	أبو حيان التوحيدي، أبو سليمان محمد بن مشير البستي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني، ومحمد بن أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعة.	
أهم الكتب التي ألفوها	رسائل إخوان الصفا	
أهم ما ألف عنهم		

أهم من تأثر بهم	الدولة الفاطمية ـ التيارات العقلانية في الإسلام
أهم من تأثروا به	جعفر الصادق ـ أئمة أهل البيت
أهم قضايا نادوا بها	• إخاء الأديان • التأويل الباطني والمقاصدي للدار الآخرة • قدسية الإنسان ومنزلته • الإعلاء من منزلة العقل

ظهر إخوان الصفا في البصرة في العصر العباسي، في فترة شهدت الصراع بين المعتزلة وأهل السنة، وهي الصراعات التي عانى منها الفقهاء أيام المأمون والمعتصم والواثق ثم عانى منها الفلاسفة أيام المتوكل والمنتصر والمستعين، وتحددت ملامح الصراع الاعتقادي بين تيارين واضحين تيار يرى ثبات النص وأزليته، وتيار يرى تحرك النص وتاريخانيته.

ومن المؤكد أن إخوان الصفا كانوا يميلون للرأي الثاني، وكانوا أقرب إلى الفلسفة الاعتزالية، ولعل ذلك يفسر غيابهم وتخفيهم وحرصهم على كتابة أفكارهم ونشرها دون التصريح بأسمائهم، وفي الواقع فإن الأسماء الحقيقية لكتاب إخوان الصفا ما زالت محل شك وقد ذكر منهم أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة خمسة وأثنى عليهم طيب الثناء وهم: محمد بن مشير البستي المشهور بالمقدسي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني، والعوفي، وزيد بن رفاعة، والنهرجوري، ويعتبر كثير من الباحثين أن أبا حيان التوحيدي منهم، ومنهم من يضيف ثابت بن قرة وأبا إسحق الصابئي إلى مجموعة إخوان الصفا باعتبارهم أيضاً دعاة للإنسانية.

ويعتبر الإسماعيليون أن إخوان الصفا هم أئمة أهل البيت الذين كانوا يعيشون مرحلة الستر في البصرة قبل أن يقدموا من البصرة إلى تدمر ثم إلى سلمية ومصياف، قرب حمص، حيث يقام ضريح جليل لقبورهم على رأس تلة خضراء في وسط غابة غاية في النقاء والجمال.

ويسمي أهل مصياف إخوان الصفا بأنهم الإمام التقي والوفي والزكي، وهم النسب الذي بين عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية وبين إسماعيل بن جعفر الصادق مؤسس البيت

الإسماعيلي.[1]

ويمكن فهم الظاهرة بأنها كانت منصة يلتقي فيها من يؤمن بالتفكير العقلاني الحر، والمذهب الإنساني، ويؤمن بكمال الله تعالى ويتأول كل نقص أو وهن أو جهل توهمه ظواهر النصوص بحق الخالق سبحانه، ويجمعهم أيضاً أنهم كانوا معارضين للدولة العباسية ولم يكن يمكنهم الظهور للعلانية.

ومع أن المذكورين من إخوان الصفا لا يزيدون عن عدة أفراد ولكن من المؤكد أن مئات المفكرين والباحثين كانوا ينتمون إلى هذه المنصة المعرفية النخبوية، التي كانت تستخدم الحمام الزاجل في التراسل والتواصل، وقد نجحت في إيصال رسائلها ونشرها عبر مراحل متطاولة من التاريخ.

وقد كتب إخوان الصفا قراءتهم في سلسلة من الدراسات نشرت بشكل سري وخفي، أبرزها رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا.

وتشتمل رسائل إخوان الصفا على اثنتين وخمسين محاضرة شرح فيها إخوان الصفا عدداً من القضايا الفكرية المتصلة بتهذيب النفس والعلاقة بين الشريعة والحقيقة، والمشترك الإنساني، وتعتبر من الدراسات المتقدمة في الإسلام التي تؤسس لفكرة الإخاء الإنساني بين الأديان والثقافات والقوميات، حيث يشترك الخلق جميعاً في انتمائهم إلى الله واقتباسهم من نوره وروحه، فيتعين إكرام الإنسان لمكان سر الله تعالى فيه بغض النظر عن دينه وجنسه.

وفي اختيار طريف يقدم إخوان الصفا صورة الإنسان الكامل برسم مزيج من الأمم يتخير أجود ما فيها: العالم الخبير الفاضل، الذكي المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة.

وبغض النظر عن هذا الانتقاء فإن الفكرة واضحة وهي أن لكل أمة مزايا وفضائل، وأن بلوغ الكمال يقتضي الاقتباس من جميع الأمم، ويصرون على اكتشاف ما أودع الله في المسيحيين والهنود واليونان من العلم والحكمة والنور.

ويقدم إخوان الصفا رؤيتهم في إخاء الأديان في عبارة واضحة: أن جميع الأديان في جوهرها واحد، لأن لها غاية واحدة هي التعلق بالمثل العليا الفاضلة والتشبه بها على قدر الطاقة الإنسانية.

---

(١) فيكون نسب عبيد الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ٢٩٧ هـ كالتالي: عبيد الله بن عبد الله الزكي بن محمد التقي بن أحمد الوفي بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ويؤكـد إخـوان الصفا أن الاختلاف في الرأي والشـكل واللون من طبيعة الإنسـان، ومن آياته خلق السـموات والأرض واختلاف ألسـنتكم وألوانكم، ولو شـاء الله لجعل الناس رأياً واحداً، وديناً واحداً ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم، ومما ورد في الرسائل:

وينبغـي لإخواننـا أيدهم الله تعالى، أن لا يعادوا علمـاً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب.

ويقسم إخوان الصفا الناس إلى أربعة أقسام:

• الذيـن لـم يؤتوا العلم ولا الإيمان وهم الجهلة المفرطون لا اهتمام لهم إلا لذائذهم وغرائزهم.

• الذين أوتوا الإيمان، وهم المصدقون بالرسل ولا يملكون برهاناً ولا معرفة.

• الذيـن أوتـوا العلم، وهم الفلاسـفة الذين جمعوا المعارف من مظانهـا ولم ينتموا لوحي ولا كتاب.

• الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين جمعوا بين العلم الإنساني والفيض الروحاني.

وتؤكـد الرسـائل بتفصيل شـديد أن الاختلاف بين النـاس هو إرادة الله تعالـى، وأنه ليس من العقل العمل على إنهاء الاختلاف، ولاختلاف الشـرائع فوائد كثيرة، أهمها أنها أيقظت النفوس مـن نـوم الجهالة ونبهتهـا من السـهو والغفلة، واختـلاف الناس فـي المذاهـب والآراء يمنحك مشـاهدة الخير والشر، ويدعو إلى ترك الرذائل واكتساب الفضائل، واختلاف العقائد هو الطريق الواحد المستقيم الذي يوصل الإنسان إلى الكمال والهدف المطلق.

وتؤكد الرسـائل أن اختلاف الأديان ناشـئ من أسباب موضوعية يعدون منها اختلاف الأبدان والطبـاع والمنـاخ والنجوم، وأن الرسـل جميعاً يحملـون دعوة واحدة للفضيلـة الخير وتختلف الشرائع بين عصر وعصر وأمة وأمة ودين ودين: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً.

فدين الأنبياء دين واحد، ومسـلكهم جميعاً مسـلك واحـد، ومقصدهم مقصد واحد وغرض واحد، وإن اختلفت شرائعهم، صلوات الله عليهم. (٢)

(١) مجموعة من المؤلفين، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج٢ ص٦٦ دار مؤسسة الأعلمي بيروت.

البيروني

الاسم الكامل	أبو الريحان محمد بن أحمد	
ألقاب مشهورة	بطليموس العرب	كان يتحدث ثمان لغات
التاريخ	٣٦٢-٤٤٠هـ	٩٧٣-١٠٤٨ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد في الري ورحل على الهند وتُوفي في جرجان بإيران	
أهم الكتب التي ألفها	الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة، الجماهر في معرفة الجواهر، القانون المسعودي	
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثر بهم	أولاد موسى بن شاكر	
أهم من تأثروا به	ابن سينا – ابن النفيس – ابن الهيثم	

أهم ما ألف عنهم	
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الدعوة إلى الحياد في البحث العلمي • الكشف عن عقائد الهندوس في الإيمان وتصحيح الأوهام حولهم • تأكيد الحاجة لاختلاف الشرائع
مواقع بنيت باسمه	عشرات الجامعات والمشافي ومراكز البحث والشوارع سميت باسم البيروني
أفلام عنه	تم أنتاج فيلم عن حياة البيروني في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٤، كما تم إطلاق اسمه على إحدى الفوهات البركانية على سطح القمر، وعلى الكويكب 9936 **Al- Biruni**.

البيروني
إخاء الأديان وكرامة الإنسان

أبو الريحان البيروني ٣٦٢-٤٤٤ هجرية كان أبرز علماء الدولة الغزنوية، التي سيطرت على الخلافة العباسية، كان يتقن سبع لغات، وهو أول من شرح دوران الأرض حول محورها، ويعتبر من أعظم العقول عبر التاريخ.

ولو كتبت عن البيروني كعالم فلك وكيمياء وجغرافيا لما اعترض أحد فالرجل محل إعجاب الجميع بعقله ووعيه وبحثه الموضوعي، وقد اختارته وكالة ناسا ليكون اسماً لكوكب جديد، كما أطلقوا اسمه على موضع بركان في القمر، فبات في تاريخ العلم في العالم أشهر من نار على قمر.

ولكنني أتحدث عن الإمام البيروني كواحد من أعظم علماء العقيدة في الإسلام، وهو أستاذنا

وإمامنا في إخاء الأديان، فأولئك الذين يملكون أسرار العلم أولى الناس بمعرفة أسرار الدين، والفائض الحضاري ينتج فائضاً إنسانياً، وهو أحد الرائعين الذين قدموا لنا عقيدة التوحيد في وفاق مع الأديان والملل، وسبقوا عصورهم وزمانهم، ونزهوا الخالق سبحانه عن العبث والظلم وظن الجاهلية تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

أما الجانب الأهم من حياته فهو موقفه من أديان الهند، فقد كلفه السلطان محمود الغزنوي أن يزور الهند ويتعرف إلى فلسفتها، وبعد سنوات عديدة أمضاها في الهند تعلم فيها اللغة السنسكريتية، كتب رؤيته في أديان الهند في كتاب خاص بعنوان تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة... وكان مدهشاً أنه أكد أن الأصل في العقيدة الهندوسية التوحيد، وأن المثقفين منهم لا يعرفون خالقاً ولا رازقاً إلا الله، وأن جوهر فلسفة الهند هي الإيمان، وأكد أن الاعتقاد لدى حكماء الديانة الهندوسية يتجه إلى التوحيد، فيما يرتع العامة بالتعدد والشرك وعبادة الأيقونات!

ومن النصوص السنسكريتية أدهش البيروني العالم بالكشف عن التوحيد في عقيدة الهندوس، عرفاناً صوفياً خالصاً، الله طاهر، وغير متجسد، ولا صورة له، وهو واحد أحد لا ثاني له، ولا يمكن رؤيته ولا تجسيده وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

وأشار البيروني إلى أن حكماء الهند يقفون بجلال وهيبة أمام حضرة الله تعالى، ويسمونه البراهما، ولا يقدمون له أي وصف أو تمثال، ويقولون نحن أقل من أن نتوجه إليه وهو أكبر من أن يصغي إلينا، والعجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك.

ومن المؤسف أن أجدادنا في العصر الحضاري الإسلامي استطاعوا أن يفهموا فلسفة الهند وحكمتها بهذه الروح الحضارية فيما نجهل اليوم عميق الحكمة الهندية ولا يعدو خطابنا فيهم حد الشتائم والظنون وأنهم محض عباد بقر!

والهندوسية ليست ديناً واحداً بل هي أديان كثيرة، وبخلاف ما تعلمناه وعلمناه...فإن الهندوس في الأَصل أهل توحيد ومعرفة بالله.. وإيمانهم بالله تعالى عظيم، ومكان الفطرة فيهم لا يزال عميقاً ومتيناً، خاصة بين حكمائهم وعلمائهم، وهم يبالغون في تنزيه الله تعالى حتى يقولون بالضبط: كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، ويقولون بالضبط: العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك.

ويعتقدون أنه الواحد الأزلي، الأول من غير ابتداء والآخر من غير انتهاء، والمختار في فعله القادر الحكيم المدبر، المنفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لذلك فهم يعظمون الخالق

ويعترفون بالعجز عن فهمه.

ويرون أن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله.

ويسمونه البراهما، ويرون أن الخالق له أسماء كثيرة أكثر من ورق الشجر وأكثر من زبد البحر وأكثر من قطر المطر... وأن لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، ويصفونه بأنه رب الأرباب وإله الآلهة وأحسن الخالقين.

هذا بالضبط ما يمكن فهمه من نصوص الفيدا المقدسة التي تتحدث عن أصل العقيدة.

وفي عبارة دقيقة يكتب البيروني شارحاً المعتقدات الهندوسية بقوله: «واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء». (١)

وفيما يلي نصوص من الفيدات والأوبانيشادات في وصف الخالق، الإله الأعلى

- لا صورة له. [yajurveda ، ٣٢ الآية ٣]
- هو طاهر وغير متجسد. [yajurveda ، ٤٠/ ٨]
- اهدنا الصراط القويم واغفر الذنوب التي تجعلنا نضل ونضيع. [yajurveda ، ٤٠/ ١٦]
- أيها الأصدقاء لا تعبدوا سواه، القدوس، ادعوه هو وحده. [Rigveda ، ٨/ ١]
- واحد أحد لا ثاني له. [Chandogya ، ٦/ ٢]
- لا والدين له ولا سيد فوقه. [Shvetashvatara، ٦/ ٩]
- لا يمكن رؤيته ولا تجسيده. (٢) [Shvetashvatara، ٤/ ٩]

ثم ينقل البيروني صفة الله عندهم عن كتاب من كتبهم يسميه باتنجل: «وهو وإن غاب عن الحواسّ فلم تدركه فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هي عبادته الخالصة وبالمواظبة عليها ينال السعادة؛ فهذا كلامهم في هذا الكتاب المشهور». (٣)

ولكن اعتقاد التوحيد تغير مع الأيام، ودفعتهم التصورات الحرفية للنصوص إلى تصور طبقات من الآلهة تحت الإله الكبير.. ويبدؤون من تصور الإله الكبير براهما والآلهة الصغيرة فشنا وسيفو وغيرها.

والحقيقة أن وعيهم بهذه الكائنات يطابق وعي المسلمين بفئة الملائكة فهم جنود الله وأعوانه

(١) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ج١ ص ٢٢ .
(٢) قمنا بتحديد النصوص من مصدرها الأصلي في الفيدات الهندوسية باللغة الإنكليزية وأشرنا إلى مواضع ورودها.
(٣) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند، ج١ ص٢١ طبع عالم الكتب.

وهنـاك مـلاك الرعد وآخر للمطر وثالـث للموت ورابع النفخ في الصور ولكن من المؤسـف أن لغتهم تترجم هذه الفئة من المخلوقات إلى آلهة وليس كملائكة.

ويتعلقـون بكائنات من الطبيعة يحبونها ويعظمونها، ويعبدهـا جهالهم، ويرون أنها قريبة من الله تعالى، ويؤلفون في ذلك الحكايات والأساطير.

أمـا البقرة فقد دعاهم حكماؤهم لإجلالها واحترامهـا لأن الهند مجتمع زراعي والبيت الذي فيـه بقـرة لا يجـوع ولا يعطـل، ولا يوجد عاقل فـي الدنيا يعتقـد أن البقرة تخلق وتـرزق وتحيي وتميت.. وليست هذه قطعاً عقيدة الهنود.

على كل حال أنصح قبل الرد بقراءة ما كتبه عن عقيدتهم كل من العلماء المسلمين الراسخين فـي العلم: البيرونـي في كتابه: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فـي العقل أو مردولة، وقد قرأها بأصولهـا السنسـكريتية وخاصـة بهاغوت غيتـا والمهاباهاراتـا وبهاغها فاديتا، وبعـض عباراتي منقول بالحرف من كتابه، وشـمس الدين المقدسـي في كتابه أحسـن التقاسيم في معرفة الأقاليم وقد نقل ١٧ نصاً عنهم في التوحيد.

أما ما قدمه ابن النديم والشهرسـتاني والمسـعودي في مروج الذهب فهو لا يتجاوز الانطباع الشعبي العام دون الدخول في المنهج الموضوعي القائم على دراسة نصوصهم وتعليلها.

وتحـدث البيرونـي ببالغ الاحترام عن الصابئة الحرانية، وقال فـي كتابه الآثار الباقية في الأمم الخالية،: الصابئة أناس يوحدّون الله وينزهونه عن القبائح، كقولهم: لا يحد، ولا يُرى، ولا يظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً.

وأفرد في كتابه تفسـيراً مختلفاً لعقيدة النصارى في الأب والولد، وتحدث عن أثر اللغات في تغير المصطلح وأن الأبوة هنا أبو الكل: أصعد إلى أبي وأبيكم ..وأظهر إنصافاً غير معتاد أبداً في حوار الأديان في تلك المرحلة من التاريخ.

وبمثل هذا تحدث عن الديانة الزرداشـتية والبوذية واليهودية، وكان مدهشـاً في روايته لأقوال الأديان بكل احترام، فكان يظهر أجمل ما في هذه الأديان ويلتمس لأصحابها المعاذير، في حيادية مدهشة لم يكن العالم يعرفها آنذاك.

كان أبو الريحان يرى أن الأديان كلها تدل على الله، ولله المشـرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، وأن على الأديان أن تدرك أنها صادرة من ذات واحدة، وأن على أتباعها أن يتعاونوا في القضاء على الفقر والتسـول والمرض والظلم، وأنه يجب وقف التبشير القائم على تسخيف دين الآخرين، وتشويه أنبيائهم.

لقد ألزم البيروني نفسه أن لا يُقحم نفسه في خطاب حجاجيّ يقوم أساساً على مجموعة من الثنائيات من قبيل التقبيح والتزيين والحمد والذمّ والتصويب والتخطيء.. وأكد أن ذلك شأن الانفعاليين وليس شأن العلماء الموضوعيين.

لقد تحدث عن الأديان باحترام بالغ، واعتبرها إلهية المصدر، وأكد دور الإنسان في تطورها واستكمالها، ورسم صورة جميلة للمانوية واليهودية والهندوسية، وهذا قدر من الأنصاف لا تعرفه الأمم التي ظلت تتقاتل بعد البيروني ألف عام لإثبات صحة عقائدها.

نحاول أن نبني الوعي وأن نقول للناس أن العالم بيت الجميع، وأن علينا أن نعيد تصوراتنا عن الناس، وعلى الأقل أن نسن بهم سنة أهل الكتاب.

يجب أن ينتهي هذا الجنون... أليس عاراً أن يقول رجال الدين باسم مليار إنسان عن مليار آخر بأنهم مجانين يعبدون البقر، فيجيبهم مليار آخر بل أنتم مجانين تعبدون الحجر!

سأل المروزي أحد كهنة الهندوس: «إذا كنتم تعلمون أنه أي الله ليس كمثله شيء، فلم تعبدون الأصنام من دونه؟ فأجابه البراهمي:إنه قبلتنا ... كما أن قبلتكم حجارة مبنية. يقصد الكعبة أفأنتم تعبدونها؟.

حين تقرأ عبارات البيروني في الأمم والأديان تسمع في ثنايا خطابه: أمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، ونبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، ودين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان.

ابن حزم

	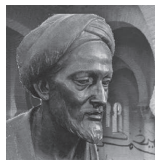	
الاسم الكامل	علي بن أحمد بن حزم القرطبي الأندلسي	
ألقاب مشهورة	إمام الظاهرية	
التاريخ	٣٨٤-٤٥٦هـ	٩٩٤-١٠٦٤م
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في الأندلس وعمل كأبيه وزيراً لأبناء المنصور بن أبي عامر، وأمضى آخر حياته في قرية أبيه في بيت منشم وفيها فرض عليه المعتمد بن عباد الإقامة الجبرية	
أهم الكتب التي ألفها		
أهم ما ألف عنه		

أهم قضايا نادى بها	• إلغاء القياس وفتح فضاء الاجتهاد • القول بإباحة وفضل الغناء والموسيقا والفنون • فضل الحب والشوق والمودة • الدفاع عن منزلة المرأة وحقوقها وحريتها • التأكيد على النسخ في القرآن والسنة
مساجد بنيت باسمه	قامت عدة مدارس ودور نشر ومراكز بحث علمي تحت اسم ابن حزم

ابن حزم الأندلسي.... الفقيه العاشق..... المجتهد الحر

ابن حزم.. ٩٩٦-١٠٦٤ فخر الحضارة الإسلامية في الأندلس.

تعتبره إسبانيا اليوم واحداً من أعظم علماء أوروبا عبر التاريخ، وقد أقامت له احتفالات كبيرة في الذكرى الألفية لميلاده وخلدته بطوابع البريد ومتاحفها وجامعاتها.

ولعلك تقول على الفور: كيف تصنف ابن حزم من أعلام التنوير في الإسلام، والرجل هو مؤسس مدرسة ظاهر النص؟

في الواقع كان موقف ابن حزم من النص مختلفاً للغاية عن موقف الظاهرية اليوم، لقد كان ببساطة يرى أن للنص دلالة ظاهرة يجب اتباعها بدون تأويل، ولكن النصوص في معظمها محكومة بأسبابها، وهي تتناول جزءاً صغيراً من الحياة، فيما تبقى أحكام الحياة على الإباحة الأصلية، وهو مذهب الاستصحاب، أما القياس على النص القرآني والسنة وإعادة استخراج الأحكام منهما لكل زمان وكل مكان فهو لون من العبث، وفي رد ماحق على منهج عبادة النص قال ابن حزم: القياس منهج إبليس إذ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين!

فالنص محكوم بظروفه وزمانه ومكانه ولا ينبغي التوسع فيه، ولا تحميله ما لا يطاق، والمطلوب فيما يستجد من مسائل إعمال نور العقل وليس ليّ أعناق النصوص لاستخراج الإعجاز والعجائب.

وحين تناول النص القرآني بالتفسير جزم بأن ٢٢٧ آية فيه هي من قبيل المنسوخ، نرتلها ولا

نطبقها، لأنها قد نزلت لظروف مختلفة ولم تعد موجودة فيما بعد، وبعضها نسخه القرآن وبعضها السنة وبعضها الإجماع.

أنقل عنه هذا مع تحفظي الكبير على نسخ آيات الرحمة بآيات السيف، وقناعتي أن العكس هو الصحيح.

وفي الواقع فإن ابن حزم ظاهرة محيرة، فهو بالإجماع من أوسع الناس علما وأغزرهم قلما وأكثرهم إحاطة، وهو قدر يتفق عليه محبوه وشانئوه على السواء.

ولكن تكمن فرادته من وجهة نظري في وعيه المتوازن بالقرآن الكريم، فهو لا يشارك عموم الناس النظرة الإطلاقية أن النص فيه جواب كل زمان ومكان، بل هو يقيده بظروفه وقيوده اللغوية، وبالفعل تكرر منه أن النهي الوارد في القرآن هو عن قول أف، ولا يوجد شيء بشأن الضرب ... وهو موقف على غرابته واستهجانه يوضح مذهبه بدقة، وكانه يقول: لا تحملوا النص ما لا يحتمل ولا تخترعوا عجائب ضامرة فيه لم تكن في وارد منزله ولا مبلغه، ولا يعني ذلك أبداً أنه يبيح ضرب الوالدين أو يستسلهما.... أبداً... بل يعتبر ذلك دليلاً عقلياً واجتماعياً محضاً.

ويظهر عمق ابن حزم ووعيه في هذه النظرة تحديداً، ومقتضاها أن كثيراً من شأن الدنيا لم يفصله قرآن ولا سنة... ولا حرج.. فهذه ليست نقطة ضعف بل نقطة قوة.. لأمة تريد أن تبني الحضارة الإنسانية ولا سبيل لها في الحكم على الأشياء والأحداث إلا النظر والحوار والدراسات الاجتماعية الموضوعية.

كان وزيراً وابن وزير، وكان صاحب ثروة طائلة، كان أبوه وزيراً للحاجب المنصور بن أبي عامر أقوى حكام الأندلس، أما هو فقد ولي الوزارة ثلاث مرات، وكان مستقبله وراءه حين خاض حروبه الضارية ضد الكهنوت، فترك الوزارات كلها، وأطلق قلمه الشارط في مواجهة سدنة الوهم من رجال الدين الذين حنطهم الناس واعتبروهم أئمة معصومين، فيما رآهم ابن حزم مجرد فقهاء يصيبون ويخطؤون، وليس هناك أي فائدة في اتباع أحد منهم، بل أن الاتباع يكون لنور العقل وبصيرة الوحي.

هو أغزر علماء الإسلام تأليفاً وأكثرهم آثاراً، ومع أن السيوطي يزيد في عدد الكتب عن ابن حزم، ولكن ابن حزم تجاوز الجميع في الكتب الأصيلة التي ظهر فيها علمه واجتهاده.

حين يريد الفقهاء اليوم أن يجتهدوا في مسألة فيجب أن يسألوا أولاً ابن حزم، لأنهم سيجدون يقيناً ما يبحثون عنه، وبإمكانك اليوم أن تقول في أي مسألة: هذا قول الجمهور، أما ابن حزم فله رأي آخر.

ومما انفرد ابن حزم بتأصيله مسألة الغناء والموسيقا والمعازف، فقد فتح الباب إلى الغاية لفن إسلامي راقٍ تستعمل فيه المعازف، وقد كتب هازئاً بشدة من الذين يحمّلون القرآن ما لا يحمل من النهي عن الغناء، وخاصة في آية من يشتري لهو الحديث، ثم أورد النصوص الاثني عشر التي يرويها المشايخ في تحريم الغناء والموسيقى والفن فسحقها جميعاً بآلته الأصولية الحادة، وحين كانوا يحرمون الغناء والتصوير والفنون والموسيقا كان يقول مستهجناً ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب... وما كان ربك نسياً.

وحين انتهى من تحرير دراسته نشرها في المحلى في واحد وعشرين صفحة استقصى فيها بالتفصيل الممل كل رواية وردت في تحريم الموسيقى والغناء، وجزم بآلة علم الاصطلاح التقليدية بطلأن هذه الروايات، وأشار إلى ضعفها وتهافتها من جهة الإسناد، وأكد أن معظمها من باب الموضوع المفترى الذي لا تقوم به حجة في حلال ولا حرام. وقبل أن يمضي لإعداد كتابه الجميل طوق الحمامة في أخبار الإلف والإيلاف، كتب عبارته الجامعة المانعة فيما يتصل بالفنون، وهي فتوى لا تحتاج اليوم لأدنى تعديل نظراً لارتباطها بالمقاصد، وتحميل الإنسان المسؤولية الكاملة عن اختياره الفني، وموقفه الذوقي الجمالي، وهذا نصها:

فجوابنا – وبالله – تعالى – التوفيق –: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» فمن نوى باستماع الغناء عونا على معصية الله – تعالى – فهو فاسق، وكذلك كل شيء غير الغناء، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله – عز وجل – وينشط نفسه بذلك على البر فهو مطيع محسن، وفعله هذا من الحق، ومن لم ينو طاعة ولا معصية، فهو لغو معفو عنه كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها، وقعوده على باب داره متفرجا وصباغه ثوبه لازورديا أو أخضر أو غير ذلك، ومد ساقه وقبضها وسائر أفعاله – فبطل كل ما شغبوا به بطلانا متيقنا – ولله – تعالى – الحمد؛ وما نعلم لهم شبهة غير ما ذكرنا ».

والنص بطوله في كتابه المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار، ولا نزيد عليه في أمر المناقشة الإسنادية شيئاً.

وحين استوفى بحثه في فضل الغناء والمعازف أطلق كتابه التالي طوق الحمامة في الإلف والإيلاف، وهو كتاب من روائع الأدب العالمي، وقد ترجم إلى لغات كثيرة، يسجل فيه ابن حزم أخبار المحبين والعاشقين والوالهين، ويكشف عن قدسية الحب وطهارته ونبله، وعذابه ونعيمه، وآهاته ومواجعه، وما يكون فيه من عجائب، ومع أن حكاياته متنوعة ومختلفة، ولكنه أراد بالتأكيد الحب الذي ينتهي بما شرع الله من فراش الحلال.

شـن عليـه الفقهـاء خلال التاريـخ هجوماً مسـتمراً، ولكنهم فـي النهاية رجعوا إليـه في دقيق المسائل.

هـو مرجع الفقهاء اليوم في إصلاح الطلاق وتحويله من عبث وعصبية وانتقام يقوم به الرجل حال الغضب إلى عقد قانوني بصير يتم أمام القاضي وتترتب عليه آثار وحقوق محمية وظاهرة.

وهـو مرجـع الفقهاء اليـوم في فرض الوصيـة الواجبة التـي أضافها الفقهاء زيـادة على ما في القـرآن والسـنة مـن أحكام الميـراث وأنصفوا فيهـا الأحفاد الأيتـام حين يموت الجـد، فيما ظل الفقهاء يحرمون الأحفاد الأيتام من الميراث تمسكاً بلقياس على النص.

وهـو مرجـع الفقهاء اليوم فـي تحرير المرأة وتمكينهـا، وتوليها المناصب كلهـا بما في ذلك رئاسة الدولة والقضاء كله، وعبارته في ذلك أوسع ما قاله فقيه: إن الله اصطفاها وشرفها فكانت نبيـة!! فكيـف تزعمـون أنها لا تصلح للولاية؟، ومـع ذلك تحفظ على منصـب الخلافة العظمى لارتباطها بالصلاة والجهاد.

وهو مرجع الفقهاء اليوم في مسـألة التصاوير والتماثيل والفنون عامة، فالرجل أندلسـي، وقد نجـح في أنسـنة الفقه الإسـلامي، وتقديمـه كتراث غني في حضـارة الأندلس، وبديـلاً عن روح الرهبنة وتعذيب النفس التي كانت طبيعة الكنيسة الأوروبية في العصور الوسطى.

لم يسـلم ابن حزم من التكفير، وحين دارت طاحونة السياسـية، وأعلن موقفاً معارضاً لخلافة المعتضـد بـن عباد في إشـبيلية أمر المعتضـد بإحراق كتبه وفـرض عليه الإقامـة الجبرية وأطلق الدهماء يكفرونه ويشتمونه على سكك الطرق، وقد كتب الشعر في مأساته تلك، ومما قال فيها:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يقيم معي حيث استقلت ركائبي وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

تناوله بالثناء والاحترام فقهاء كثير خلال التاريخ، كما تناوله آخرون بالقدح والاتهام والتكفير أيضاً، وقد اشـتد في الهجوم عليه القاضي ابن العربي والتاج السـبكي، ولم يقصر ابن تيمية مع أنه أنصفه في بعض مواقفه.

ونحن ندرس حياة هؤلاء الرجال تأكيداً لاحترامهم وبيان عطاءاتهم، والاستفادة من علمهم، ولـم نزعـم أننا على منهجهم ولا أنهم علـى منهجنا.... الرجل إمام فريد في موسـوعيته وعلمه، وفي اجتهاده الحر.

ولكنـه بالطبـع لا يؤيدنا في إخاء الأديان، وكيف لرجل يعمـل مع الحاجب المنصور أن يؤيد هذا، وكتابه في الملل والنحل شاهد على ذلك .

لـم ننسـب إليه ما ليس فيـه، ولكن نعتبره إماماً فـي الاحتهاد الحر القائم علـى مصلحة الأمة، وأستاذاً في مرونة القول بالنسخ في الكتاب والسنة.

ومن الغريب أن نورد ابن حزم في أئمة التنوير، وهو أشد الناس في التزام ظاهر النص.

صحيح ولكنه يحترم النص ولا يعبده، ويقف به عند ظاهر عبارته، ولا يقيس عليه شأن الأولين والآخرين... بل يفتح باب العلم والعقل إلى الغاية.

لقـد أنقـذ صفاءنا الروحـي بمذهبه في تشـجيع الفن، وأيقـظ ذهننا العقلي بمذهبـه في أنكار القياس.. وهذا يكفي.

الـكلام عن ابن حزم طويل وكثير، ومؤلفاته تعد بالمئات، ولعل الحوارات تغني معرفتنا بهذا الإمـام الفريـد، وأعتبره إمامـاً رائعاً في كثير من مسـائل الفقه، وأخالفه بالطبع فـي كثير، وأعتبره رمزاً متقدماً لفقهاء العقل والنظر، الذين ينظرون إلى القرآن والسنة على أنه نور يهدي وليس قيداً يأسر.

ابن طفيل

الاسم الكامل	أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي	
ألقاب مشهورة	فيلسوف وطبيب وشاعر	
التاريخ	٥٠٥-٥٨١ هـ	١١١٠-١١٨٥ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في وادي آش بالأندلس، وتولى الوزارة للسلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، ثم عهد بها من بعده لتلميذه ابن رشد، وظهر نبوغه بالأندلس طبيباً وفيلسوفاً، وعُرف أيضاً شاعراً مجيداً، وارتحل إلى المغرب ومات بمراكش.	
أهم الكتب التي ألفها	حي بن يقظان ـ مراجعات بين ابن رشد وابن طفيل، وأرجوزة في الطب	
أهم ما ألف عنه		

أهم من تأثر بهم	أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة
أهم من تأثروا به	أبو إسحق البطروجي، ابن النفيس، ابن رشد، توماس هوبز، جون لوك، دانييل ديفو، إسحاق نيوتن، إيمانويل كانت، غوتفريد لايبنتس، فولتير،جورج كيث وروبرت باركلي، وسيمون أوكلي
أهم قضايا نادى بها	• الثقة بالعقل وقدرته على اكتشاف الحقائق. • الثقة بالإنسان والتأكيد على اتحاد الفطرة في جميع الخلق. • تأكيد ضرورة الأنبياء للعامة والفلاسفة للخاصة. • التأكيد على تطابق العقل والدين في الرؤية والمقاصد والغايات.
مساجد بُنيت باسمه	هناك عشرات من الجامعات والمدارس والمشافي والشوارع بُنيت باسم ابن طفيل
أفلام عنه	تم إنتاج أكثر من فيلم عن فكرة ابن طفيل منها ماوكلي وروبنسون كروزو وحي بن يقظان

هو محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي ١١١٠-١١٨٥م فيلسوف أندلسي، شهد ذروة العصر الموحدي في الأندلس، وكان وزيراً ليوسف بن عبد المؤمن الموحدي وحقق سبقاً واضحاً بين الفلاسفة والأطباء وعلماء الفلك والفلسفة والأدب في الأندلس.

وعلى الرغم من اشتهاره كشاعر مجيد ولكن فلسفته طغت على شعره فلا يكاد يذكر إلا فيلسوفاً، ومن أشهر قصائده القصيدة الشهيرة التي حشد فيها العرب في الأندلس لنصرة الموحدين، ومطلعها:

ألا فابعثوها همة عربية تحف بأطراف القنا والقواضب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

وأهـم مـا وصل إلينـا من أعمال ابن طفيل هو رائعته الفلسـفية حي بـن يقظان، ومع ذلك فقـد نقـل لـه ابن أبـي أصيبعة اسـم كتاب فـي الطب كما نقـل له لسـان الدين بـن الخطيب أرجوزة في الطب، وأشـار ابن رشـد إلى كتاب له في الفلك أيضاً بعنوان شرح الآثار العلوية لأرسطوطاليس.

وقد ركز ابن طفيل فلسـفته في روايته الشـهيرة حي بن يقظان، التي اقتبسها كما يقول عن ابن سينا وسماها الحكمة المشرقية.

وتحمل رواية حي بن يقظان مضامين فلسفية عميقة، وقد تمت ترجمتها بصيغ كثيرة إلى لغات مختلفة، وخلاصتها أن طفلاً ولدته أميرة محترمة على وجه مشروع في دينهم، ولكنها خافت الافتضاح فألقتـه في صندوق في البحر، فساقته مياه البحر وأمواجه إلى جزيرة خالية، معتدلـة الهواء طيبة الثمر عذبة الماء، فلما وقع بشـاطئها بكى فأغاثتـه ظبية فقدت رضيعها، ومـا زال يرضع من ثديها حتى حبا ومشـى ونشـأ وحيـداً في الجزيرة، وبعـد تفاصيل موحية ينتهـي الأمر بحيّ إلى التأمل والإشـراق والعرفان، فيصل بتأملـه ونظره إلى الحقائق الكبرى فـي الوجود ومنها التوحيـد والمعاد والعدل، وغيرها من الحقائق التـي يدركها العقلاء بنور العقل والفطرة دون الحاجة لنبي أو كتاب.

وتضيف الرواية فصلاً آخر حيث وصل إلى الجزيرة إياها فتى يُقال له أبسـال كان قد آمن بالوحي الذي جاء به نبي ذلك الزمان، وكان له قرين اسمه سلامان، ولكنهما اختلفا حيث مال سـلامان إلى ظاهر النص فيما مال أبسـال إلى التأمل والعرفان، واشتد ميل أبسال إلى العبادة والزهادة، فانصرف ليعتزل الخلق في العبادة والتأمل فوصل إلى جزيرة حي بن يقظان، وكان أول لقاء لحي بإنسان مثله، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين وهو لا يتقن اللغات ولا الكلام ولـم يسـمع بنبوة ولا وحي ولا كتاب، وبعد أن اسـتأنس حي بالوافـد الجديد على الجزيرة، راح أبسـال يحدثـه بأمر الوحي وراح حيٌّ يحدثـه بأمر العقل، وكانـت المفاجأة أن الرجلين تطابقاً فكراً ومنهجاً فقد بدا لحي أن كل ما أخبر به أبسال من أمر الوحي قد هداه إليه العقل، وبدا لأبسال أن كل ما أخبر به حي قد دل عليه الوحي.

ومـراد ابـن طفيـل أن يقول بوضـوح إن كليـات الإيمان يمكـن بلوغها عن طـرق التأمل المحـض، وأن اختـلاف الناس فـي بعض تفاصيلها هـو اختلاف مرصد وزاويـة رؤية، وهو اختـلاف رتبـة وليـس اختلاف نوع، وبـات المنهج الذي يبشـر به ابن طفيل كما سـماه جان لوك منهج الصفحة البيضاء وفيه أن الإنسـان قادر أن يبلغ المعارف العليا والحقائق الفاضلة

بالتأمل والنظر.

وتنطلق مساهمة ابن طفيل في رسم صورة مختلفة للدين من الصفحة البيضاء للذات التي يملؤها الوحي أو العقل بالحكمة والنور، وأن الناس في اختلافهم مأجورون مبرورون لأنهم يبتغون الوصول إلى الحق، وقد يبلغونه أو يضلون عن بعض تفاصيله، وأن الرسوم والشعائر والمظاهر والكعبة والمشعر والحجر والأيقونات ضرورية لربط العامة بحقائق التوحيد التي لا تدرك إلا بتأمل عميق يختص بالحكماء ولا يدركه العامة.

ويمكن القول إن الأساس الفلسفي لهذه القصة هو بيان الطريق الذي كان عليه فلاسفة المسلمين من تطابق العقل والنقل، وإمكان الوصول إلى مشترك عرفاني بين الأديان لتأكيد القيم العليا للدين من التوحيد والعقل والنبوة والمعاد.

كما أضافت الرواية بعد ذلك فصلاً آخر عن عودة الرجلين إلى المدينة، بعد شهور من التأمل والنظر والحوار المشترك، وأراد أبسال أن يعرّف أهل المدينة وفيهم رسولها فضل هذا العارف المتأله، وقد استقبلهم الناس بفرح وحبور، ورأوا في الرجل آية من آيات الله، ولكنهم بعد فترة بدؤوا في الاعتراض على منهجه العقلي، واستغنائه عن الشرائع فتم تكفيره وتكفير صاحبه أبسال، هموا بقتلهما حتى اضطر الرجلان إلى الخروج من المدينة.

وقد قصد ابن طفيل ان يشير بوضوح أن تطابق الاعتقاد لا يعني تطابق الممارسة، وأن الناس تتفاوت طباعاً وشمائل، ومن الطبيعي تماماً أن يكون للمعرفة أكثر من سبيل، وأكثر من دليل، وأن يتاح للناس التعرف على الله عبر مشارب شتى، وهو التعبير الذي قررته الصوفية: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

وقد تأثر كثير من فلاسفة عصر الأنوار بفكرة حي بن يقظان وإيقاظ الإنسان الجواني للوصول إلى درك الحقائق وممن أشار إلى تأثره المباشر بحي بن يقظان جون لوك وديفيد هيوم وبيركلي، وهناك عشرات الإشارات إلى القصة في الأدب الفلسفي الأوروبي في عصر الأنوار وما بعده.

ولعل أوضح الإشارات المباشرة لهذه الرواية في الأدب الأوروبي كتاب إدوارد بوكوك ١٦٧١م بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه، وكانت دراسة بوكوك هي منطلق اهتمام الفلاسفة الأوروبيين بالرواية ومقاصدها الفلسفية العميقة، وفي هذا السياق يمكننا قراءة رواية جان جاك روسو عقيدة قس من جبل سافوا وكذلك رواية ربونسون كروزو للكاتب دانييل ديفو وماوكلي فتى الأدغال، وكلها تشتمل على محاولات للوصول إلى المعرفة دون

أي تأثير تلقيني، ومن خلالها يمكن تلخيص المشترك بين الأديان من القيم المدركة بالعقل والتأمل والعرفان.

ومن الواضح أن ابن طفيل كان لا يرى في الأديان إلا نسقاً معرفياً متوازياً، فلم يشغله خلاف الأديان وتنابذ أتباعها بل اعتبر أن الغاية التي تبشر بها الأديان واحدة، وأنه لا مبرر ولا معنى لانقسام الناس واختلافهم حول حقائقها المتقاربة، وأن التشابه كبير بين النقل والعقل، وبين الوحي والنظر، وهو ما يخدم في النهاية مبدأ إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ابن رشد

الاسم الكامل	أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد	
ألقاب مشهورة	المعلم الثاني	قاضي قرطبة
التاريخ	٥٢٠-٥٩٥ هـ	١١٢٦-١١٩٨ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد في قرطبة وارتحل إلى أشبيلية ثم مراكش وتُوفي فيها ثم نقل إلى قرطبة ودفن فيها	
أهم ما ألف عنه	صدر عنه مئات الكتب بمختلف اللغات 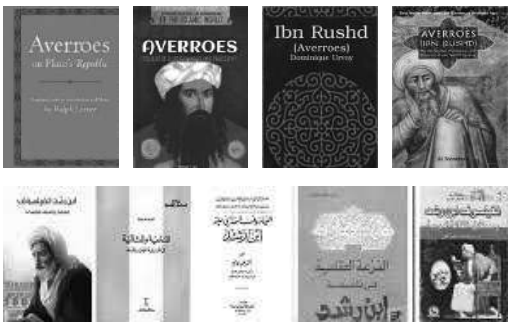	
أهم من تأثر بهم	أفلاطون، أرسطو، أفلوطين، الإمام مالك، ابن باجة، ابن زهر، ابن طفيل، الفارابي، ابن سينا	

أهم من تأثروا به	ابن خلدون، رينيه ديكارت، توما الأكويني، دانتي أليغييري، جوردانو برونو، جاويد جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا، سيجير برابانت، تشيزاري سريمونيني
أهم قضايا نادى بها	• تقديم العقل واحترام النقل • حق الأمة في تطوير الشريعة • إخاء الأديان وكرامة الإنسان • قدم العالم واستيعاب الإيمان لمقولات الفلاسفة
أفلام عنه	أنجز المخرج يوسف شاهين فيلم المصير حول ابن رشد.
الضريح	في قرطبة في مقبرة أسرته، وهذه اللوحة عند تمثاله في قرطبة

ابن رشد ..... الفقيه العلماني

أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد ١١٢٦-١١٩٨م واحد من أكبر علماء الإسلام خلال التاريخ، ومن المدهش أنه إمام فقهي كبير وفيلسوف نقدي كبير، وقد كنت أظن خلال دراستي الشرعية أن ابن رشد الفقيه هو شخص آخر غير ابن رشد الفيلسوف، وعرفت بعد ذلك أن الفقيه المالكي الهائل الذي كتب بداية المجتهد ونهاية المقتصد هو نفسه الذي انعطف نحو الفلسفة وصار أشهر فلاسفة الإسلام.

بالطبع يتعين أن نشير إلى أن ابن رشد عُرف باسم ابن رشد الحفيد، أما ابن رشد الجد فهو جدّه وهو فقيه مالكي متخصص، ليس له دور فلسفي.

ومع أن ابن رشد حاضر في كل ملفات النهضة في التاريخ الإسلامي والأوروبي، ولكننا

معنيون هنا بدوره في التنوير الديني وإخاء الأديان والفلسفة، فقد حظي ابن رشد بتأييد كبير من المسلمين والمسيحيين واليهود، كما اتهمه فيما بعد متشددون قساة بالتكفير في الإسلام والهرطقة في المسيحية واليهودية.

ويمكننا أن نسجل لابن رشد اعتراضه الشديد على الغزالي في كتابه الشهير تهافت الفلاسفة، فقد كتب الغزالي كتابه على أساس امتلاك الحقيقة المطلقة، ومضى يزج كل حكماء التاريخ في سبيل الجهالة والضلال ابتداء من أرسطو وأفلاطون وسقراط وصولاً إلى أئمة الإسلام ابن سينا والفارابي والكندي، وقد صنف ذلك في كتابه تهافت الفلاسفة.

وإذا ضممنا إلى كتابه ذاك كتابه فضائح الباطنية فإن عدداً كبيراً من فرق الإسلام أيضاً سنجدها في الفرق الضالة والهالكة، وقد صدر عنه في كتابه فتاوى في غاية الطيش والتهور والدموية، تأمر بقتل طوائف بحالها كالدروز والاسماعيلية ولو لم يظهر منهم أي عدوان أو إساءة.

لا شك أن هذا الموقف استفز الفقيه الكبير ابن رشد خاصة أن الفقيه الغزالي من المتصوفة ويفترض أنهم يتحلون بقبول كبير للناس، ويدركون حكمة الله في اختلاف الأفكار والمذاهب والأديان، وقد دفعه ذلك لتحرير كتابه الشهير تهافت التهافت.

في كتابه تهافت التهافت عمد ابن رشد إلى التعريف بأئمة الفكر والحكمة من الإغريق والمسلمين ووقف على طرق استدلالهم وطرقهم إلى الحقائق الكونية سواء تحدثوا عن الله أو الهيولى أو العلة الأولة أو واجب الوجود أو الحكمة أو الذات العلية أو الاتحاد أو الحلول أو غير ذلك من مصطلحات الفلاسفة والأديان واختار دون تردد أن كل هذه المفاهيم محاولات للوصول إلى الله، وأن على العقيدة الإسلامية أن تتحلى بالمرونة والاتساع لقبول هذه الهوامش من الاختلافات العقائدية تأسيساً على أن الدين لله، وأن الخلق عباده، وأنه لا يليق بالكامل سبحانه أن يرسل النبوات والرسالات لتتناحر وتتنازع، ولا يمكن أن يكون الهدى محصوراً بفئة قليلة من الخلق وضعتهم الصدف في المكان القريب وصار الآخرون محلاً لغضب الله وسخطه وكراهيته.

وأكرر هنا ما ذكرته من قبل وهو أننا فى دراستنا الشرعية درسنا ابن رشد الفقيه، ولم ندري ابن رشد الفيلسوف، فقد كنا ندرس الرجلين (أو الرجل إياه) من خلال منبرين اثنين يتعذر الجمع بينهما على أنهما خطاب رجل واحد، فمن أين يمكن لخطاب الفلسفة المحلق نحو العقل الفعال والهيولى الأولى أن يلتزم القيود التقليدية المعروفة وفق منطق قف على ما وقف

عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه، حيث تتناوشه سهام التكفير وبيانات التضليل بمجرد أن يفكر بمخالفة الفكر السائد، على الرغم مما قد يقدمه خطاب النقد هذا من ضياء ونور.

ولم أكن أتخيل كيف يستطيع رجل كتب ما كتبه ابن رشد أن يحافظ على منبره أو على اسمه بين الفقهاء، بحيث يحظى باحترام الأحرار من المفكرين وفي الوقت إياه يحظى ببقاء عمامته فوق رأسه أو على رأسه تحت عمامته في وقت كان القتل على الردة أهون من شربة المي؟؟ ولكن الرجل قدم في تجربة حياته بكل تأكيد أن التنوير قادر على النهوض من المحراب والتألق على المنبر، ولعلها في العمق روح الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت صورة واضحة لتمازج البدوي مع الحضري، وإسباغ نعمة الجمال في الفردوس الأندلسي على بطحاء الفكر، وهو ما يمكنك أن تقرأه في التمايز الواضح بين الشرقي والغربي من خطاب فلاسفة القرن السادس الهجري.

فابن رشد الفقيه كان رجل منبر ومحراب وأصدر عدداً من الأعمال العلمية الفقهية لأصحاب الاختصاص اكتملت بكتابه: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وهو أول كتاب منهجي يعتمد الفقه المقارن ويورد باحترام وتقدير حجة الرأي الآخر على الرغم من عدم رضاه عن خياره واعتراضه على حجته، وقد حدد فيما بعد منهجه الفكري بكتابه: مناهج الأدلة في علم الأصول.

وابن رشد الفيلسوف خاض غمار حرب طاحنة ضد التيار التقليدي في الإسلام، وواجه بشكل خاص الإمام الغزالي الذي كان يمثل الاتجاه المحافظ في الأمة في مرحلة بالغة الدقة والحذر، وأصل لرسالة وفاق بين العقل والدين وبالتالي كان يرفض منطق الدين المصادم للعقل، ويطالب برسالة واضحة للشريعة في بناء فلسفة متماسكة للعقل والإيمان.

بالتأكيد لم يكن ذلك بدعاً في شخصية ابن رشد، فسجل حياته الشخصية أيضاً طافح بالعجائب فهو الرجل الذي حظي بأعلى مكانة لدى الخلفاء الموحدين أبي يوسف وأبي يعقوب ولكنه كان أيضاً الرجل الذي حظي بغضبهما وانتقامهما، وهو الرجل الذي فرضت كتبه على المدارس الفقهية ولكنه الرجل إياه الذي أحرقت كتبه فيما بعد في مهرجانات احتفالية، ودرس الفقهاء كتبه في الفقه وأحرقوا كتبه في الفلسفة، واعتبره الفقهاء هرطوقاً في العقيدة قائلاً بالتجسد والحلول على الطريقة النصرأنية ولكن أساقفة باريس وأكسفورد وكانتربري في القرن الثالث عشر الميلادي حرموا بدورهم قراءة كتب ابن رشد وأحرقوها

أمام عيون الجماهير، حتى على صعيد عمله الشخصي فقد كان الرجل أيضاً محيراً فقد اشتهر فيلسوفاً ثم عمل طبيباً للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، ومن ثم عمل قاضياً له؟؟

وأهم ما في مذهب ابن رشد من المسائل التي اتهم من أجلها بالزندقة ما يأتي: قدم العالم، وعلم الله وعنايته، وكلية النفس والعقل، والبعث. وعادة ما تتم الإشارة إلى مواقفه هذه في الدلالة على أنه يخالف الشريعة وبالتأكيد فإن هياج الدهماء وإحراقهم كتبه في صخب احتفالي كان وراء ذلك، ولكن ابن رشد لم ينكر العقيدة وإنما فسرها على وجه جعلها تتمشى مع الفلسفة.

ففي مسألة قدم العالم لم ينكر ابن رشد أنه مخلوق، ولكنه جاء برأي في الخلق خالف فيه المتكلمين بعض المخالفة. فالخلق عنده لم يكن دفعة واحدة، أي مسبوقاً بالعدم، ولكنه خلق متجدد آناً بعد آن، به يدوم العالم ويتغير؛ وبمعنى آخر: هناك قوة خالقة تفعل باستمرار في هذا العالم وتحفظ عليه بقاءه وحركته. والأجرام السماوية على وجه خاص لا توجد إلا بالحركة، وهذه الحركة تأتيها من القوة المحركة التي تؤثر فيها منذ الأزل؛ فالعالم قديم ولكنه معلول لعلة خالقه ومحركه، والله وحده قديم لا علة له.

أما فيما يختص بعلم الله فإن ابن رشد يأخذ بذلك الأصل الموضوع الذي قالت به الفلاسفة من قبل وهو «أن المبدأ الأول لا يعقل إلا ذاته»، ولا بد أن يكون الأمر كذلك عند هؤلاء الفلاسفة، حتى يحتفظ المبدأ الأول بوحدانيته، لأنه إذا عقل كثرة الموجودات صار متكثراً في ذاته، وصار دليلاً على قدمها، وإذا دققنا النظر في هذا الأصل فإن الموجود الأول يجب ألا يعدو حدود ذاته لأنه لا يعقل غير ماهيته، ويترتب على هذا أن تصبح العناية أمراً مستحيلاً. وذلك هو المأزق الذي كان يجتهد المتكلمون أن يدفعوا الفلاسفة إليه، وهذه بالطبع هي رؤية المعتزلة الذين كانوا يصرون على طرو الصفات على الله ما خلا صفة الوجود، وذلك إمعاناً في التنزيه والتوحيد في معرض ردهم على الدهرية وليس في معرض محاباتهم لها.

ولكن أكثر ما يعنيني في ابن رشد هو أنه اكتمال لرسالة أستاذه وشيخه ابن طفيل، الذي كان أول من قدم لوحة فنية مكتملة الأجزاء على مركب الأدب للتوفيق بين العقل والدين، من خلال الرائعة الخالدة حي بن يقظان، التي عالجت أمرين في غاية الأهمية كنا نقرؤهما بعمق في الفكر الاعتزالي وهما اتحاد رسالة العقل والدين، والإعلان عن رسالة العقل نبياً، كما هي في صلب تفسير عبد الجبار الهمداني لآية الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً.

وما حرره ابن طفيل في رسالة حي بن يقظان من وفاق العقل والدين في حديقة الأدب

والجمال، حققه ابن رشد على صخرة النقد الصارمة، ومنذ ذلك التاريخ فإن رائعة ابن طفيل ترجمت لأكثر من ثلاثين أدباً عالمياً وسخرت في خدمة أغراض مختلفة ولكنها ظلت تشير بأصبع مضيئة إلى التجربة الأولى التي قدمها ابن طفيل في خدمة الحقيقة والعقيدة.

ابن رشد وابن سبعين وابن عربي وابن الفارض والحلاج وابن حبش السهروردي أسماء كبيرة في سماء الفكر الإسلامي نتناولها اليوم بالدراسة والثناء والدراسات التأويلية المضنية، ونستدل من خلالها لما عرفته الحضارة الإسلامية من تنوع وغنى ولكن علينا في الوقت إياه أن نقول أن هؤلاء المجددين عاشوا كفاحهم ورسالتهم على وقع الأخطار المزلزلة ورأوا بأعينهم كيف كانت كتبهم تحرق باسم الرب، وكيف كان أتباعهم يطاردون ويشتتون، وكيف كانت أفكارهم تعامل في حلقات الفقهاء معاملة السم الناقع، ولو عاشوا في زماننا لنالوا نصيبهم الوافي من الاتهام بالماسونية والصهيونية والخيانة والامبريالية وآخر ما يتوفر في قاموس الشتات العربي اليوم من لغة الإقصاء ولعنة الريب.

وفي وعيه بإخاء الأديان أنجز ابن رشد سلسلة مراجعات هامة في علاقة المسلمين بغير المسلمين، ومن أبرز إنجازاته الفقهية وعيه الواضح بوجوب تطوير مفهوم الجزية التي ذكرت في القرآن الكريم عقابا على أهل الكتاب في آية واضحة: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وأكد ابن رشد أن هذا النص لا يمكن أن يكون سرمداً في كل حال، ولا يصلح في كل زمان ومكان، ولا بد من إعمال النظر في مقاصده وغاياته، وفي هذا المعنى فقد فصل الإمام ابن رشد الجزية على ثلاثة أصناف فقال: الجزية ثلاثة أصناف:

• جزية عنْوية وهي هذه التي تكلمنا فيها أعني التي تفرض على الحربيين بعد غلبتهم.

• وجزية صلحية وهي التي يتبرعون بها ليكف عنهم، وهذه ليس فيها توقيت لا في الواجب ولا فيمن يجب عليه ولا متى يجب عليه وإنما ذلك كله راجع إلى الاتفاق الواقع في ذلك بين المسلمين وأهل الصلح.

• وأما الجزية الثالثة فهي العشرية ... (والمقصود المعاملة كالمسلمين في دفع الخراج مع زيادة بدلية لكونهم لا يجاهدون) وممن قال بهذا القول الشافعي وأبو حنيفة وأحمد والثوري وهو فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنه.

فالجزية إذن جزية عقد ورضا، وجزية إرغام وصغار، وهذا التقسيم مارسته الدول الإسلامية

في معظمها مع الأقليات واعتبر مقبولاً ومتقدماً في عصر ما قبل الدولة الحديثة.

من وجهة نظري فإن ابن رشد تكمن فرادته في أنه لم يشأ أن يمضي في القطيعة مع التيار التقليدي إلى الغاية، كما لم يشأ أن يعلن نفسه ناسكاً لاهوتياً زاهداً، بل أحب الحياة واقترب من السلطان وعمل له وأكل على موائده وأصاب وأخطأ ونجح وأخفق وجامل وتأول واستخدم أدوات السلطان الممكنة في نشر رسالته، وأخذ أجره من كف السلطان طبيباً وقاضياً، وأصر أن يبقى بعمامته على منبره على الرغم من سماعه لفتاوى التفسيق والزندقة الصادرة بحقه وكان مؤمناً بيقين أن التنوير الحق هو ما يحضر من المنابر والمحاريب في تكامل بين العقل والروح والدولة والفرد وهو ما ترسمه أعمال الأئمة الأربعة المجددين، ابن سينا والفارابي في رسالة الفرد والدولة وابن طفيل وابن رشد في رسالة الروح والعقل الذين قدموا بتكاملهم الرباعي دورة الحضارة الإسلامية المتكاملة التي رسمت المنظومة الفكرية المتكاملة لقيام الأمة ونهضتها.

وأود هنا أن أناقش فكرة تتصل بعناء ابن رشد، فعادة ما نقول أن ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد ونظراءهم كانوا مضطهدين، وقد تم إحراق كتبهم وأفتى العلماء بكفرهم.

ولكن ذلك غير واقعي، نعم. لقد تعرضوا لهجوم عنيف من الناس، وهذا أمر طبيعي يجب أن يستعد له كل من قام بمحاولة تغيير حقيقي في المجتمع، ولا ينبغي على المصلح أن ينتظر تدخلًا من الدولة لمنع الناس من نقده أو اتهامه أو حتى منع كتبه أو إحراقها. ولكنهم أيضًا كانوا قضاة ووزراء ومشاهير في دول الخلفاء، وقد ارتكبوا السياسة ونالوا وزرها، وأصابهم من عافيتها وبلائها.

نستعرض ما لقيه الفلاسفة والمفكرون من الاضطهاد في التاريخ الإسلامي، وهو كثير ومرير بكل تأكيد، ولكنه لا يختلف كثيرًا عما لقيه أيضًا القادة التاريخيون للفكر الملتزم، فالأئمة الأربعة ذاقوا مرارة السجن وبطش السجان، سجن أبو حنيفة مرتين مرة في عهد مروان آخر خلفاء بني أمية ومرة في عهد أبي جعفر المنصور ومات في السجن، وسيق الشافعي للمحاكمة على حمار بلا إكاف من اليمن إلى بغداد، وسجن الإمام مالك وضرب حتى خلعت كتفاه على يد سليمان بن جعفر والي المدينة لأبي جعفر المنصور، وسجن أحمد بن حنبل في سجون المأمون والمعتصم والواثق، وضرب ضربًا شديدًا وكان يُنخس بالسيف فلا يحس لطول عذابه! والأمر نفسه سنلحظه كلما استعرضنا أسماء للمشاهير سواء من الفقهاء أو الفلاسفة الذين كانوا يحظون بمحبة الناس ويتعرضون للمكائد والمكر السياسي، فيغضب

منهم الملوك ويذيقونهم أشكال الإهانة.

وما لقيه في هذا المعنى ابن رشد وابن الهيثم والفارابي لا يختلف عما لقيه ابن تيمية وابن القيم، وهي معاناة كانت تتكرر وفق التحولات السياسية وسوء الحظ الذي كابده التنويريون والتقليديون على السواء.

من المؤكد أن أصحاب المواقف العقلية أو التي تؤثر تقديم العقل على النقل سيواجهون من العامة صدودًا كبيرًا، ويجب ألا يسوءهم أن يطردوا من المعاهد الدينية وتصدر بحقهم بيانات وفتاوى، فهذه طبيعة الحياة، ولكن يجب أن نعلم أن الحضارة الإسلامية فسحت لهم في مكان آخر.

ابن عربي

الاسم الكامل	محمد بن علي بن محمد الحاتمي الأندلسي	
ألقاب مشهورة	الشيخ الأكبر، ورئيس المكاشفين البحر الزاخر بحر الحقائق إمام المحققين، محيي الدين، سلطان العارفين.	ولقبه خصومه الشيخ الأكفر
التاريخ	٥٥٨-٦٣٨ هـ	١١٦٤-١٢٤٠ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في مرسية بالأندلس، ثم هاجر على دمشق ثم مكة ثم الموصل ثم بغداد ثم مكة ثم حلب وأخيراً استقر في دمشق ومات فيها	
أهم الكتب التي ألفها	أكثر من ٨٠٠ كتاب تم طبع نحو مائة منها، وأشهرها الفتوحات المكية وترجمان الأشواق وفصوص الحكم.	

أهم ما ألف عنه	مئات الكتب بمختلف اللغات وهذه طائفة منه
أهم من تأثر بهم	ابن رشد وابن سبعين موسى بن عمران الميرتلي، أبي العباس العرياني، أبوعبد الله مجاهد، وأبو عبد الله قسوم، وأبو الحجاج الشبربلي
أهم من تأثروا به من فقهاء الإسلام	عبد الكريم الجيلي وصدر الدين القونوي وجلال الدين الرومي وابن الفارض وصدر الدين القونوي وفريد الدين العطار وشهاب الدبن السهروردي وأبو الحسن الشاذلي والفيروزابادي وجلال الدين السيوطي وعبد الوهاب الشعراني وأحمد السرهندي
أهم من تأثر به من غير المسلمين	توما الأكويني، سبينوزا، ليبنتز، آسين بلاثيوس، خوأن ريبيرا، الياباني ايزوتسو، نيكلسون
أهم من هاجموه	العز بن عبد السلام، ابن حجر العسقلاني، التاج السبكي، الإمام الذهبي، وابن جماعة وابن حيان الأندلسي وابن الجزري وابن القيم وابن تيمية والحافظ العراقي وابن هشام النحوي وبرهان الدين البقاعي والسراج البلقيني
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• إخاء الأديان • تكامل الخلق والخالق • دين الحب

مساجد بنيت باسمه	مسجد الشيخ محي الدين بن عربي في دمشق بناه السلطان سليم الأول
أفلام عنه	فيلم ديكودراما البحث عن محي الدين بن عربي للمخرج التونسي ناصر خمير
الضريح	في مسجد الشيخ محي الدين بدمشق

ابن عربي

محمد بن علي الطائي الأندلسي المشهور باسم محي الدين بن عربي ٥٥٨-٦٣٨ هجرية

يعتبر الإمام ابن عربي أشهر فلاسفة الإسلام الذين تحدثوا بشجاعة وقوة عن إخاء الأديان، وله في ذلك دراسات وشروح تطول، وقد تبنى هذا الخيار بكل وضوح وخاض ثلاثة تجارب مريرة في الأندلس والموصل وبغداد وحلب ومكة، واجه فيها صدوداً كبيراً قبل أن يتحول إلى الشام في النهاية ليختار بساتين دمشق موئلاً أخيراً ينشر فيها إشراقه وعرفانه.

ومع أنه وجد في الشام قبولاً واستجابة لمشروعه الإصلاحي ولكنه جوبه أيضاً بقدر غير قليل من الرفض، حيث ظهرت سلسلة متعاقبة من الكتب في تكفير ابن عربي، وقال ابن حجر العسقلاني إذا لم يكن كتاب الفصوص لابن عربي كفراً فلا كفر في هذه الدنيا!!.

وتعاقب فقهاء كبار على اتهامه بأقسى النعوت، ونص على تكفيره أئمة كبار منهم الإمام الحافظ الذهبي والإمام الحافظ تقي الدين السبكي والسراج البلقيني، وقال عنه الحافظ زين الدين العراقي كلامه كلام ضلال وشرك واتحاد وإلحاد، وقال عنه العز بن عبد السلام شيخ سوء يقول بقدم العالم، لا يحل حلالاً ولا يحرم حراماً، وبأشد من ذلك تحدث ابن كثير وابن

حجر الهيتمي والإمام نور الدين البكري، أما الإمام ابن قدامة المقدسي صاحب المغني فقد كتب عن ابن عربي بيتين من الشعر:

هذا الذي بضلاله ضلت أواخر مع أوائل
من قال فيه غير ذا فلينأ عني فهو كافر

وقد جمع برهان الدين البقاعي هذه الأقوال في كتاب خاص سماه: تنبيه الغبي إلى كفر ابن عربي! وصار كثير من الفقهاء لا يذكرونه إلا مع الملاحدة والزنادقة وأعداء الدين!

ومن جانب آخر فقد انبرى عدد من علماء الشريعة للدفاع عن ابن عربي وكتبوا عدداً من الكتب في منزلته وفضله، فكتب السيوطي كتابه تنبيه الغبي إلى تبرئة ابن عربي، وكتب عبد الوهاب الشعراني كتابه اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر، وكتب أيضاً تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحار علوم الأولياء.

وبالجملة فإن الرجل يتناوبه في علماء الإسلام لقبان كبيران: الشيخ الأكبر والشيخ الأكفر!

ويرجع قدر كبير من المنزلة المتقدمة لابن عربي للسلطان العثماني سليم الأول، فقد كان من أول قراراته حين دخل الشام تجديد ضريح الشيخ محي الدين وبناء مسجد جليل عند ضريحه وقد تم ذلك عام ٩٢٤ هجرية، وقد بات هذا الضريح اليوم أكثر معالم دمشق زيارة وحضوراً، وباتت مجالس الصوفية والذاكرين تنعقد كل يوم حول ضريحه، ولكن لم تنظم إلى اليوم نشاطات لإخاء الأديان عند ضريحه كما يجري كل عام عند ضريح الإمام جلال الدين الرومي في قونية.

وتعتبر فكرة إخاء الأديان محورية في كل كتابات ابن عربي، وقد تناولها من مداخل كثيرة، يجمع بينها إيمانه الراسخ بكرامة الإنسان، وأنه مشروع الله في الأرض، وأنه مهما شرق أو غرب فهو متجه إلى الله وأن كل الطرق تؤدي إلى الله وأن الله تعالى يرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، وأنهم عائلة واحدة ومشروع واحد، تتعدد أوطانهم وأزمانهم وأساليبهم وطقوسهم، ولكنهم يعملون للحقيقة ذاتها وهي أن الله روح العالم ومصدره ومديره ومدبره، وأنه لا يكون في الكون إلا ما شاء الله أن يكون، وأن خضوع الكون للواحد سبحانه يقتضي احترام الأديان كافة والمرسلين كافة والحكماء كافة بوصفهم مظهر تنفيذ أمره وظهور مشيئته.

ويمضي في شرح الفكرة من حيث المبدأ بتأكيد ظاهرة الناسخ والمنسوخ في الدين، ويقول: أننا متفقون على وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن، ولكننا لا نزيل المنسوخ منه،

والشيء نفسه يمكن قوله عن الشرائع الأخرى، بمعنى أن نسخ الإسلام «لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعا له» وهو نسخ يعادل من حيث مضمونه النفي الشامل والتمثل الكامل لها في أحكامه الجديدة.

ويطيل ابن عربي في التأسيس على عقيدة الناسخ والمنسوخ بوصفها تأسيساً للإطار الزماني والمكاني للتشريع، وأن حصول النسخ لا يعني أي انتقاص من كمال الله وكمال النبوة، وإنما هو إرادة إلهية حكيمة، لتأكيد معنى قوله تعالى: كل يوم هو في شأن.

ويختصر ابن عربي موقفه من عقائد الأمم بقوله: فما أحد في العالم إلا وهو على الصراط المستقيم. (١)

ويوضح ابن عربي اختياره بعبارة شديدة الوضوح فيقول في فصوص الحكم:

وبالجملة فلا بد لكل شخص من عقيدة في ربه، يرجع بها إليه ويطلبه فيها، فإذا تجلى له الحق فيها، عرفه وأقر به، وإن تجلى له في غيرها، أنكره وتعوذ منه وأساء الأدب عليه في نفس الأمر، وهو عند نفسه أن قد تأدب معه، فلا يعتقد معتقد إلهًا، إلا بما جعله في نفسه، فالإله في الاعتقادات بالجعل، فما رأوا إلا نفوسهم، وما جعلوا فيها. فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم الأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فإن االله أوسع من أن يحصره عقد دون عقد. (٢)

وفي السياق إياه يطرح ابن عربي قصيدته الشهيرة:

لقد كنت قبلاً منكراً كل صاحب ... إذا لم يكن ديني إلى دينهِ دانٍ
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه في الحب ديني وإيماني

وكان يقول: لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق.

كما ينطلق من زاوية أخرى أن العابدين مهما عبدوا فهم يبحثون عن الذات الإلهية، وهو المقصود بقولهم: لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به، فهو لا يرى العبادة إلا لله ولو كانت الصور مختلفة، فالقصد هو الله، وأن مظاهر العبادة ليست هي جوهرها ولا مقصودها ولا غاياتها، بل المقصود من العبادات هو الغاية التي يسير إليها العابدون.

(١) ابن عربي، محي الدين، فصوص الحكم ج٢ ص١٥٨.
(٢) ابن عربي، محي الدين، ترجمان الأشواق 43

ويتناول ابن عربي نصوص العذاب الكثيرة في القرآن الكريم التي توعدت فيها الآيات طوائف من غير المسلمين، فيقول:

وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم، ولكن في النار؛ إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العذاب، أن تكون برداً وسلاماً على من فيها، وهذا نعيمهم فنعيم أهل النار، بعد استيفاء الحقوق، نعيم خليل الله، حين ألقي في النار»

فلا بد من نفوذ الكلمة، ثم يكون المآل للرحمة، التي وسعت كل شيء، فهو في الدنيا يرزق مع الكفر، ويعافي ويرحم، فكيف مع الإيمان والاعتراف في الدار الآخرة على الكشف، كما كان في قبض الذرية؟ فعقابهم وعذابهم تطهير وتنظيف، كأمراض المؤمنين، وما ابتلوا به في الدنيا من مقاساة البلايا، وحلول الرزايا مع إيمانهم، ثم دخول بعض أهل الكبائر النار مع إيمانهم وتوحيدهم، إلى أن يخرجوا بالشفاعة، ثم إخراج الحق من النار من لم يعمل خيراً قط، حتى الساكنين في جهنم لهم فيها حال يستعذبونها، وبهذا سمي العذاب عذاباً. (٣)

وينتهي ابن عربي من ذلك كله إلى ست حقائق يعتبرها أصلاً في التوحيد:

المقدمة الأولى: الإحسان إلى جميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، ظاهراً وباطناً.

المقدمة الثانية: أن الله تعالى لم يقصد إلى إفناء الكافرين، بل بقاءهم، لتحقيق حكمة الخلق.

المقدمة الثالثة: أن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء.

المقدمة الرابعة: أن الله تعالى يرزق في الدنيا، حتى مع الكفر.

المقدمة الخامسة: أن العقوبات الدنيوية تطهير وتنظيف، كالأمراض تصيب المؤمنين.

المقدمة السادسة: أن أهل الكبائر من الموحدين، وكذا من لم يعمل خيراً قط، وأنهم يخرجون بالشفاعة.

ويمضي ابن عربي في تقرير موقفه من إخاء الأديان واحترام مقاصدها واعتبار أساليبها في بناء الإيمان والفضيلة، فيقول:

فكل إنسان عقيدته ما جعله في نفسه، فكل من عبد ما جعله في نفسه فقد أصاب، والحذر من التقيد بدين خاص، فالخير الكثير في الاعتقاد بجميع الملل والعقائد، وقبول جميع المعتقدات دون تفريق، وذلك أن عبادة الله تعالى، لا تنحصر في دين دون غيره، ولو

(٣) ابن عربي، محي الدين، قصوص الحكم ١٥٩

كان الإسلام نفسه، لكونه واسعا.. هكذا يقرر ابن عربي، بل ويستدل عليه بالقرآن، ويقول: وبالجملة فلا بد لكل شخص من عقيدة في ربه، يرجع بها إليه ويطلبه فيها، فإذا تجلى له الحق فيها، عرفه وأقر به، وأن تجلى له في غيرها، أنكره وتعوذ منه وأساء الأدب عليه في نفس الأمر، وهو عند نفسه أن قد تأدب معه، فلا يعتقد معتقد إلهاً، إلا بما جعله في نفسه، فالإله في الاعتقادات بالجعل، فما رأوا إلا نفوسهم، وما جعلوا فيها.

فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم الأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فإن الله أوسع من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول: {فأينما تولوا فثم وجه الله}.

ويشرح ذلك في قصيدته الشهيرة في الفتوحات:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه
لما بدا ما صوروا متحولا قالوا بما شهدوا وما جحدوه

وقد رويت الأبيات نفسها من كلام الحلاج بصيغة وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه.

وفي تعبير واضح صرح ابن عربي: أن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله.

وفي ديوانه ترجمان الأشواق:

فوقتاً أسمّى راعي الظبي بالفلى ووقتاً أسمى راهباً ومنجماً
تثلث محبوبي وقد كان واحداً كما صيّروا الأقنام بالذات أقنُما
بذي سَلَم والدير من حاضر الحمى ظباء تريك الشمس في صورة الدمى
فأرقب افلاكاً وأخدم بيعة وأحرس روضاً بالربيع منمنماً

ومن المناسب أن نذكر هنا المنطلقات الخمسة التي استند إليها الصوفية في تقرير إخاء الأديان:

وحدة الوجود: وهي الاعتقاد بأنه لا وجود حق إلا لله وأن العالم صور وأوهام، حقق لا ترى إلا الله.

الحب الأزلي: ويرتكز على الإيمان المطلق بقوة الحب الإلهي الذي نفخ من ذاته في الخلق، فكانوا انبثاقاً منه وفيضاً وأثراً، فالكون من الله، يغمرهم بحبه ويشملهم بعشقه.

الربوبية: التي تقتضي أن الله مسؤول عن عباده وأنهم أن شـردوا في درب فتلك إرادته وعنايته، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

الجبر: وهي قائمة على أسـاس أن الخلق عباده وأنهم لا يملكون لأنفسـهم ضراً ولا نفعاً ولا موتـاً ولا حياة ولا نشـوراً، وأنهم مهما كان من طاعتهـم أو عصيانهم ينفذون أمره وقدره وجبره.

الرضا: الرضا شـأن المسـلم، فلا يسـخط من خلق خلقه الله، ولا يبغض داتاً خلقها الله، ويؤمن أنه في كل إيمان وكفر وطاعة ومعصية مراد لله، وشأن المؤمن أن يكون راضياً عن الله في سائر أقداره وخلقه وتدبير عباده.

جلال الدين الرومي

الاسم الكامل	محمد بن محمد بن حسين البلخي البكري	
ألقاب مشهورة	مولانا جلال الدين	أمير العشق الإلهي
التاريخ	٦٠٤-٦٧٢ هـ	١٢٠٧-١٢٧٣ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في بلخ بأفغانستان ثم ارتحل إلى بغداد ثم دمشق ثم تحول إلى قونية بتركيا واستقر ومات فيها.	
أهم الكتب التي ألفها	صنف عدداً من دواوين الشعر أبرزها: المثنوي، وشمس تبريز، كما كتب تلامذته بعض الكتب ونسبت إليه ومنها: فيه ما فيه، والرسائل، والمجالس السبعة.	
أهم ما ألف عنه	كتب عنه مئات الكتب بمختلف اللغات وهذه طائفة منها 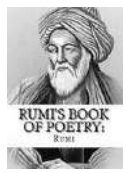	
أهم من تأثر بهم	شمس الدين تبريز	

أهم من تأثروا به	الصوفية وخاصة أتباع الطريقة المولوية ـ التيارات الإنسانية في الإسلام
أهم قضايا نادى بها	• الإنسان أخ الإنسان أحب أم كره • النفس حقيقة خالدة فيها يختصر الوجود كله • إخاء الأديان وكرامة الإنسان • الإشراق مصدر للشريعة
مساجد بنيت باسمه	جامع المولوية بدمشق – جامع مولانا جلال الدين في قونية– عدد من كراسي البحث العلمي في الجامعات
مساجد بنيت باسمه	فيلم أمريكي من هوليوود من إخراج ديفيد فرأنزوني والمنتج ستيفن جويل براون حول حياة جلال الدين، وفيلم إيراني من إخراج حسن فتحي وكتاب فرهاد توحيدي بعنوان نشوة الحب
الضريح	في قونية في مسجد مولأنا جلال الدين

جلال الدين الرومي.. أمير العشق الإلهي

جلال الدين الرومي محمد بن محمد البلخي ١٢٠٧-١٢٧٣م، أشهر فلاسفة العرفان الإسلامي وأكثرهم حضوراً وتأثيراً، ولعله أشهر فلاسفة الإسلام ورجال العرفان شهرة في العالم، وقد بات اليوم أحد أبرز الرموز على وصال الشرق والغرب، والإسلام والأديان، والعقل والروح.

رحل جلال الدين من بلخ في أفغانستان مع أبيه خلال الغزو المغولي فطاف في الحواضر الإسلامية في إيران والعراق ثم وصل إلى مكة وعاد إلى بيت المقدس فدمشق وأخيراً استقر مع أبيه في قونية بتركيا، وحظي الأب والابن برعاية خاصة من السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد، وباتت الفرصة مهيأة لجلال الدين لينشر إشراقه الروحي في قونية.

أمضى جلال الدين أيامه في الدعوة إلى الإخاء الإنساني واعتبر الديانات مصدراً أساسياً للإخاء الإنساني ومدارس تربوية يتكامل بعضها ببعض، ويهدي بعضها إلى هدي بعض.

ومن كتبه الشهيرة:

المثنوي:

ويعتبر المثنوي الذي وضعه جلال الدين الرومي مصدراً ثرياً لثقافة الإخاء الإنساني القائمة على أساس الإيمان بالله تعالى مصدراً نهائياً للأنعام لسائر الخلق، من الملل جميعاً، وقد انتشر المثنوي انتشاراً عظيماً وكان يسمى عند الفرس بمصحف العجم.

والمثنوي عبارة عن مجموعة شعرية من نحو ٢٤٠٠٠ بيت زاد عليها النساخ والشراح حتى بلغت ٤٨٠٠٠ بيت. باللغة الفارسية وضمنها أغلب فلسفته وحكمته.

وتُرجم الكتاب إلى التركية والأوردية والهندوستانية كما ترجم إلى الأنجليزية والألمانية، وتأخرت ترجمته إلى العربية إلى القرن الأخير حيث ترجمه نثراً د. محمد عبد السلام كفافي.

الرباعيات: وهو كتاب يتألف من مجموعة من الرباعيات، قُدِّر عددها بألف وستمائة وتسع وخمسين رباعية. كتاب فيه ما فيه: وهو كتاب يتألف من مجموعة من المحاضرات التي ألقاها جلال الدين على أصحابه، وقد جمعها مريدوه عنه، ويبلغ عدد هذه المحاضرات إحدى وسبعين محاضرة.

المجالس السبعة: وهو مجموعة من المحاضرات التي ألقاها جلال الدين الرومي عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وفيها بعض أشعار فريد الدين العطار والسنائي.

الرسائل: وهي مجموعة من الرسائل التي كتبها الرومي لأصحابه باللغة الفارسية واللغة العربية، وتدل هذه الرسائل على اهتمام الرومي بمعارفه ومريديه وتأثيره الكبير بهم.

ولجلال الدين تأثير كبير على الثقافة العالمية، وهو أحد المفكرين الإسلاميين الذين تجاوزوا الأدب الإسلامي إلى الأدب العالمي، ووصفته قناة «بي بي سي» بأنه أكثر الشعراء شعبية في الولايات المتحدة الأميركية، لا سيما ديوانه «المثنوي» و«شمس تبريز».

وفي الوسط الفني ذاعت شهرة جلال الدين وشغل بها الوسط الفني العالمي، بوصفه أحد أبرز رجال الألق الروحي والموسيقي في العالم، وغنت فنانات عالميات شهيرة من كلمات جلال الدين مثل: «غولدي هاون» و«ديمي مور»، واشتهرت على نطاق عالمي أغنية مادونا «قوة الوداع» (The Power Of Good-Bye) وساهمت هذه الأعمال بتعزيز انتشار أعمال الرومي ووصولها إلى أجيال وفئات عمرية وأوساط جديدة في كافة أنحاءالعالم.

وقد اهتم كثير من المستشرقين بشخصية مولانا جلال الدين، ومن أبرزهم البريطاني رينولد نيكلسون والذي أمضي منذ نهايات القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين حوالي خمس وعشرين عاماً من حياته في دراسة أعمال جلال الدين الرومي، حيث ترجم مختارات من ديوانه «شمس تبريز» عام ١٨٩٨.

كما ترجم المستشرق الإنجليزي «آرثر جون آربري» عدداً من أعمال رومي، وكذلك المستشرقة الألمانية «أنا ماري شميل» التي خصصت كتابها الضخم (٨١٥ صفحة) «الشمس المنتصرة» لدراسة وتحليل أشعاره.

واعترافاً بشهرته العالمية فقد أعلنت منظمة اليونسكو ٢٠٠٧ عاماً دولياً للاحتفال بمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على ولادة مولانا. وورد في وصفها لجلال الدين، في بيانها بهذه المناسبة: «أنه كان ولا يزال أحد المفكرين والعلماء الكبار الذين أثروا الحضارة الإسلامية، هو شاعر عالمي، إذ تعتبره الشعوب في كل من أفغانستان وجمهورية إيران الإسلامية وتركيا شاعرها، كان في شعره يخاطب البشرية جمعاء».

وصار مولانا كنز عرفان للعالم، يسميه مريدوه الأتراك «مولانا»، ويسمى في بلاد فارس «مولوي»، ويعرف أيضاً في أفغانستان «البلخي»، وفي أوروبا والغرب «الرومي». والرومي نسبة إلى بلاد الروم حيث عاش معظم حياته في قونية، وهكذا تسابقت إليه الأمم وكل يعتبره رمزاً في حضارتها وإشراقها.

الرومي وسارتر

تتناوب الفلسفة والأدب عبر التاريخ التأثير كل في الآخر على أساس حاجة الفلسفة للأدب وافتقار الأدب للمضمون الفلسفي، وربما كانت هذه القراءة مناسبة للوعي بهذه الحقيقة، حيث ترتسم ملامح فلسفتين متناقضتين لرومي وسارتر من خلال ما تقدمت به كل فلسفة في الإطار الأدبي وهو ما نستعير له هنا اسم الرجلين الكبيرين رومي وسارتر، وفق ما تقرؤه في (مثنوي)

جلال الدين، و(الرحمن والشيطان) لسارتر.

والمثنوي عبارة عن مجموعة شعرية من نحو ٢٤٠٠٠ بيت زاد عليها النساخ والشراح حتى بلغت ٤٨٠٠٠ بيت. نظمها الفيلسوف المسلم جلال الدين الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ) باللغة الفارسية وضمنها أغلب فلسفته وحكمته.

وترجم الكتاب إلى التركية والأوردية والهندوستانية كما ترجم إلى الإنجليزية والألمانية، وتأخرت ترجمته إلى العربية إلى القرن الأخير حيث ترجمه نثراً د. محمد عبد السلام كفافي.

أما الشيطان والرحمن فإنه رائعة سارتر التي يتحدى بها إرادة القدر مرتين ولكنه ينهي صراعه من حيث بدأ حيث تتكرر المأساة كلما تكرر جيل وأنه لا أمل بالمرة في اي خلاص للإنسان طالما أن سائر كفاح الإنسان سيعود إلى تكرار العبث ذاته، وليس ثمة أي سبب موضوعي يجعلك تتصور لزوم انتصار الخير على الشر وأن القرائن المتكررة تحمل على اعتقاد العكس حيث سيغلب الشر في آخر كل جولة.

ولكن ما الذي يجمع بين رومي وسارتر على الرغم من تباعد المواقع التاريخية والجغرافية التي أنطلق منها كل واحد منهما؟

في التاريخ الإنساني قرنان متشابهان، القرن الثالث عشر والقرن العشرون، وللأسف فإن ما يجمع بينهما إنما هو الجانب الدموي في كل منهما.

فقد شهد القرن الثالث عشر الميلادي خروج المغول من قمم الجبال التي عاشوا فيها لينساحوا في الأرض ويأكلوا الأخضر واليابس من العالم ويبنوا جماجم الرؤوس المقطعة على أنقاض المدن المتهدمة، وهي المشاهد التي لم يقرأ الإنسان في التراث المكتوب أشد منها هولاً.

أما القرن العشرون فقد جاء ـ على الرغم من البسط الخضراء التي فرشت في أيامه الأولى على أساس أنه قرن الحضارة والتكنولوجيا والمعرفة ـ جاء أشد القرون هولاً، حربان عالميتان أكلتا أكثر من مائة مليون إنسان بين قتيل ومعاق وأكثر من مائة حرب إقليمية حصدت أرقاماً مماثلة.

شهد جلال الدين الرومي القرن الثالث عشر وشهد سارتر القرن العشرين، ولكن فيما طفحت فلسفة رومي بالأمل والحياة جاءت فلسفة سارتر طافحة بالغثيان والقنوط والإياس من إمكانية إصلاح الحياة داعية الإنسان إلى استنزاف ما يمكنه من أشكال أنانيته!

كان عصر جلال الدين الرومي أعقد عصور التاريخ الإسلامي على الإطلاق فحياته التي تمتد من ٦٠٤هـ إلى ٦٧٢هـ هي فترة الغزو المغولي التتري الذي حطم معالم الحضارة الإسلامية،

وأسقط كثيراً من أوابدها ورموزها.

و(الرومي) لم يكن غائباً عن الأحداث في تلك الفترة الصاخبة بل كان يتنقل بين عواصم العالم الإسلامي المشتعلة فمن بلخ إلى نيسابور إلى بغداد حيث كانت مشاهد الموت تنطبع في خياله وهو يغادر تلك المدائن إلى أن استقر به المقام في قونية من أرض الروم.

ولم يكن أصحاب جلال الدين وإخوانه يعلمون أن ذلك الفقيه الهادئ الذي رأى مراكب الموت الجامحة يطوي في صدره فلسفة كامنة ستمكث غير بعيد لتتبوأ محلها في تاريخ الفلسفة الإسلامية كواحدة من أنضج وأشمل الحلول لكل مشاكل الإنسان ومآسيه.

لقد كانت فلسفة الرومي فلسفة حرب نشأت في وقت كانت فيه مذابح المغول والتتار تصخ آذان العالم الإسلامي، ولكن رومي كان يقدم في روائعه الرقيقة فلسفة الكفاح والنضال مخاطباً أولئك الذين أفلتوا من المجزرة وهم يرتقون جراحهم ويعيشون مآسيهم أنه لم ينته كل شي، وأن المجزرة ليست نهاية العالم، وأن أمام الإنسان كثيراً من النضال والكفاح في هذه الأرض.

الروح عند جلال الدين هي حقيقة الإنسان وهي خلوده، وهي التي لا يجوز أن يلحقها الفناء، والروح حتى وهي في هذا القفص الجسدي العابر، لا يمكن أن تكون شيئاً تافهاً على الإطلاق، بل هي في سجنها وأرقها تسخر الوجود وتملؤه بالحب والجمال.

استمع إليه وهو يستنطق الروح المتعبة:

قالت الروح وقد أرهقها ... قفص الأبدان في طول العمر
أنا كالبدر الذي قوسه ... ألم العشق وأضناه السهر
لست بالميت ولو غيبني ... عبث الدهر وآذاني القدر
سوف أغدو مشرقاً من غربتي ... وأعيش الدهر في كر وفر (١)

ثم يمضي جلال الدين يستنطق الجماد الصامت ويبني على أساس سلوكه فلسفة الكفاح:

حبة القمح إذا تدفنها ... تجعل القبر مخاضاً مستمر
وإذا تطحنها صلب الرحى ... فهي خبز فيه طعمى للبشر
وإذا تسحقها أسنانهم ... فهي للعاقل روح وفكر (٢)

لقد كانت صورة الحضارة الإسلامية آنذاك على غاية من الضعف والشيخوخة وكان (جلال

(١) مثنوي جلال الدين، ترجمة د. كفافي جـ١ نظم الصفحة ٤١٠ .
(٢) نفس المصدر السابق، نظم ص٣٦٩ .

الدين) يعلم ذلك ويفهمه ولكنه كان لا يرضى لروح المسلم أن تشيخ بل كان يريدها في شباب دائم لا توهنه عوارض السقم وفي ربيع مشرق لا يقنطه برد الشتاء فكان جل خطابه للروح يقدسها ويمجدها ويأمرها أن تبعث الحياة من جديد في تلك الأبدان الواهنة الزاغبة بسكرات الموت.

واستعراض رسالة الأمل والحب في فلسفة الرومي لا يعسر على كل من تصفح المثنوي العظيم، ولعل أوضح تجلٍ لمدرسة الحب هي تلك التي تقام كل عام عند قبر جلال الدين في قونية حيث تتأسس الحركات المختلفة بين الحين والآخر لتجعل من قبره روضة المحبين وليتلاقى عند ضريحه رجال من أديان مختلفة، ومذاهب مختلفة ليغنوا هناك ويرقصوا لوجه الحب وحده ، حيث تصبح الأرض بحق قطعة من فردوس العشق الموعود!

والوجود عند جلال الدين ليس مشكلة مفروضة بل هو ثمرة إنسانية تعكس كفاحه ونضاله وينبغي أن يتجلى فيها طموح الناس وأمانيهم، وعلى عكس ما كان يفترض أن تقوم عليه فلسفة ما بعد الحرب من بأس وقنوط جاءت فلسفة الرومي طافحة بالأمر والحب والبشر.

لقد احترق العالم مرة أخرى هذا القرن ولم يقم النازيون بأفظع مما قام به المغول والتتار وقامت عقب الحرب العالمية الفلسفة الوجودية في دعوة صارخة إلى الفوضى والغثيان واليأس وهو مصير كل فلسفة لا تقوم على أساس من الإيمان، وبدا للإنسان أنه موجود في هذه الحياة نتيجة ورطة تفاعل هيدرو كربوني صدفي عاثر، كان من الأليق أن لا يحصل وأنه يعيش هنا مع آلهة بغيضة لا يحبها ولا تحبه ويتربص كل من الطرفين للإيقاع بالآخر، وتبدو الطريقة اللائقة في مواجهة هذه الحقيقة هي الانتفاض بغضب على كل موروث القيم والفضائل المتهمة أصلاً بالانتحال والزيف لتقوم مكانها مملكة الإنسان المادي البحت الذي هو في الواقع إنسان الهوى والأنانية، وهنا تكون الأنانية قيمة مجيدة لأن الذات هي الحقيقة الوحيدة في مواجهة فظائع الواقع.

أما قيامة الشرق التي أفرزها غزو التتار فقد أيقظت فلسفة (الرومي) على أساس من الإيمان فكانت فلسفة الحب والحياة والخير والأمل، وفي ضياء ذلك كتب روائعه الشهيرة وخلدها في المثنوي.

أنت تدخل المثنوي شاكاً متردداً ولكنك سرعان ما تجد نفسك في زورق جلال الدين في عباب البحر وهو يمد مجدافه إلى قاع المحيط ثم يقلب به القمر والنجوم ويعود بكثير من رمال الصحراء وخضرة المزارع، ويمنحك في كل حال دفء حكمة، ونور معرفة.

موقفه من إخاء الأديان:

وجـلال الدين أوضح من صـرح بمبدأ إخاء الأديان، واتحاد مقاصد السـالكين وقد أعلن في مواضـع كثيرة أن الله أكبر من أن تحتكره ديانة واحدة، وأوسـع مـن أن تحيط به نبوة واحدة، وأن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله.

وفي مطلع ديوانه التبريزي يقول: أنا نفسـي لا أعرف نفسـي، فلا أنا مسـيحيٌّ، ولا أنا يهوديٌّ، ولا أنا مجوسيٌّ، ولا أنا مسلمٌ، ولا أنا شرقيٌّ، ولا أنا غربيٌّ، ولا أنا من البر، ولا أنا من البحر، ولا أنا من الكون، ولا أنا من المكان.

«مسـلم أنا ولكني نصراني وبرهمي وزرادشـتي.. توكلت عليك أيها الحق الأعلى.. ليس لي سوى معبد واحد.. مسجد أو كنيسة أو بيت أصنام».

يَا ولدي مهما اختلفت الأديان والمذاهب والطرُق، يبقى المعشـوق والمقصود واحداً، لا إله غيره ولا محبوب سِواه!

قد تجد الحب في كل الأديان.. لكن الحب نفسه لا دين له.

ليس العاشق مسلماً أو مسيحياً، أو جزءاً من أي عقيدة. . دين العشق لا مذهب له لتؤمن به أو لا تؤمن، مذهب العشاق وملتهم هو الله. (٣)

ومن روائع ما أثر عنه في إخاء الأديان وكرامة الإنسان:

أيها البشـر الأتقياء التائهون في هذا العالم، كلُّ هذا التيه من أجل معشـوق واحد تبحثون عنه في هذا العالم، ابحثوا في أنفسكم فما أنتم سوى ذلك المعشوق.

إن لم تجدني داخلك.. لن تجدني أبداً.. فأنا معك منذ بدء التكوين.

إن كنت تبحث عن الله فهذه مشكلة.. الله فيك وأنت لا تدري.

هيأتك المرئية التي تظن بأنها أنت هي محدودة.. أما حقيقتك فليس لها حدود.

أن ما يبدو لك متناقضاً إنما هو انسجام غير مفهوم

فكيف يضحك المرج في الربيع إذا لم يبك الشتاء.

أنت الكون بحركته المنتشية.

ليس العاشق مسلماً أو مسيحياً، أو جزءاً من أي عقيدة.. دين العشق لا مذهب له لتؤمن به أو لا تؤمن. (٤)

---

(٣) جلال الدين الرومي، المثنوي ج٢ ص ١٥٨

(٤) جلال الدين الرومي، المثنوي، ج٢ ص ٨٨

وفي موقفه من اختلاف الأديان، تحدث جلال الدين عن الانسجام في الكون، وأن الاختلاف ما هو إلا إدارة حكيمة من الله للعالم، وما تجده في كل دين من نور فهو إكرام من الله وإنعام، فالنور لا يطفئ النور، بل يزيده إشراقاً.

لم يقارب جلال الدين مسألة إخاء الأديان بالبراهين العقلية والحجج النصية، بل ذهب إلى نشر معأنيها بالدليل البرهاني القائم على الأشواق والأذواق والعرفان.

وبدلاً من الخوض في دلالات النصوص وظاهرها عباراتها، فقد مضى جلال الدين إلى عالم الإشارة واستعان بالموسيقا والفن لتعزيز موقفه من اختلاف الأديان والملل، فقد اختصرها بطريقته الروحية الوصفية التي باتت تعرف بالمولوية، وفيها يتقدم الناسك بلباس متعدد الألوان، وطربوش موشوري يحي بالاتصال بمصدر الإشراق، ثم يبدأ الناسك بالدوران بألوانه المتعددة الزاهية التي ترمز إلى التعدد في الأديان والثقافات والممارسات، ولكنها حين تنطلق في دورة الطواف حول الذات الواحدة، تتحد الألوان كلها تلقائياً فتكون لوناً أبيض، تنسجم فيه الألوان كلها، وتعود صفاء ونقاء وطهارة، حيث يلتقي الكل من المختلفين حول الذات الواحدة فيكونون شركاء في الإشراق الذي يتدفق من علٍ، ولا يميز بين لون ولون.

وفي واحدة من أروع قصائده في المثنوي يتحدث جلال الدين قصة الفيل الذي نقلهُ الهنود من بلدة إلى أخرى. وصل الفيل في الليل ووضعوه في حظيرة، تسلل الناسُ إلى الحظيرة في الظلام الدامس، وأخذ كلُّ إنسان يتحسس الفيل، فالذي وجد الخرطوم قال أن الفيل إنما يشبه الأنبوبة، وقال من لمس ظهره أنه يشبه السرير، ومن لمس أرجله قال أنه يشبه الأشجار، وهكذا فكلُّ واحد ممن لمس الفيل ظنَّ أن ما لمسه هو كمالُ خلقة الفيل بينما لم يشعر كل واحد منهم إلا بجزء صغير جدًا من الفيل.

إننا ندرك دوماً جانباً من الحقيقة، يعكس موقعنا وظروفنا وثقافتنا، ومن الغرور أن نقول أننا نحيط بالحقائق بدقة، ولا نحتاج للمراجعات والتكامل مع ما يعرفه الآخرون.

ثم يعطف بعد ذلك مباشرة لشرح موقفه من اختلاف الأديان، فيقول:

هذا هو حال أصحاب التعصب من الديانات الذين لمسوا من الحقيقة شيئًا ضئيلاً ظنوه كل الحقيقة. بينما قلوب الأنبياء تسع الجميع على خلاف المتعصبين.

وفي سياق قريب يؤكد جلال الدين على لقب له يستهويه بشدة فيقول:

أنا خادم البساط المحمَّدي، هل منعَ البساط المحمدي النصارى واليهود من الجلوس عليه؟

«إن مولانا اشتق مذهباً جديداً في تأويل الدين ونصوصه، يمكن تسميته بمذهب العشق. مذهب تتغلب فيه الروح على القانون، ماهيته التراحم والمحبة، تتسع مدياته الإنسانية، بنحو يحرر البشرية من العدوان والتعصب، ويفتح آفاق التواصل والتفاهم بين مختلف المجتمعات. إنه عابر للأديان والثقافات، ليس نفياً للأديان أو مناهضة لها، وإنما تعبير عن المضمون العميق للأديان، أنه مرتبة متعالية من المعنوية والروحانية، تستوعب جوهر الأديان، وكأنه يحاكي ما يذهب إليه الشيخ محيي الدين بن عربي، عندما يعبّر عن ذلك بصراحة:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

دين يتأسس على الحب والعشق، ينشد الجمال والفن، تبدو تمثلاته في الرقص والموسيقى والسماع، ويسكبها في قوالب الطقوس والعبادات، فتغدو سلماً للوصال مع الحق، والمعروف لديهم أن «مدارج السالكين اليه بعدد أنفاس الخلائق». ينأى هذا التديّن عن كل ما من شأنه أن يقود إلى القتل والموت، ويسمم الحياة بالحزن، ويلوّث عوالم المعنى بالدم المسفوح. لذلك لا نعثر على دعوات للكراهية هنا، قد نجد من يشير إلى كراهية الخطيئة، بيد أنهم لا يكرهون الخاطئ، وإنما يشفقون عليه، ذلك أن معتقدهم ينبثق عن (لاهوت الشفقة) لم يتحدث مولانا عن القتل، ولم يطلب منا إعلان الحرب على الخطاة، ومن يختلفون معنا في المعتقد.

وجدت في مفهومه ديناً لا يكره الحياة، ديناً لا يخاف الفن، ديناً لا يزدري الفرح، دين جلال الدين هو دين التضامن ضد الدعوة للموت... دين يدعو للابتهاج، دين يحتفي بالمسرات، دين مادته المحبة...

دين تشرحه كلمات جلال الدين: توضأ بالمحبة قبل الماء، فإن الصلاة بقلب حاقد لا تجوز.

إن حضور الميراث الروحي للرومي هزم الفهمَ العنيف لدين البادية السلفي، المولع بالموت.

كان يوصي زائريه.. أخي عندما تأتي لزيارة قبري سيبدو لك السقف راقصاً، لا تأت لقبري دون دف، فإن من يستبد به الحزن لا يليق بمائدة الحق». (٥)

وفي يوم ١٧ ديسمبر من كل عام يتوافد المؤمنون بإخاء الأديان من كل العالم إلى الضريح الكريم لمولانا جلال الدين في قونية، وتقام مراسم يشارك فيها مسلمون ومسيحيون ويهود

(٥) الرفاعي، عبد الجبار، الدين والنزعة الإنسانية ص ٤١

وبهائيون وبوذيون وزرادشـت، تأكيداً على المشترك الديني بين الجميع، حيث يؤكد الجميع على الواحة الإنسـانية الجامعة التي يمثلها هذا الضريح الكبير، ويشـارك في هذا الحفل عادة رئيس الوزراء ووالي قونية وعدد من رموز الدولة والمجتمع، إضافة إلى ضيوف من مختلف أنحاء العالم.

وتنظم جانباً من هذه اللقاءات جمعية جان شفيق التركية التي تعتبر مرجع الطريقة المولوية في العام، وترأسها الآن الشيخة نور آرتيران.

الطوفي

الاسم الكامل	سليمان بن عبد القوي	
ألقاب مشهورة	أبو الربيع نجم الدين	
التاريخ	٦٥٧-٧١٦ هـ	١٢٥٩-١٣١٦ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد بطوف في العراق ودخل بغداد ورحل إلى الشام ومصر والحرمين وتُوفي بفلسطين	
أهم الكتب التي ألفها		
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثر بهم	فقهاء الحنابلة والإمام مالك	

أهم من تأثروا به	فقهاء الحنابلة والتيار العقلي في الإسلام
أهم قضايا نادى بها	• تقديم المصلحة على النص • التأويل بمقاصد القرآن

نجم الدين الطوفي... فقيه التشريع البرلماني حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله

فقيهنا هو واحد من الأصوات المبكرة التي أسست للفقه الحديث ودور البرلمانات في تشريع ما ينفع الناس.

ولد الإمام الحنبلي نجم الدين الطوفي في صرصر بالعراق ٦٥٧-٧١٤ هـ وذلك بعد شهور من أكبر الكوارث التي مرت على العالم الإسلامي حين اجتاح هولاكو بغداد، ومن عجائب التقدير أن هولاكو كان يحيط ببغداد بجيشه المدمر فيما كان المشايخ يتناقشون في فرض الجهر بالبسملة، ولكن المغول دمروا بغداد وخنقوا الخليفة ولم تبق خلافة ولا صلاة سرية ولا صلاة جهرية.. وفيما كان واعظون من جانب آخر يخدرون الناس بظاهر النصوص ويدعونهم إلى القعود وأن الله سيفعل بهولاكو ما فعله بأصحاب الفيل ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وسيهزم الجمع ويولون الدبر.

بالتأكيد كان لهذه الكارثة وتداعياتها أثر عميق في ثقافة الإمام الطوفي، وبعد رحلة طاف بها بين العراق والشام وفلسطين، أعلن أن الشريعة متطورة باستمرار وأنها لا تتحنط في أقفاص النصوص، لقد حسم الجدل مباشرة وأعلن أن العبادات مدارها على النص، أما المعاملات فهي مصلحة الأمة ويحكمها بوضوح قول رسول الله: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

إن الشريعة جاءت لمصالح الناس، وهذه المصالح يمكن تقريرها عبر صيغ من مجالس الخبراء والحكماء، ولا بأس أن تكون خلاف ظاهر النص، فالنص يمكن تخصيصه أو تقييده، والعبرة بخصوص السبب وليس بعموم اللفظ، والأمة تنظر في مصالح الشعب وتختار الأصلح لهم في الدنيا، والقرآن والسنة يختار الأصلح لهم في الآخرة.

وعبارته في ذلك كما في كتابه التعيين: فإن وقع شيء من التعارض بين المصلحة التي

استُخرجت بالعقول وبين النصوص والإجماع يُرفع هذا التعارض. مما قرره حيث قال: «وهذه الأدلة التسعة عشر أقواها النص والإجماع، ثم هما إما أن يوافقا رعاية المصلحة، أو يخالفاها، فإن وافقاها فَبِهَا وَنِعْمَتْ، ولا نزاع إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم، وهي النص والإجماع ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار» وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتيات عليهما والتعطيل لهما، كما تقدم السنة على القرآن بطريق البيان». (١)

ولم يشترط الطوفي أن تكون المصلحة مرسلة بل تجاوز في ذلك الإمام مالك، وعبارته أن مصلحة الأمة واجبة الاتباع، والنص يخضع للتقييد والتخصيص، وهذا الموقف وأن كان مسجلاً للطوفي ولكنه في الواقع يشرح ممارسة فقهاء الشريعة في كل عصر، حتى قال الغزالي: لا نعرف خلافاً بين القائلين بالعموم في جواز تخصيصه بدليل العقل أو السمع أو غيرهما، والعبارة منسوبة للآمدي أيضاً، وهو مذهب أستاذنا الأصولي الدريني رحمه الله.

وهذه الحقيقة الواضحة يصرح بها أيضاً الإمام الجليل الشاطبي: أن مالكا وأبا حنيفة يريان تخصيص العموم بأي دليل كان.. ويستحسن مالك أن يخصص بالمصلحة.

وقال البلقيني: ليس في كتاب الله آية عامة إلا وطرأ عليها التخصيص إلا قوله: أن الله بكل شيء عليم.

بكل وضوح أعلن الطوفي أن العبادات تتوقف على النص، وأن المعاملات تتوقف على ثبوت المصلحة، وإنما تحتاج الأمة مجلساً من الخبراء والفقهاء للنظر في الامر (البرلمان العادل) وإقرار ما هو مصلحة للأمة في القانون المدني وقانون العقوبات وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها من القوانين.

كتب الإمام الطوفي كثيرة وأشهرها معراج الوصول: في أصول الفقه، والذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة. وتحفة أهل الأدب في معرفة لسان العرب. والإشارات الإلهية والمباحث الأصولية.

لم يسلم الإمام الطوفي من سهام التعصب وأطلقوا عليه شتائم شتى، حتى قال في قصيدة له:

حنبلي رافضي ظاهري أشعري إنها إحدى الكبر

(١) الطوفي الحنبلي، سليمان بن عبد القوي، ص ١٨ ط دار الريان بيروت ١٩٩٨

ربما يحتاج فقهاؤنا اليوم إلى بضع مئات أخرى من السنين حتى يدركوا ما حرره الإمام الحنبلي الرائع الطوفي بعبارة واضحة لا لبس فيها: إذا تعارض النقل مع المصلحة فالمصلحة أولى بالاعتبار، أو بعبارة أكثر وعياً وبصيرة قالها الإمام ابن القيم: حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله.

قناعتي أن الإمام الطوفي رحمه الله وضع الفقه الإسلامي على منصة التشريع البرلماني تأسيساً على مصالح الناس، واختار وعياً واضحاً بالقرآن الكريم: نور يهدي وليس قيداً يأسر.

الأمير عبد القادر الجزائري

الاسم الكامل	عبد القادر بن محي الدين الجزائري	
ألقاب مشهورة	القائد	الأمير
التاريخ	١٢٢٣-١٣٠٠هـ	١٨٠٨-١٨٨٣م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في الجزائر وقاد ثورة ضد فرنسا ثم احتجز في فرنسا ثم رحل إلى تركيا ثم استقر في دمشق	
أهم الكتب التي ألفها		
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثر بهم	محي الدين بن عربي – جلال الدين الرومي	

أهم من تأثروا به	الأمة الجزائرية – فقهاء الشام – حركات التحرر العربية والإسلامية
أهم قضايا نادى بها	• إخاء الأديان • وحدة الشهود •الدفاع عن الحرية
مساجد بنيت باسمه	عدة مساجد في الشام والجزائر وجامعة ومركز أبحاث
الضريح	في أعتاب الشيخ ابن عربي بدمشق، ثم نقل رفاته إلى الجزائر ١٩٦٦

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري أشهر أئمة الإسلام في القرن التاسع عشر، وقد قاد الجهاد الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، واكتسب بذلك شهرة كبيرة في العالم الإسلامي.

وحين نُفي إلى الشام بعد جهاده الطويل اختار من الشام مقام الشيخ محي الدين ابن عربي فكان يأوي إليه مؤكداً أنه ينتمي إلى تلك المدرسة العرفانية.

وقد أوصى الأمير عبد القادر أن يدفن في أعتاب الشيخ محي الدين ابن عربي، وقبره عنده مشهود ومعروف في تأكيد على التزامه منهج السادة الصوفية وبوجه خاص في مبدأ إخاء الأديان.

وكان الأمير عبد القادر قد شرح هذه الحقائق في كتابه المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، والذي اعتبره بمثابة شرح للفتوحات المكية للشيخ محي الدين ابن عربي، وفي قصيدته من البحر الطويل يشير فيه إلى لون من وحدة الشهود عند السادة الصوفية حيث تفنى الأنا في الذات وتظهر في الصفات، فيكون الكون كله مخبراً ومظهراً للكمال الإلهي، حيث يكون الإشراق والنور في باطن الذات، وفيه يجد المرء أحوال السالكين من كل الأمم والأديان والمذاهب:

أنا الحب والمحبوب والحب جملة ... فما زلت في أنا ولوهاً وحيراناً
ففي أنا كل ما يؤمله الورى ... فمن شاء قرآناً ومن شاء فرقاناً
ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلاً ... ومن شاء مزماراً زبوراً وتبياناً

ومن شاء مسجداً يناجى به ومن شاء بيعة ناقوساً وصلباناً
ومن شاء كعبة يقبل ركنها ومن شاء أصناماً ومن شاء أوثاناً
ومن شاء خلوة يكن بها خالياً ومن شاء حانة يغازل غزلاناً
ففي أنا ما قد كان أو هو كائن لقد صح عندنا دليلاً وبرهاناً
أنا الحبّ والمحبوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق سراً وإعلاناً (١)

وفي الواقع فإن الأمير عبد القادر الجزائري كان إماماً في التجرد، ومذهبه أن الله تعالى ظاهر في كل شيء، وفي الموقف السابع عشر يروي عن إمام الطائفتين الجنيد حين سألوه عن العارف والمعرفة فقال: لون الماء لون إنائه، وسكت، فكان يرى أن الكائنات تتمظهر حول الذات وتبقى الذات على الأصل، فمن الممكن أن يكون الإيمان صادراً من أي مذهب ومن أي دين ومن أي فلسفة، ولا يتغير جوهره في النهاية، وإنما يتلون بألوان الأواني. (٢)

وقد كان هذا الوعي الروحي المتقدم إشارة لوعي الأمير بالإخاء الإنساني والمشترك بين الأديان، وحين وقعت طوشة النصارى في دمشق ١٨٦٠ نهض الأمير عبد القادر لحماية النصارى في الشام، وفتح داره لاستقبال النصارى الذين جاؤوا هاربين من جبال لبنان، كما أرسل رجاله إلى قلعة دمشق حيث خصصها أيضاً لإيواء النصارى الهاربين من الطوشة، وقد عرف المسيحيون من أبناء الشام هذ الدور النبيل للأمير عبد القادر، ومع أنه يقع عموماً في باب الشهامة والمروءة ولكنه بكل تأكيد أثر من آثار إيمانه الكبير بإخاء الأديان.

وحين تقدم المسيحيون لشكره قال: «ما فعلناه من خير للمسيحيين ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإنسان؛ لأن كلّ الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله، أن كل الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين: تعظيم الله جلّ جلاله، والرّحمة بمخلوقاته، وما عدا هذا، ففرعيات ليست بذات أهمية كبيرة، والشريعة المحمدية من بين كل الشرائع، هي التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة، وكل ما يعزّز التآلف وينبذ التخالف، لكن بعض المنتسبين للدين المحمدي ضيعوه فأضلّهم الله».

(١) الجزائري الحسني، الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية
(٢) الجزائري الحسني، الأمير عبد القادر، المواقف ص ٥٥

جمال الدين الأفغاني

الاسم الكامل	جمال الدين بن صفتر الحسيني الأسدابادي	
ألقاب مشهورة	الاستراباذي- الأفغاني - الفارسي	
التاريخ	١٢٥٤-١٣١٥هـ	١٨٣٨-١٨٩٧ م
الولادة والارتحال والوفاة	من أفغانستان إلى الهند ثم إيران إلى مصر والحجاز ثم استانبول	
أهم الكتب التي ألفها	العروة الوثقى ـ البيان في الإنجليز والأفغان ـ تتمة البيان في تاريخ الأفغان.	
أهم ما ألف عنه	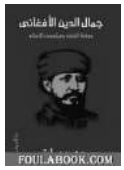	
أهم من تأثروا به	محمد عبده وحركة التنوير الإسلامي	

أهم من هاجموه	تيار الولاء للخلافة وللخديوي، ومن الكتب: تحذير الأمم من كلب العجم
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الجامعة الإسلامية • إخاء الأديان • الحرية ومقاومة الاستبداد
معالم بنيت باسمه	مدارس كثيرة ودور نشر ومراكز أبحاث وشوارع كثيرة
أفلام عنه	مسلسل تاريخي بطولة محمود ياسين

جمال الدين الأفغاني.. رائد الإصلاح والتنوير

يعتبر جمال الدين الأفغاني أبرز رجال الإصلاح الديني في نهاية القرن التاسع عشر، وقد عمل في شبابه رئيساً للوزراء في أفغانستان أيام الأمير محمد أعظم خان، وحين ولي بعده أخوه شير علي خان رحل الأفغاني في البلاد وتحول إلى صيحة للنهضة والثورة في العالم الإسلامي، وقد سجل له نشاط كبير في مصر وتركيا والشام والعراق والهند، وقد اكتمل دوره الإصلاحي في مصر عبر تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده الذي صار مفتياً للديار المصرية.

أعلن جمال الدين الأفغاني الحاجة لحلف ديني يجمع الإسلام والمسيحية واليهودية والبرهمية لمواجهة الصلف الأوربي الاستعماري، وكان يرى أن القيم الدينية متشابهة في الدعوة إلى حرية الإنسان وكرامته، وأن لقاء الأديان على الغايات الإنسانية أمر إيجابي تماماً وأننا قادرون على مواجهة الأطماع الاستعمارية عبر حلف ديني متوحد، يستخرج أجود ما في المجتمع من قيم الإنسانية والتضحية والفداء، ويقطع الطريق على المعاذير التي يتذرع بها الاستعمار لاحتلال الأرض.

ويمكن القول أن ما نقل عن جمال الدين في مسألة إخاء الأديان ليس إلا موقفاً سياسياً واجتماعياً ولا يتعدى ذلك إلى الجدل اللاهوتي، ولم يظهر من جمال الدين أي اهتمام بإنشاء

منصة مشتركة بين أبناء العقائد بل كان مشغولاً بحشد قوى المجتمع كلها للدفاع عن الحق والفضيلة والحرية.

وقد عقد الدكتور فارس الأشقر في كتابه جمال الدين الأفغاني قضايا ساحنة فصلاً خاصاً عن موقف جمال الدين الأفغاني من إخاء الأديان تحت عنوان وحدة الأديان عند جمال الدين الأفغاني، وكذلك كتب السيد محمد باشا المخرومي في كتابه خواطر جمال الدين الأفغاني فصلاً خاصاً بعنوان: الأديان الثلاثة متفقة في المبدأ والغاية، وكذلك كتب السيد إبراهيم غرايبة في كتابه جمال الدين الأفغاني فصلاً خاصاً بعنوان: الأديان الثلاثة في فكر الأفغاني، وقد جمعت هذه الدراسات كلاماً كثيراً للسيد جمال الدين الأفغاني حول إخاء الأديان، ومما قال فيه:

«ثم رجعت لأهل جرم الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين)، فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد، منصرفاً عن كل تقيد، مطلقاً للعقل سراحه، فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان، أن الأديان الثلاثة، الموسوية، والعيسوية، والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية. وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية.

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها. وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة»

وقال: «وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف.»

وقال: «وأما ما نراه من اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها ولا أثر له في كتبها. وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين.»

فالأديان في مجموعها هي الكل وأجزاؤها الموسوية، والعيسوية، والإسلام، فما كان من هذه الأديان كلها على الحق فهو الذي يتم له الظهور والغلبة. لأن الظهور الموعود به الدين إنما هو دين الحق ـ كما قلنا- وليس دين اليهود، ولا النصارى، ولا الإسلام، إذا بقوا أسماء مجردة ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك الدين الخالص» . (١)

(١) ما نقلناه عن جمال الدين ورد مفرقاً في الكتب الثلاثة المذكورة، وقد أوردنا نصاً كاملاً من كتاب السيد عبد الرحيم أبو علبه في كتابه شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، ص ٥٥ طبع جامعة بيروت العربية ٢٠٠٥

محمد عبده

الاسم الكامل	محمد عبده حسن خير الله
ألقاب مشهورة	رجل الإصلاح الديني
التاريخ	١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في طنطا ورحل إلى القاهرة ونفي إلى بيروت ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها
أهم الكتب التي ألفها	
أهم ما ألف عنه	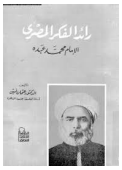
أهم من تأثر بهم	جمال الدين الأفغاني وشيخه درويش خضر والشيخ حسن الطويل

أهم من تأثروا به	سائر رجال الإصلاح الديني في مصر والعالم العربي ومنهم رشيد رضا وقاسم أمين وأحمد أمين وأحمد لطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• إصلاح التعليم الديني • ربط الوحي بالإشراق • إحياء رسالة العقل في الإسلام
مساجد بنيت باسمه	عدة مساجد في المنيا وإمبابة والجيزة وجواده، وفي الأزهر قاعة كبرى باسم الشيخ محمد عبده، ومراكز بحثية ودور نشر ومؤتمرات وحركات إصلاحية باسمه
أفلام عنه	مسلسل الإمام محمد عبده قام بالدور أحمد عبد العزيز، وفيلم آخر لقاسم أمين كان دور محمد عبده من نصيب توفيق عبد الحميد.
الضريح	في الإسكندرية

محمد عبده.. الشيخ الإمام

الأستاذ الإمام محمد عبده رائد المدرسة الإصلاحية .. ومؤسس «الجامعة الإسلامية» مع أستاذه الأفغاني يقول (ليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه، فالحاكم هو حاكم مدني من جميع الوجوه، بل إن الإسلام هو الذي قضى قضاءً مبرماً لم يسبق إليه أي دين، على السلطة الدينية من جذورها، وأنه يمثل بالتالي الدين العقلي من دون منازع) .

أطلق الشيخ محمد عبده رسالته في الإصلاح الديني ابتداء من كتابه رسالة التوحيد، وفيه قارب فهم النبوة بوعي ديمقراطي وتفسير علمي، وقامت قيامة المشايخ عليه، وعلى الرغم من

أن الرجل أمضى نصف عمره في سجون الإنكليز، إلا أن خصومه لم يتوقفوا عن اتهامه بالعمالة للإنكليز، ومع أنه كان أكبر فقهاء عصره واستحق بجدارة مكانة مفتي الديار المصرية، إلا أن خصومه لم يتوقفوا عن اتهامه بالجهل والماسونية وسلط زعرانهم عدداً من الأزهريين لتشويه صورة الشيخ.

التاريخ ينصف الرجال... بعد مائة عام الأزهر يعتذر للشيخ محمد عبده ويعلن تسمية أكبر قاعاته العلمية باسم قاعة الإمام محمد عبده، وقد تم تجديدها مؤخرًا لتكون قاعة الأزهر الرئيسية.

على كثرة ما كتب عن قادة النهضة في الفكر العربي مطلع القرن العشرين فإن اسم الشيخ محمد عبده لا يزال يتصدر أعلام هذه المرحلة على الرغم من قلة ما كتبه، وعلى الرغم من أن تراثه الفكري في معظمه قد تم التقاطه شفاهياً عبر تلامذته من بعده.

ولا شك أن التأثير الأكبر سيبقى لمحمد عبده ليس لأنه صنف في التنوير ما فيه الكفاية بل علينا أن نعترف بأن ذلك إنما تم لأن الرجل تمكن من تقديم رسالته من خلال موقع مؤثر، وهو إفتاء الديار المصرية، وهذا بالضبط ما يجعل صيحات الإصلاح تشتد أو تهن، فالإصلاح الديني البالغ التأثير هو ذلك القادم من المحاريب والمنابر، إذ لا تزال الأمة تسلم قيادها للمنبر والمحراب، بينما تستعصي على التنوير القادم من منابر الثقافة الأخرى.

كان يدرك تماماً جذور المشكلة، ولم يكن يكتم رأيه أن التخلف ليس ناشئاً من التفريط بالشريعة أو استدبار الكتاب والسنة، وإنما من الاستمساك بها على وجه لا يرضاه الله ولا رسوله.

وقد أطلق الشيخ رسالته من ضرورة الاجتهاد وأهميته ونبذ الجمود والتقليد لتحقيق مقاصد الريعة وأهدافها، والانتقال من الجمود إلى روح الشريعة ومحورية العقل في فهم الأحكام والتعامل مع النصوص.

ووقف الإمام بشدة في وجه الدعوات المطالبة بالتقليد والجمود، وهي الدعوات التي كان يتبناها الخطاب التقليدي، إذا أردنا التقدم إلى الأمام فإن علينا أن نعود إلى الخلف، وهو ما طبع الخطاب الديني في تلك المرحلة:

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وقف على ما وقف عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه، وما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، وأنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون.

وكان ما قام به الإمام بالفعل أنه أعاد وضع الحصان قبل العربة، إذ جعل من تياره الفكري الإسلامي في مقدمة المجتمع ودفع باتجاه التطور والتقدم والتجديد.

وعلى صعيد الفكر الإسلامي، رفع الإمام مطالب المرأة بالتحرر ودافع عن حقوقها، كما تحدث بوضوح شديد عن مدنية السلطة السياسية في الإسلام مع الحفاظ على وظائفها الدينية وقد وصف السلطة الإسلامية وصفا دقيقا يقوله «إن السلطة الإسلامية هي سلطة مدنية بوظائف دينية».

يمكن تلخيص رسالته التجديدية في إصلاحات ثلاثة:

الأول: دعوته إلى تحرير المرأة من غياهب الحريم ومنحها موقعاً مكافئاً في الحياة الاجتماعية يتناسب مع حقوقها الإنسانية وقدراتها في بناء الحياة، وهو ما حرره بإسهاب تلميذه قاسم أمين رائد تحرر المرأة في مصر والبلاد العربية.

الثاني: الدعوة إلى الإخاء الديني من خلال إحياء المشترك بين رسالات الأنبياء، والدعوة إلى التقريب بين الأديان والبحث في مقاصدها وإطلاق المشاريع المشتركة للتعاون الديني في سبيل إنهاء الحرب وإطلاق رسالة السلام في الأرض

الثالث: الدعوة إلى الاجتهاد، فالنص يتناهى والحوادث لا تتناهى، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، وللشريعة عشرة مصادر ينبغي إحياؤها جميعاً، منها الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف وسد الذرائع وشرع من قبلنا ومذهب الصحابي.

ولا شك أن دعوته إلى الاجتهاد لم تكن تتحرك في فضاء سهل بل كانت تواجه المسألة من الجذور، حيث تقف مباشرة أمام السؤال الكبير أين هو أفق الاجتهاد المأذون به وأين هي فضاءاته، وهل يقتصر على إعادة إنتاج تراث القدماء وطباعة الكتب الصفراء على أوراق بيضاء.

لقد مضى إلى الحفر في بنية الاجتهاد وإشكالية العلاقة بين البرهان والإيمان وفق رؤية عبد الرزاق عيد: الحفر من أجل فك الارتباط بين الميثوث واللوغوس، بين الديني والدنيوي، بوصفهما نسقين متغايرين على اعتبار أن أدوات الأول الإيمان، والثاني البرهان، أي الأول الديني (القيم) الذي لا يقبل (لماذا، وكيف) حسب تعبير أبي حيان التوحيدي المعتزلي، والثاني الدنيوي (الوجود) الذي أداته البرهان لارتباطه بعالم الحس والتجربة والنسبية والصيرورة.

وفي الواقع فإن فكر الإمام محمد عبده برز من خلال رجال ثلاثة:

الأول: قاسم أمين الذي قدم طرحه الجريء لقضايا المرأة وأطلق حملة تحرر المرأة وهي

الحملة التي لا تزال إلى اليوم تلهم تيار تحرر المرأة وتقود كفاحهن ولكن علينا القول أن محاولات الإمام محمد عبده لتنوير العقل الإسلامي بعث أسباب انطلاقته ورشده.

الثاني: الشيخ علي عبد الرازق الشيخ الشجاع الذي قال بكلمات مختصرة ما كتب من أجله الأقدمون المجلدات الطوال، واختصر ما تريده حركة التنوير في العمل السياسي بكلمة واحدة إنها الديمقراطية بلا أسرار، وقدم عشرات الأدلة على أن الإدارة النبوية للدولة لم تكن لتتجاوز ذلك.

الثالث: رشيد رضا الذي استأنف نشاطه الاجتهادي وحرر عنه المنار، ولكنه مضى فيما بعد إلى خيار النص، في معالجة سلفية لشروط النهضة نعتقد اليوم أنها كانت أدنى بكثير من طموحات محمد عبده، ويمكن قراءة ذلك في تفسير المنار الذي حرره الشيخ محمد رشيد رضا رواية عن الإمام فعلى الرغم مما فيه من خيارات مضيئة فإنه مضى إلى التزام منهج سلفي متشدد في المسائل النصية ولم يبلغ حتى خيارات ابن حزم في حرية الاجتهاد في فضاء ما سكت عنه النص.

ولكن بعد مائة عام هل تمكنت المؤسسة الدينية اليوم من الوعي بإصلاحاته وإنجازاته، وهل تتلقى إصلاحاته بالروح التي كان يتوق إليها؟

إننا بكل أمانة نتحرج اليوم ليس من التفكير على منطق محمد عبده بل من مجرد الإشارة إلى آرائه التقدمية، ومع أن قدراً غير قليل من منابر الثقافة في العالم الإسلامي تأثر بفكر الرجل، وخصصت أقسام خاصة في الجامعات العربية لدراسة فكره وتجديده، واسمه اليوم في الأزهر على أهم قاعات التعليم فإنه ما زالت المؤسسات التي تتخصص في التعليم الشرعي إلى اليوم تنظر بركام من الريب إلى فكر محمد عبده، على سبيل المثال فإن الرجل الذي كان مفتياً في أكبر بلد عربي إسلامي قبل مائة عام يدرس اليوم في بعض الكليات الشرعية على أنه هرطوق!! ويتولى عدد غير قليل من رجال الدين المعاصرين تكريس سلسلة دراسات تهدف إلى وصم قادة التجديد الإسلامي بالماسونية، وأنه مفتون بالغرب وأنه عميل إنكليزي إلى آخر قائمة الاتهامات حيث يتم إدراج أسماء بالجملة: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ورفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد وطه حسين ومحمد فريد وجدي ومصطفى المراغي وطه حسين، ومنصور فهمي، وعلي عبد الرازق وعبد الرحمن الرافعي وأحمد شوقي وحافظ إبرهيم ومحمد شفيق غربال، في إرادة واضحة لتلطيخ رموز النهضة حتى لا يفكر أحد بعد ذلك بالنهضة من جديد.

إن الرجل الذي تخرج من الأزهر وعاش حضارة الغرب في عواصمها كان من وجهة نظري عصياً على الاستهلاك، وظلت رسالته المكورة في عمامته ترسم ملامح نهضة شرقية إسلامية، ولم يكن أبداً يخفي حزنه لإخفاق المؤسسة الدينية في التجاوب مع إصلاحاته، وقد سجل ذلك في قوله:

ولست أبالي أن يقال محمد أبلَّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

إننا نشعر اليوم بأن الرجل الذي قاد كفاح الأمة التحرري للنهوض برسالة العقل يواجه اليوم بركام من الريب، ويتم التعرض له التيار السلفي غمزاً وهمزاً تحت اسم اتجاه العصرنة والفرنجة، وتتم الإشارة إلى خياراته في الفقه الإسلامي على أنها مواقف معتزلية شاذة لا يرضاها جمهور الأمة ولا علماؤها.

اليوم يواجه الشيخ محمد عبده بالاتهامات المختلفة على أساس أنه كان يغرد خارج السرب، ومن أجل مواجهة خطابه الإصلاحي فإن الاتهامات جاهزة تارة بوصمه بالعقلانية! وكأن استعمال العقل أو الاحتكام إليه سبة يجب تنكبها، وتارة بحجة العلاقة مع الإنكليز مع أنه عاش ستة أعوام بين سجونهم ومنافيهم!

أن سائر رموز التجديد في البلاد العربية والإسلامية يبدؤون عادة تاريخهم عن التجديد بذكر الشيخ محمد عبده، وفي إشارة لافتة فإن إدارة الفتوى فى مصر قد أطلقت اليوم برنامجاً طموحاً لجمع فتاوى محمد عبده، وهي خطوة ذات دلالة ومغزى، وأنني أرجو أن تنطلق هذه المبادرة إلى سوريا ويتبوأ الإمام منزلة مناسبة في برنامج طلبة العلم الشرعي.

واشتهر الشيخ بالتوسع في قبول مدارس الإيمان، ومن كلامه: وإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، وجب حمله على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.

موقف الشيخ محمد عبده من مسألة إخاء الأديان:

غابت فكرة إخاء الأديان في أعقاب الحروب الصليبية المستعرة التي ظلت تلقي بظلالها وتداعياتها على العالم الإسلامي لأكثر من قرنين من الزمن، ثم تواصلت كذلك في الحروب العثمانية في أوروبا، ثم الاستعمار الأوروبي، وبذلك فقدت الفكرة تأثيرها وحضورها الذي ظهر بشكل واضح أيام الفتح الإسلام للشام والعراق ومصر، وسادت أجواء القطيعة والكراهية

بين أتباع الأديان.

ويمكن رصد عودة الفكرة من جديد على يد عدد من أئمة الإصلاح أبرزهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، حيث شكل الشيخ محمد عبده ظاهرة صحوة إسلامية متميزة، وأسهم بشكل رئيسي في حركة النهضة الإسلامية مطلع القرن العشرين.

وفي موقفه من حوار الأديان قدم الشيخ محمد عبده رؤية متقدمة، تقوم على التصديق بما بين أيدينا من التوراة والإنجيل، وفق ما أخبر به القرآن في ١٤ موضعاً، بعبارة: مصدقاً لما بين يديه.

وقد ركز الشيخ محمد عبده على هذا المعنى، وطالب بوعي جديد فيما يتصل بالأديان الأخرى، والتركيز على المشترك بين الإسلام والمسيحية، وقد ظهر وعيه بهذه المسألة بشكل خاص خلال نفيه إلى بيروت ١٨٨٣م حيث أدرك التنوع الديني القائم في لبنان، وحتمية إطلاق برامج للمحبة والإخاء بين أتباع الديانتين، وبالفعل أسس بالتعاون مع القس الإنجليزي إسحق تيلور أول هيئة للتقريب بين الأديان، وقد نصت الجمعية على أول هدف من أهدافها كالتالي:

١-التقريب بين الأديان السماوية وإزالة الشقاق بين أهلها.

وفي رسالته للقس تيلر المنشورة في الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، أطلق الشيخ محمد عبده وعياً متقدماً وجريئاً، وقال فيه: وأنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة، وصحفاً متصادقة، يدرسها أبناء الملتين، ويوقّرها أرباب الدينين. (١)

ويمكن اعتماد ما أورده رشيد رضا في تفسير المنار موقفاً مباشراً للشيخ محمد عبده، حيث نص رشيد رضا أن هذا التفسير هو محاضرات الإمام في تفسير القرآن وأنه راجعها بنفسه، وفي هذا السياق قال في تفسيره للآية القرآنية «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» (النساء: ١٢٤)، في كتابه «المنار»: «هذه الآية تعني أن كل من يعمل ما يستطيع عمله من الصالحات، وهو متلبس بالإيمان مطمئن به، فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم».

ويضيف هنا من كلام الإمام: هذا وإن في هاتين الآيتين من العبرة والموعظة ما يدك صروح الأماني ومعاقل الغرور التي يأوي إليها ويتحصن فيها الكسالى والجهال والفساق من المسلمين الذين جعلوا الدين كالجنسية السياسية، وظنوا أن الله العزيز الحكيم يحابي من يسمي نفسه مسلما، ويفضله على من يسميها يهوديا أو نصرانيا بمجرد اللقب، وأن العبرة بالأسماء والألقاب

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ج ٢ ص ٣٥٦

لا بالعلـم والعمـل، ومتى يرجع هؤلاء إلى هدي كتابهم الذي يفخرون به، ويبنون قصور أمانيهم على دعوى اتباعه؟ وقد نبذوه وراء ظهورهم، وحرموا الاهتداء به على أنفسهم. (٢)

وفـي تفسـيره للآية القرآنية التي تقول «إن الذين آمنوا، والذيـن هادوا، والصابئون والنصارى، مـن آمن باللـه واليوم الآخر وعمـل صالحاً، فلا خوف عليهـم ولا هم يحزنـون» (المائدة ٦٩)، يقول ما نصه: فالآية بيان لسنة الله – تعالى – في معاملة الأمم، تقدمت أو تأخرت، فهو على حد قوله – تعالى –: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون اللـه وليـا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمـون نقيـرا) (٤: ١٣٣ – ١٢٤) فظهر بذلك أنه لا إشـكال في حمـل من آمن بالله واليوم الآخر. . . إلخ على قوله: (إن الذين آمنوا) . . . إلخ، ولا إشـكال في عدم اشـتراط الإيمان بالنبي – صلـى الله عليه وسـلم؛ لأن الكلام في معاملـة الله – تعالى – لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة؛ لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئـة مثلا، فالله يقول: إن الفوز لا يكون بالجنسـيات الدينيـة، وإنما يكون بإيمان صحيح له سـلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس؛ ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسـب أماني المسلمين أو أماني أهل الكتاب، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسـلمين: نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحـن علـى دين إبراهيم، ولن يدخـل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصـارى مثل ذلك، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم، ونبينا – صلى الله عليه وسلم – بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، نحن على دين إبراهيم وإسـماعيل وإسحاق، ولـن يدخـل الجنة إلا من كان على ديننا، فأنزل الله – تعالـى –: (ليس بأمانيكم) (٤: ١٢) الآية. وروي نحـوه عن مسـروق وقتادة. وأخـرج البخاري في التاريخ من حديـث أنس مرفوعا ((ليس الإيمـان بالتمنـي، ولكـن ما وقر في القلـب وصدقه العمـل. إن قوما ألهتهم أمانـي المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسـنة لهم، وقالوا: نحن نحسـن الظن بالله – تعالى – وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل)). (٣)

وفـي الواقع فإن الطرح المتقدم الذي أعلنه الشـيخ محمد عبـده وهو مفتي الديار المصرية قد

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٥ ص ٣٣٥٧
(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١ ص ٢٧٩

أسـهم في إنقاذ مصر من موجات الكراهية، وأسس للقاءات على أعلى مستوى تتم بين القيادات الدينيـة في مصر لمواجهة ريـاح التطرف التي تظهر بين الحين والآخـر وتهدد وحدة البلاد وأمن العباد.

وعلى الرغم من أهمية الجانب البروتوكولي في هذه اللقاءات فإن الشيخ محمد عبده يكشف عن وعي عميق بإخاء الأديان ويؤسـس لرغبة صادقة لاحترام متبادل للكتب السـماوية، ويرهص بالفكرة التي تطالب بها اليوم هيئات تعليمية واجتماعية كثيرة بتوحيد مادة التربية الدينية لتشـمل التعريف بالإسـلام والمسـيحية في مصر، بحيث يتلقى المسلم والمسـيحي معرفة كافية بالدينين من المؤسسة التعليمية الوطنية بعيداً عن الإقصاء والتعصب.

كما أنه يؤسس للجهود العلمية التي تهدف إلى الجمع بين فرائد الحكمة في الكتب المقدسة واختيار تأويل مبني على احترامها جميعاً، كما يؤسـس لاعتراف متبادل بين الإسـلام والديانات الأخرى، وأنهاء فكرة إبطال الأديان وإلغائها، وبناء بيئة تتشارك فيها الأديان على أساس الاحترام والمساواة.

محمد إقبال

الاسم الكامل	محمد إقبال بن الشيخ نور محمد تنهو السيالكوتي
ألقاب مشهورة	فيلسوف الإسلام ـ شاعر الإسلام ـ مؤسس باكستان
التاريخ	١٢٩١ - ١٣٥٧هـ / ١٨٧٧-١٩٣٨ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في سيالكوت وهي اليوم ضمن باكستأن طاف الهند وأوروبا وأفغانستان وعاد وتوفي في البنجاب بباكستأن
أهم الكتب التي ألفها	
أهم ما ألف عنه	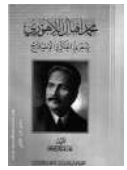
أهم من تأثر بهم	الفاروقي السرهندي ابن رشد فريدريك نيتشة هواتهد

أهم من تأثروا به	الشعب الباكستاني كله ومسلمي القارة الهندية والعرب، والمودودي والندوي ومن الشعراء الذين نهجوا نهجه: مصطفى المنفلوطي، أحمد أمين، مصطفى صادق الرافعي، عمر بهاء الدين الأميري
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• قيام العالم الإسلامي • الحرية وكرامة الإنسان • الثورة على الكهنوت الخانع
مساجد بنيت باسمه	جامعات ومدارس ومراكز بحث وقاعات فن في الهند والعالم العربي وأفغانستان وإيران
أفلام عنه	غنت كلماته أم كلثوم، وصدر فيلم إيراني بعنوان إقبال اللاهوري، وتم إعداد عشرات الأفلام الوثائقية عن حياته وعلمه وشعره
الضريح	في ديوان إقبال في لاهور

محمد إقبال.. شاعر الإسلام

يعتبر محمد إقبال ١٨٧٧-١٩٣٨م أبرز صوت استنهض الحضارة الإسلامية في القرن العشرين، وقد سخّر موهبته الشعرية الفريدة لبعث إرادة التنوير، وأحيا ثقافة الوعي بالأديان بوصفها سبلاً تدل على الله، وأكد أن الصراع بين الأديان محض وهم لا ينفع في شيء إلا في تحطيم عزائم المؤمنين من كل الأديان، وتراجع الروح لصالح المادة.

ومـع أننـا لن نعثر على مصطلح إخاء الأديان في أدبيات إقبال، ولكن يمكنك قراءته في منهج إقبال الذي طرحه مرّات كثيرة، وربّما كان أوضح صورة لمنطق إقبال في إخاء الأديان هو ما قدمه في ديوانه الكبير «رسالة الخلود»، أو كما سمّاه بالفارسية (جاويد نامه). (١)

ففـي ديوانه هـذا يدوّن إقبال فكره وفلسـفته في رحلـة روحانية غنية يطوف فيهـا بين الأفلاك التسعة، ويتحدث في كل سماء إلى حكيم، ومن المدهش أن حكماء إقبال وفلاسفته لا يعكسون نمطـاً متطابقـاً، كأنبياء المعراج مثـلاً؛ بل إنها كانت جولة عجيبة التقى فيهـا إقبال بالأديان كلها، مؤمنيـن ووثنيين وملاحدة، وأنبياء وطواغيت، وقديسـين وأبالسـة، ومتقين ومسـتكبرين، ولكنه تمكّـن من حشـد الحكمة علـى أفواههم جميعاً في منصّات السـماء التي كانت تفـرد لكلٍّ منهم منصّةً ومنبراً.

يبـدأ إقبـال بمناجـاة عميقة، لحائر يبحـث عن نور الحق، وفـي غمار مناجاتـه الصادقة يظهر لهـا فيها جلال الدين الرومي، الذي سـيكون مرشـد الشـاعر ورفيقه في معراجـه الفريد، وينطلق المشوار إلى السموات في رحلة العرفان واليقين.

ويعكـس جلال الديـن الرومي، في معراج إقبال، دور جبريل في معراج محمد؛ فهو المرشـد والدليل، وفي بريق عينيه سـيتمكن إقبال من قراءة التفسـير الصحيح لرسالة الحكماء والفلاسفة والأنبياء، الذين سيقابلهم إقبال في معراجه السماوي العجيب.

فـي القسـم الأوّل يزور إقبـال القمر، وهنـاك يجد الحكيـم الهندي جهان دوسـت (**Jahan Dust**) يمارس اليوغا الهندية، ويحدّث إقبال عن السلامة الحقيقية في هذا العالم، التي تكون باتحاد العقل والقلب والمادة والروح.

ويعرف الهنود الحكيم جهان دوسـت باسـم صديق العالمين، ولا شك في أن هذا الاستهلال يكشف مراد إقبال في معراجه الروحي، الذي استطاع من خلاله أن يؤسس صداقة ومحبة مع كلّ الحكماء والشعراء والفلاسفة في الأرض.

ومـع أن إقبـال كان يعيش صخب الغضب الهندوسـي وطيشـه، وما أفرزه مـن نزعة انفصالية عـن القارة الهندية بعد سلسـلة من المواجهات الدموية بين المسـلمين والهنـدوس، ولكنّ إقبال نجح في تحييد الحكمة عن السياسة والفلسفة عن المصالح، وحاول الدخول إلى عمق الحكمة

(١) يؤسفني أن أقول إن هذا الديوان الرائع بفكرته الفريدة وموضوعه الإنساني الجامع لم يحظَ بالاهتمام الذي يليق به، والنظم الذي قدمه حسين مجيب المصري ضعيف جداً، ولا يشبه في شيء الشعر الجزل الذي قدمه الصاوي شعلان وزهير ظاظا، وأنا أدعو الأخ زهير لإعادة نشر هذا الديوان بلغته الشعرية الجزلة وإحياء المعاني الفريدة التي يحملها الديوان في إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

الهندوسية، وروعة ما تقدّمه تلك الحكمة العتيقة من صورة النيرفانا الأخيرة التي يحاول الناسكون أن ينجزوها على الأرض بالمكابدة والمجاهدة وتزكية النفس.

ثم يذهب إقبال ورومي إلى وادي جرغميد، وهناك يلخّص إقبال لقاءه بالأنبياء الأربعة بوذا وزرادشت والمسيح ومحمّد، ويقدّم مجموعة رائعة من إلهاماتهم العظيمة التي يتبعها الملايين في الأرض، ومع أنه لا يلتقي بهم، لكنه ينقل عن كتبهم، ويضيف أفقاً فريداً في نقل معارفهم ونبوءاتهم، فينقل حكمة بوذا على لسان فتاة راقصة، فيما ينقل حكمة زرادشت على لسان أهرمن، والعجيب أن أهرمن هو الإله السلبي في العقيدة الزرداشتية، وهو نقيض أهورا مزدا الذي يحمل الخير للناس، وينقل عن المسيح على لسان تولستوي؛ أمّا التعرف على النبي محمّد، فينقله على لسان أبي جهل!!

ومن العسير أن تستنبط تعليلاً منسجماً لموقف هؤلاء الأربعة المتناقضين للتعبير عن ذوات متشابهة، فما الذي يجمع فتاة راقصة بأهرمن وتولستوي وأبي جهل، فيما نريد التعرّف على أربعة من الحكماء التاريخيين الهائلين بوذا وزرداشت والمسيح ومحمّد؛ أنه في الواقع سيناريو غير عادي لتفسير التاريخ، يشبه الاختيارات الهوليودية الصاخبة لتفسير الواقع.

ومن المؤكّد أن إقبال قصد إظهار أجود ما في هذه الرسالات، واختار طرقاً غير متشابهة للتعبير عنها، ولعلّ القارئ الكريم يستغرب أن يكون أبو جهل هو من يشرح طبيعة الرسالة المحمدية، وفي الواقع، أن إقبال أراد أن يسمع الناس سبب اعتراض قريش على الرسالة ومعانيها الإنسانية في المساواة والحرية والإخاء، وهي المعاني الإنسانية النبيلة التي كان ينكرها الناس آنذاك، بوصفها طيشاً صبيانياً، لكنّها باتت اليوم على رأس حقوق الإنسان في العالم كلّه.

وفي وعيه بإخاء الأديان ينطلق إقبال من قوله تعالى {إن الله واسع عليم}[سورة البقرة ١١٥].

وقد بنى إقبال على هذه الحقائق القرآنية موقفاً في غاية الشجاعة والتسامح، وقال بوضوح:

إن الصلاة بوصفها سلوكاً بشرياً ومنزعاً إنسانياً ظهرت في صور كثيرة: {ولكلّ أمّة جعلنا منسكاً هم ناسكوه} [سورة الحج ٦٧].

إن أشكال العبادة لا ينبغي أن تكون محلّ نزاع، فالقرآن الكريم أخبر أن الله يتسع لكل السالكين إليه، ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله. (٢)

وهذا الفهم الذي حمله إقبال يعكس الروح الإنسانية التي تحلّى بها، وهو ما أكّده القرآن الكريم

(٢) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٠٦.

في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [سورة البقرة ٦٢].

أمّا القبلة التي نتوجّه إليها في الحرم الشريف، فهي ذات بعد اجتماعي يحقّق التواصل والمساواة، ولا يمكنني أن أفهم أن الله أقرب إلى مكّة من أيِّ مكان آخر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

ويتحدث إقبال عن إيمان الأمم، فلا ينازع فيه. لقد نصّ القرآن بوضوح: ولكلّ جعلنا منسكاً هم ناسكوه، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً؛ إنها إذاً نوافذ ترى فيها مقلة العابد وجه الله. وفي قراءته العابرة للثقافات كان يؤكّد حقيقة وحدة الشهود التي اقتفى فيها أثر معلميه الكبار. (٣)

وفي إشارة جدّ واضحة لمعنى المساواة الذي يقدمه الإسلام، يشير إقبال إلى عمق المساواة في الإسلام، وهو فهم يتعذّر على إدراكه بعد أن حسم أمره في تصنيف الناس، وأخرج المنبوذين من دائرة الإنسان؛ إنها ثورة روحية هائلة أن يقبل البرهمي الأرستقراطي الوقوف إلى جانب المنبوذين في صلاة واحدة!. (٤)

وتطوف تأمّلاته بين الشرق والغرب، ويجتهد أن يقرأ لوحة الإيمان على كلّ الشواطئ؛ إنها الفطرة والعقل؛ إنها شيء لا يعتنقه الناس بسبب مضاء سيوف الفاتحين ولا حتى قوة براهينهم؛ إنه شيء يتدفّق من داخل الإنسان بوصفه مشروع الله وبرنامجه في الأرض؛ إنه شيء يرتبط بالعجينة الأولى التي فطرها الله بيديه، ونفخ فيها من روحه، ونشرها على قدمين وقال لها: ألست بربّكم؟

وإقبال يتفهّم الحيرة التي تلازم الباحث عن الحقيقة؛ فالحقيقة ليست حسماً صارماً يمنح اليقين ويلقي بالآخر في دائرة الوهم، واللحظة التي يكتشف فيها المرء الحقيقة لا تطول؛ أنها سرعان ما تتحول؛ إنها تقرّ لحظات ريثما تنضج الأسئلة الجديدة وتبدأ زلزلة العقل من جديد.

إنه يتوقف عند وايتهد في عبارة ذات دلالة عميقة: الكون ليس حقيقة قارّة... أنه جدل متلاطم، ثمّ يعيد اكتشاف هذه الحقيقة عند برغسون الذي بنى فلسفته على مبدأ أن الحقيقة هي حيوية حرّة خالقة لا يمكن التنبّؤ بها.

وهذه الحقيقة التي رسمها إقبال بريشة بارعة هي التي جعلته يطوف حول المدارس والمعابد، على رغم ما فيها من تناقضات، يبحث فيها عن الحقيقة الواحدة، فاليقين ليس صورة الحياة

(٣) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٠٨.
(٤) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١١١.

الخلّاقة؛ بل الشكّ والاضطراب والتلاطم، ومهما علا صياح الواعظين، واشتدّ غضبهم من المخالفين، فإن الحقيقة مستقرة هنا وهناك، وليست السماء وحدها من تنبت الزرع؛ إنه التراب أيضاً وزند الفلاح وجودة البذار، ولن تخرج إلى العالم سنبلة جديدة إلا باقتفائها من موارد متناقضة متباعدة.

إنه، إذاً، صدى نداء يهتفه الإنسان في كلّ أرض، ويراقص خيال الباحثين عن المثل الأعلى في كلّ أمّة وكلّ دين، وحين نقرأ عن مجتمع بلا تأمل، ولا إيمان، فنحن نقرأ عن المقابر فحسب؛ فالإنسان حيوان عابد، ولن يكون غير ذلك، وقبلته السماء وميتافيزيقها، وسيظلّ عبداً للغيب ولو كان أسير عالم الشهادة.

مرتجى داود في مزموره ... أمل عاش عليه الحنفاء
وبه موسى دعا في طوره ... ربّ فاجعل كلّ شعبي أنبياء
خلع الهندي شوقاً ثوبه ... ثم ألقى الرحل في نهر بنارس
دلّه رحماك وارحم شوقه ... فلقد أضناه تنقيب المدارس (٥)

ثم يذهب بالأشواق والأحداق إلى سلوك الأمم في ابتغائها وصال السماء، وتحرّرها من إسار الأرض، فيرى أنها تسير السيمرغ ذاته، وتكابد الطريق للوصول إلى الحقيقة ذاتها؛ حيث تتساقط الأوهام كلها في الوادي، ولا يبقى على سبيل اليقين إلا السيمرغ الوحيد يصل بجناحيه إلى سدرتك، ويبسطهما في رحاب حضرتك.

أنت وحدك من تملك أن ترشدهم إليك أو تصدّهم عنك، ولكنني، أيّها السيّد الجليل، أدركت بيقين أنهم يرفعون زفراتهم إليك مهما كان منبر التوق الذي يرتقون، ومهما كانت صيغة المناجاة التي يرددون، فالمقصود أنت أيّها الظاهر الباطن الأوّل الآخر، يا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

ولقد تسمع آهات المجوس ... تصطلي عمداً على نيرانها
ترتجي من كفّك العظمى يداً ... تسكب الترياق في أجفانها
هل سوى الشوق إلى وجه الحبيب ... أمل فيه النصارى يخلصون
أترى مدمعهم حول الصليب ... هل لغير الحبّ قاموا يركعون (٦)

(٥) الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما دوّنه إقبال في معراجه في أرمغان حجاز. انظر: ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج ٢، ص ٤١٢.
(٦) المصدر نفسه.

وتتفق هذه النظرة مع سياق الإمام الكبير الذي اتخذه إقبال معلماً خالداً وهو جلال الدين الرومي، الذي كان أبرز من كرّس إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وعدّ السلوك إلى الله موقفاً عابراً للأديان والمذاهب والطوائف.

وفي قصيدة فريدة ترجمها ونظمها عبد الوهاب عزام، وهي تبدو دون قصائد إقبال صورةً وشاعريةً، ولكنها تتصل مباشرة بالمقصود، وقد آثرنا تركها كما هي، وقد سمّاها: «العالم معبد الله»، يقول إقبال:

إنما العالم طرّاً معبد ... كلّ من أحسن فيه يعبد
كلّ من أدلى بقول طيب ... ينبت الخير كغيث صيب

كلّ من أحسن يوماً عملاً ... كل من أحيا مواتاً هملاً
كلّ من في أرضه قد زرعا ... ليقيت الناس والعجم معاً

كلّ من يغرس مخضر الشجر ... فيه للإنسان ظلّ وثمر
كلّ من يحفر بئراً في السبيل ... تنفع الظمآن من حرّ الغليل

كلّ من يبني بناء حسنا ... كلّ من في صنعه قد أتقنا
كلّ من أحدث علماً للبشر ... ينفع الناس ولم يقصد لشر

كلّ من في دهره قد أجملا ... فكرة أو قولة أو عملاً
كلّهم لله نعم العابد ... كلّهم للخير نعم القاصد

العالم كلّه معبد الله، والخلق عياله، وكل خير تبذله في الأرض هو صلاة، والعالم بستان الله، والناس في حال صلاة طالما كانوا يخدمون الآخرين ويبذلون المعروف.

مالك بن نبي

الاسم الكامل	مالك بن نبي	
ألقاب مشهورة	رئيس جامعة قسنطينة، فيلسوف النهضة	
التاريخ	١٣٢٣-١٣٩٣ هـ	١٩٠٥-١٩٧٣ م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في قسنطينة بالجزائر ورحل إلى فرنسا وإلى مصر والشام وتوفي في الجزائر	
أهم الكتب التي ألفها	صدر له نحو ٣٠ كتاباً بالفرنسية وترجمت إلى العربية وهذه أهمها	

أهم ما ألف عنه	صدر عنه عشرات الكتب وهذه أهمها
أهم من تأثر بهم	فلاسفة الإسلام
أهم من تأثروا به	التيار العقلاني في الإسلام ومن تلاميذه عمر مسقاوي وجودت سعيد وخالص جلبي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• شروط النهضة • القابلية للاستعمار • الحنيفية كمنصة للأديان
مساجد بنيت باسمه	جامعات ومدارس ومؤتمرات ودراسات كثيرة
أفلام عنه	أنجزت معظم القنوات العربية أفلاماً وثائقية عن مالك بن نبي
الضريح	في قسنطينة الجزائر

مالك بن نبي .. فيلسوف النهضة

مالك بن نبي ١٩٠٥-١٩٧٣م أشهر المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين، وقد استطاعت دراساته الاستشرافية للواقع الحضاري للمسلمين أن تقدم رؤية محكمة سرعان ما صارت الصورة المفضلة لجيل الصحوة الإسلامية الذين رأوا في هذا المفكر رؤية شديدة البصيرة وواضحة الغايات.

وفي الواقع فإن مالك بن نبي طرح الحوار باستمرار على أساس أنه حوار الحضارات، أكثر مما هو حوار الأديان، فلم يكن يعنيه الجدل في اللاهوت ولكنه كان يقدم قراءته للحضارة

الإسلامية بوصفها حصيلة تفاعل هائل بين عدد كبير من روافد النهضة والفكر والوعي، وكان يجتهد في أن يقابل ما أنجزته الحضارة الإسلامية بما تنجزه الحضارات القائمة، ويركز على نقاط اللقاء والفراق بين الحضارة الإسلامية والحضارات الحديثة.

ومع ذلك فإن بإمكاننا أن نرصد كثيراً مما قدمه مالك بن نبي لفكرة الحوار بين الأديان، وبشكل خاص للتركيز على المشترك بين الأديان السماوية بوجه خاص، وقد صرح مالك بن نبي بوضوح «أن القرآن يصرِّح بقوّة بأنه ينتسب إلى الخط التوراتي، وهو يُطالب دوماً بمكانته في السياق التوحيديِّ، وتبعاً لذلك فهو يؤكد بصراحة إمكانية وجود مطابقة بينه وبين أجزاء التوراة الخمسة الأولى، وبينه وبين الإنجيل، وهو يصرِّح، وبصفة قاطعة، بأنه ينتسب إلى تلك السلالة من الكتب السماوية، وهي الحقيقة التي يُذكِّرُ بها الرسول (ص) عند الحاجة. ومن بين الآيات التي تنطوي على تلك القرابة بين القرآن من جهة والتوراة والإنجيل من جهة أخرى، قوله تعالى: وما كان هذا القرآن أن يُفترى مِنْ دون الله، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديْهِ وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين» (يونس ٣٧). وممَّا سبق، يَستنتِج بن نبي ما يأتي: « ومع هذا فإن هذه القرابة تُبْقِي على صفةٍ مُمَيِّزةٍ للقرأن الكريم، وهي: أن القرآن يظهر وكانه يُتمِّمُ، بل ويُصحِّحُ ما جاء في التوراة في أكثر مِنْ شأن».

ويوضح مالك بن نبي أن مصطلح الحنيفية والابراهيمية هي مصطلحات قرآنية ولكنها ذات نزعة واضحة في بناء مشترك إيماني بين الأديان السماوية، ويستعرض مالك بن نبي ببساطة المشترك بين المسيحية والإسلام عبر عنوان الحنيفية، وفي سعيه إلى تلخيص الأخلاق الخاصة بكل ديانة من ديانات التوحيد الثلاث، استنتج مالك بن نبي أنه إذا كانت الوصايا العشر الواردة في أجزاء التوراة الخمسة تدعو إلى «ترك فعل الشّر»، وأن الأناجيل تدعو إلى «عدم محاربة الشر بالشر»، فإن القرآن الذي جاء تلخيصاً وتحسيناً للأخلاق السابقة له «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر». (١)

والحق أن دعوة مالك بن نبي إلى الحنيفية كمدخل للتواصل بين الأديان تشبه دعوة غارودي فيما بعد للإبراهيمية كبيت جامع للأديان السماوية.

(٣) مقال نور الدين بوكروح في صحيفة الحوار الجزائرية ٢٩/ ٥/ ٢٠١٦

غارودي

الاسم الكامل	روجيه غارودي، كما عرف بعد إسلامه باسم رجاء غارودي	
التاريخ	١٣٣١-١٤٣٣هـ	١٩١٣-٢٠١٢ م
الولادة والارتحال والوفاة	وُلد في فرنسا ورحل بين العواصم الأوروبية وأسر في الجزائر وزار العواصم الإسلامية وأقام فترة في الأندلس وتوفي في فرنسا	
أهم الكتب التي ألفها		
أهم ما ألف عنه		
أهم من تأثر بهم	جلال الدين الرومي وابن عربي وماركس وجان بول سارتر	

أهم من تأثروا به	له تأثير كبير على التيارات العقلانية في الإسلام
أهم قضايا نادى بها	• الحرية • إخاء الأديان • الإسلام متمم لا ناقض • الشريعة تتطور باستمرار

غارودي.. إخاء الأديان

يعتبر روجيه غارودي ١٩١٣-٢٠١٢م أبرز المفكرين الإسلاميين الذين تحدثوا بوضوح وشجاعة عن إخاء الأديان، وقد بدا أكثر حماسة لهذه الفكرة بعد أن اعترض بشدة على الطريقة التي يتم بها تقديمه للعالم الإسلامي، حيث درجت الصحافة الشعبوية خلال الثمانينيات والتسعينيات على وصف الرجل بأنه المفكر الملحد الذي اهتدى من الظلام إلى النور، والذي اكتشف بطلان الأديان وزيفها واعتنق نور الإسلام.

في الواقع الرجل لم يكن موافقاً على فهم كهذا، وكان يرى الديانات السماوية مدرسة واحدة، وكان يرى أن اعتناقه للإسلام ليس إلا فصلاً من فصول سعيه لخدمة الإيمان، فهو لم يكن ملحداً في يوم الأيام، وقيادته للحزب الشيوعي لم تكن ناشئة عن إلحاد بل هي مطالب اجتماعية للطبقات المسحوقة، ورسالة الإيمان أن يشارك في دعم هذه الحقوق وتعزيزها.

وفي كلمته الشهيرة بجامع أبي النور بدمشق بحضور المفتي العام قدم غارودي بشكل واضح رؤيته لدور لجدل العقل والنقل، ورؤيته لتقارب الأديان، وأكد بوضوح وعيه بالرسالة الإبراهيمية التي يمكن من خلالها الجمع بين اليهودية والمسيحية والإسلام في إطار منظومة قيمية محكمة، وبكل وضوح يشرح رؤيته في هذا السبيل:

إذا تذكرنا الآيات (٤٤ و ٤٦ من سورة المائدة) (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) نجدها عبارة عن رسائل موسى عليه السلام في التوراة، وعيسى عليه السلام في الإنجيل، استمرت القيادة والإرشاد إلى طريق النور واستمر القرآن في ذكرها حتى (الآية ٤٨ من سورة المائدة) وقال تعالى «ولكل شِرعَة ومنهاجاً».

وفـي ضـوء الآيتين السـابقتين، يتضح أن الطريـق هو «الشـريعة» وهي قيمة عالمية مشـتركة تناسب كل الناس فهي تحدد النهايات السامية، في حين أن «المذاهب» أو «الطرق» هي الوسائل التي تسمح في كل حقب التاريخ لمن اخترق القيم العليا السامية، وبذلك فإن «الشريعة» موجودة ومتمثلة في الكتب الثلاثة المنزلة. (١)

ولكـن الجانب الأهم في فكر جارودي هو موقفه من التجديد الديني، وبشـكل خاص موقفه الشـجاع ضد القطيعة بين الإسـلام وبيـن الأديان والثقافـات، فقد بدأ الرجل مباشـرة بعد إعلانه الدخـول في الإسـلام رحلـة أخرى داخـل الفكر الإسـلامي ذاته، وهـي رحلة نقديـة صريحة لا تختلف عن تجاربه السابقة، وقد أثار هذا الأمر كثيراً من المؤسسات التقليدية في العالم الإسلامي ورأت في هذا السـلوك افتئاتا على ثوابت الشـريعة، وصدرت بحق الرجل مواقف مباشرة تتهمه بالهرطقة، ولكن الرجل كان واضحاً تماماً فهو لم يطرح نفسه فقيهاً يفتي في مسائل الدين، ولكنه ظل يمارس دوره كمفكر ناقد وكان يجهر برأيه أن الإسـلام بحاجة إلى تجديد مسـتمر، وأن من الغـرور أن نطرح الشـريعة صالحة لكل زمان ومكان ثم نقعد عن التجديـد والاجتهاد فيها، وهي العبـارة التي طالما كررهـا الفقهاء بقولهم: النصوص تتناهى والأحداث لا تتناهي، وما يتناهى لا يضبط ما لا يتناهى.

حيـن أعلن جارودي موقفه الشـجاع في اعتناق الإسـلام أصبح هذ الخبر مـادة صحفية أولى وخبـراً دسـماً تتوالى صفحات الإعلام الترويج له والتبشـير به، وكتـب صحفيون كثير أن الرجل اهتـدى أخيراً إلـى درب الهداية وأنـه تخلص من الظلمـات والجاهلية والضـلال المبين، ولكن جـارودي فـي الواقع كان يحمل رؤية أخرى للإسـلام، فهـو لم ير فيه الدين الذي نسـف ثقافات الإنسـان وكفاحـه وتجاربه، ولم ير أن عظمة الإسـلام تتوقف على انحطـاط الثقافات والديانات الاخرى، لقد كان يرى أن القرآن الكريم نص بصراحة في أربعة عشـر موضعاً ترد عبارة: مصدقاً لمـا بيـن يديه، وحين يصـرح القرآن بهـذه الحقيقة فإنه يقدم أوضح رسـالة إخاء إنسـاني، حيث يدعو إلى التصديق والتكامل وليس إلى العداء والتناحر، أنه لم يقل ناسـفاً لما بين يديه، ولم يقل مبطلاً لما بين يديه، وإنما قال مصدقاً، والتعبير بلفظ «ما بين يديه» يشمل النبوة السابقة والحاجة الحاضرة والحكمة اللاحقة، وهذا وعي بحقيقة الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها.

أعلـن جـارودي مـرات متعـددة أنه يتعرض لاسـتفزاز مـن الصحافـة، حيـث كان يرحل إليه

(١) الاعتماد الرئيسي في هذه الفقرة على المحاضرة التي ألقاها غارودي بالفرنسية في جامع أبي النور بدمشق، ٣/ ٧/ ١٩٩٥ وقد ترجمتها إلى العربية عبر الترجمان الموثق الفيحاء، وهي محفوظة لدي.

صحافيون مسكونون بوهم نرجسي طاغ، ينتظرون منه أن يشن حرباً لا هوادة فيها على تهافت الفكر المادي وانحطاط الكنيسة وسقوط الحضارة وجاهلية القرن العشرين وغير ذلك من العناوين التي تلتمس إظهار عظمة الإسلام باحتقار ما سواه.

ولكن الرجل لم يكن يحمل هذه القناعة أبداً، لقد ظل يكتب في الإخاء الديني والإنساني، ولم يكن يرى دخوله في الإسلام كفراً بما أنجزه الإنسان في كفاحه المعرفي والفلسفي، وحين سأله صحفي ثقيل: حدثنا عن ضلالك الأول وأوهام الفكر الذي كنت تائهاً فيه قبل أن يمن الله عليك بالإسلام؟ قال له بشجاعة: أيها السائل إنني لا أحب كلمة اعتناق الإسلام، فإنا مؤمن أنها الفطرة التي خلق الإنسان عليها، وأنا أقرؤها في القرآن كما قرأتها من قبل في الإنجيل، وهي حقيقة لا تبتعد عن آمال ماركس في العدالة الاجتماعية، وفي تعبير صحفي صريح قال: لقد دخلت الإسلام وبيميني نسخة من الإنجيل وفي يدي الأخرى كتاب رأس المال لكارل ماركس، ولست في وارد التخلي عن أي منهما.

إنه ببساطة لم يطرح نفسه فقيهاً أصولياً ومفسراً بالمأثور والمنثور، وإنما طرح نفسه مفكراً وكاتباً وهذا حق كل إنسان، فلم يتدخل في إطلاق فتاوى فقهية وأصولية ولم يكن هذا لينتظر منه أبداً ولكنه واجه بشجاعة فكرة الشعب المختار التي تسربت إلى العقل الإسلامي، وأعلن تماماً أنه يريد أمة بين الأمم، وليس أمة فوق الأمم، وأنه يتبع نبياً بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، وأن الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تزال تجمع بين الشرفاء والعقلاء من البشر بغض النظر عن اختلاف ألسنتهم ودمائهم وقبائلهم وأقوامهم، وفي إطار لا يحتمل اللبس أثنى أطيب الثناء على جهود الإمبراطور الهندي المسلم السلطان أكبر الذي قدم نموذجاً متقدماً في الإخاء بين الديانات، وتعزيز قيم المشترك بينها.

لقد وصل جارودي إلى شاطئ الإسلام رسالة الرحمة للعالمين، ولكنه لم يوافق أبداً أن يكون دخوله في الإسلام نهاية عهده بالعقل، وكان يردد دوماً كلمة الفيلسوف الحائر ابن الفارض: زدني بفرط الحب فيك تحيراً.

لقد بدأ كاثوليكياً واستأنف بروتستانياً ثم اختار في كفاحه منصة الشيوعية العالمية، وانتهى به المطاف في رياض الإسلام، ولكنه لم يقل يوماً أنه قد وقف على نهاية العالم، ولم يملكه الغرور يوماً ليتحدث عن نهاية التاريخ، لقد ظل يعبد الحق ويعشق القلق، ويناجي ربه بالعبارة المحببة في كل صلاة: اهدنا الصراط المستقيم.

وفي تلخيص لرسالته التي كان يعمل لها صرح غارودي في أيامه الأخيرة: أن اشد ما يحملني

على الفخر هو تمسكي بالحلم الذي راودني في سن العشرين، أعني وحدة الأديان الثلاثة المسيحية واليهودية والإسلام».

لم يكن جارودي في يوم من الأيام مستقراً في خيار معرفي حاسم، لقد كان يجسد في حياته قلق المعرفة وبؤس العارف، وظلت نوافذ السؤال مشرعة في عالمه، على خطى الغزالي وديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، فمع أنه ولد كاثوليكياً ولكنه اعتنق البروتستانتية في الرابعة عشرة من عمره، ثم انتظم في الحزب الشيوعي واجتهد أن يعقد أواصر القربى بين البروتستانتية والماركسية، ولكنه انحاز إلى المنهج الماركسي في العدالة الاجتماعية بعد أن بدا له أنه أكثر واقعية وأقل رومانسية.

وبعد ذلك أمضى سنوات عشرة صاخبة احتار فيه قارئوه، فقد وقف في عين العاصفة يجدف عكس القطبين الأعظم مواجهاً السوفييت في الشرق والأمريكيين في الغرب، وبعد اثني عشر عاماً فاجأ العالم بقرار لم يكن يحتسبه أحد وهو إعلانه الدخول في الإسلام عام ١٩٨٢.

وفي سياق تفسيره لخياره الجريء في اعتناق الإسلام أعلن ببساطة أنه وجد الحضارة الغربية قد بنيت على مفهوم خاطئ للإنسان، فهي تعتمد على النمو المادي التراكمي، وتفرض لوناً من القيم يتناقض تماماً مع فرادة الإنسان وكرامته، ورأى أن الحضارة الغربية قامت بتسليع الحاجات والقيم والمبادئ في إطار الشركات الكبرى العابرة للقارات، وهي ماضية إلى تسليع الإنسان نفسه في عصر الإله الجديد: الدولار!

ويشير جارودي إلى أن هذا الانحطاط في فهم الإنسان هو مسألة فلسفية في العمق، فبينما قدمت الحضارة الحديثة صورة الإنسان على أنه مجرد تفاعل هيدروكربويني عاثر قذفت به رحى الديالكتيك السائبة في ظروف مناخية خاصة، ثم طفرت فيه نفخة الحياة عند أفق القردة العليا، فإن القرآن الكريم قدمه من أفق آخر مختلف تماماً وأعلنه سيداً للكون، خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وخلقت الكائنات من أجله، وسجدت الملائكة في خدمته، وقدمه الرب نفسه خليفة له على الأرض، وقد كرمه يوم كرمه قبل أن تنزل النبوات وتأتي الرسالات وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه !

كان صراع غارودي مع الحضارة الغربية صراعاً إنسانياً بامتياز، لقد كان جوهر الصراع والخلاف هو الإنسان، الإنسان الذي تحول إلى ركام هائم بين الأشياء والسلع ووسائل الإنتاج، وأصبح في النهاية بيدقاً في رقعة الثورة الصناعية، وتم في غمار ذلك تسليع الإنسان نفسه إلى جانب مبادئه وقيمه وأخلاقه، حيث يتعين قراءته بالباراكود على وفق إنتاجه المادي، وهي صيغة

أعلنها فيلسوف الحضارة الصناعية نيتشه في العصر الاستعماري المقيت في القرن التاسع عشر في نموذج السوبرمان الضروري للحضارة الغربية الصناعية، قائلاً: اقهر الضعفاء اسحقهم اصعد فوق جثثهم! أن الحضارة لا يمكن أن تزدهر في ظل أخلاق المسيح! وأن الفقراء يبتزون جهد الأغنياء وكفاحهم بوسائل العطف والشفقة، أن الارستقراط أجدر بالحياة من الضعفاء والهمل، لقد دفع آباؤهم ثمن دمائهم الزرقاء فيما كان آباء الآخرين خاملين كسالى عالة! يجب منع الفقراء والمرضى من الزواج، وتأمين موت كريم وسريع لهؤلاء ليتاح للأقوياء بناء العالم الجديد، أن ذلك الهدف الكبير لبناء مجتمع السوبرمان لا يمكن تحقيقه إلا بعد رحيل الله! ولأجل ذلك لم يتردد نيتشة في إعلانه عن موت الله ووضع رفاته في متحف اللوفر!

في تلك المرحلة الصاخبة من صعود الحضارة المادية، وانسحاق الإنسان تحت عجلات المصانع الكبرى وروائزها، كان جارودي يأوي إلى أفق آخر، وكان يؤلمه غياب الأمل والرجاء من الحلم الشيوعي الهادف إلى إسعاد الفقراء، فقد حول النظام السوفياتي المجتمع إلى يوتوبيا هائمة من الفقراء، وحول المجتمع برمته إلى قطيع غاضب، لا يتجمع إلا في خطوط الإنتاج الصناعية، محض آلات منتظمة خاوية الروح، وفي غمار ذلك الصخب كان جارودي يخوض تجاربه الروحية مع أعلام الفكر الإسلامي التاريخي الذين قدموا قراءة أخرى للإنسان تستند إلى محوريته في الكون ووصاله بالله، وكرامته في الأرض.

فقد تعرف إلى مولانا جلال الدين الرومي وابن عربي وابن الفارض وغيرهم من فلاسفة الإسلام الذين كتبوا في الإخاء الإنساني، وفي روضة المثنوي لجلال الدين أدرك جارودي أن البعد الإنساني في الإسلام يتجاوز كل التناقضات الحادة التي طبعت شكل الأسرة الإنسانية، وأن الإنسان هو جوهر الحياة، وأن بالإمكان أن تتأسس أسرة إنسانية واحدة في العالم، وفق منطق الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

في كتابه الإسلام دين المستقبل كتب جارودي: «أظهر الإسلام شمولية كبرى في استيعابه لسائر الشعوب ذات الديانات المختلفة، فقد كان أكثر الأديان شمولية في استقباله للناس الذين يؤمنون بالتوحيد، وكان في قبوله لاتباع هذه الديانات في داره منفتحاً على ثقافاتهم وحضاراتهم والمثير للدهشة أنه في اطار توجهات الإسلام استطاع العرب آنذاك ليس فقط إعطاء إمكانية تعايش وتمازج لهذه الحضارات، بل أيضاً إعطاء زخم قوي للإيمان الجديد: الإسلام، فقد تمكن المسلمون في ذلك الوقت من تقبل معظم الحضارات والثقافات الكبرى في الشرق وإفريقيا

والغرب، ويقدم جارودي دراسات بالغة الأهمية لإسهام المسلمين في بناء الحضارة الإنسانية، ويستعرض أهم الإنجازات العلمية في سياق عريض يكشف سعة اطلاعه وعمق معرفته بأعلام الحضارة الإسلامية وأنجازاتهم.

نشرت صحيفة مدارك المغربية الصادرة عن حركة التوحيد والإصلاح في أعقاب هذا اللقاء حواراً مطولاً مع جارودي شرح فيه تماما موقفه من التجديد الديني حيث كان أهم جانب في تفكيره هو وجوب التمييز بين الشريعة والفقه، فالشريعة هي ثوابت الإسلام الكبرى، والفقه هو حاجة الناس المتجددة، وفي سياق جوابه على ذلك قال:

نحن في عالم دائم التغيير، لا يتوقف الله، كما يقول لنا في القرآن الكريم، عن خلقه ثم إعادة خلقه. وكل منا مسئول عن عدم الخلط بين الشريعة التي هي القانون الدائم وبين الفقه المتوارث عبر قرون خلت.. إننا لا نستطيع أن نفرض في القرن العشرين وعلى العالم أجمع تشريعا ينتمي إلى ظروف تاريخية كانت سائدة في الجزيرة العربية إبان القرن السابع.

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم بالذات لوجدنا أنه يخلو تماماً من بعض الأمور المعاصرة والضرورية جدا، كالشركات المتعددة الجنسيات، والتعامل بالنقد، وما جرت عليه الأعراف التجارية، ومؤشرات المال والاقتصاد والأسهم والسندات... إلخ. ..... وهناك تفصيلات كثيرة ودقيقة لهذه الأمور الاقتصادية، والقرآن غير معني بها، فهو ليس كتاباً للاقتصاد. لذلك أؤكد أن القانون الإلهي والمبادئ الإلهية خالدة سامية وباقية وأزلية، لكن ما يستجد من أمور الحياة المعاصرة علينا أن ننهض لإيجاد حلول تتناسب معها، ونعالجها بالطريقة التي نضمن بها الاتساق ضمن مسيرة الشريعة وأهدافها الكبرى، ولنا في فقه كل من أبي حنيفة والشافعي مثال يحتذى، هذان الفقيهان العبقريان أوجدا الكثير من الحلول والأجوبة لما كان يعترض مسيرة حياة المسلمين اليومية. واليوم نحن ملزمون بالقياس على فقههم ..... أن الشافعي قد أتى بفقه جديد في مصر يغاير فقهه في العراق لتغيّر الأحوال، لذا قيل: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان». يجب علينا أن ندرس كما درسوا ونعمل فكرنا لإيجاد حلول متسقة مع الشريعة الإسلامية لما يعترضنا من مشكلات فقهية عصرية.

وأنشر هنا واحدة من أهم وثائق التنوير الإسلامي في التاريخ المعاصر.

ألقى الفقيه المجتهد الإمام روجيه غارودي هذه المحاضرة القيمة جداً في جامع أبي النور ٢٣/ ٣/ ١٩٨٤ أمام المفتي العام الشيخ أحمد كفتارو وجمع من المشايخ، وكانت المحاضرة صادمة للمشاركين ولم يتوقع أحد أن يذهب غارودي إلى هذا الحد في المطالبة بإصلاح الوعي

الإسلامي ورفض منهج السلف، وتم إخفاء المحاضرة ومنعها.... وبعد أشهر قليلة قام المجمع الفقهي السعودي بمحاكمة الرجل وأفتى المجمع أن الرجل قد ارتد عن الإسلام، فيما قال ابن باز: أنه كافر أصلي لم يدخل في الإسلام أصلاً.!

مع أن هذه الهيئة السعودية نفسها كانت قد كرمته عام ١٩٨٢ بوصفه أهم شخصية في العالم في خدمة الإسلام!

حاولت في حينها وكنت طالباً الحصول على المحاضرة، ولكن دون جدوى وظلت هذه المحاضرة حبيسة الأدراج ٣٥ عاماً حتى تيسر لنا الحصول عليها من الأخ محمد برازي الذي كان يحتفظ بالنسخة الفرنسية.

تمت ترجمة النسخة عبر مترجم اختصاصي ومن أهم ما فيها:

• الشريعة قابلة للتغيير والتطوير.. النسخ في القرآن هو صورة مرونة مستمرة وقد تم نسخ القبلة نفسها لمصلحة الإنسان.

• إن تطبيق الناس للإسلام في الشرق الأوسط في مرحلة من التاريخ لا يلزم المسلم في شيء، وعلينا ابتكار ما يناسب مجتمعاتنا من التطبيق في شؤون الحياة ولكل أجل كتاب.

• ليس هناك أسوأ من اعتقاد أن كل مشاكلنا يمكن حلها بالعودة إلى خيار السلف، أن التاريخ ينطق عكس ذلك تماماً، وأن الصواب والهدى في المستقبل وليس في الماضي.

• إن الإسلام لا يمكن اختصاره بالفقه الإسلامي وحده أنه كل الهدى الذي جاء به الأنبياء والمصلحون من كل الأديان والأمم.. والأديان كلها تخدم حقيقة واحدة.

• علينا أن نحيي منهج الأئمة العالميين في إخاء الأديان مثل ابن مسرة وابن عربي والبيروني وجلال الدين والسلطان أكبر في الهند الذي آمن بكل الأديان وعمل لها جميعاً.

• يجب أن نكف عن قراءة القرآن بعيون الموتى وأن نقرأه بعقل نقدي كما يفعل كل الأحياء.

• الشريعة (القانون الذي يقود إلى طريق الله) لا يمكن أن تكون هي التشريع (الفقه) الذي يختلف بشكل جذري عن «الشريعة»، المشتركة في جميع الأديان، وتختلف مع كل دين حسب الزمان والمجتمع الذي أرسل إليه النبي من عند الله تعالى.

• «لكل أجل (عصر) كتاب» وأيضاً قال تعالى: «وأن من أمة إلا خلا فيها نذير» (سورة فاطر آية ٢٤ وسورة النحل آية ٣٦).

وقال تعالى «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» (سورة الرعد آية ٣٩). ومن الواضح

أن هذا لا يعني أنه تعالى يغير رأيه (تعالى الله عن ذلك) ولكن هذه هي «التربية الإلهية الحقيقية»، فهو تعالى باسم «المبادئ المطلقة ينزل ما هو مناسب للوضع التاريخي ومستوى فهم الناس الذين يرسل لهم رسوله. ونذكر على سبيل المثال، تحويل القبلة والتي كانت قد اتخذت شكل واضح ونهائي للجميع: ولكنه أراد أن يظهر وحدة الأمة، والتحول نحو نفس المركز للتأكيد على وحدة الإله) حيث تم التوجه لوقت معين نحو القدس، ثم بعد ذلك ولأسباب تاريخية، تتعلق بالعلاقات مع اليهود، أمرهم بالتحول تجاه مكة المكرمة. من خلال هذا التغيير التاريخي يذكرنا القرآن بالحقيقة السامية: وهي أن الله تعالى لا يمكن أن يكون في مكان دون الآخر، أنه تعالى في الشرق كما في الغرب.

الهدف الأساسي هنا هو أن لا ننسى أن القرآن يحتوي على أصول «الشريعة» الإسلامية في ٥٨٠٠ آية و«أمثلة» من تطبيقاتها توجد (في ٢٠٠ آية) في حقبة تاريخية معينة، في مجتمع تسوده العبودية .

إن الخطأ القاتل بالنسبة لمستقبل الإسلام، هو الخلط بين القانون الإلهي الأبدي، الشريعة المسماة بـ «الفقه» (التشريع) وهو ما عرف منذ القرن السابع.

أن تطبيق الشريعة عكس هذا الخلط والارتباك، بداية من المبادئ المطلقة للشريعة (الله وحده مالك كل شيء، الأمر لله وحده، العلم عند الله وحده). خلق «فقه» القرن العشرين هو مسؤولية مشتركة للجميع وليس للمسلمين فقط ولكن كما يخبرنا القرآن الكريم، لكل المؤمنين الذين تلقوا رسالات الأنبياء، الذين أرسلوا من قبل نفس الإله.

لذلك مشكلة مستقبل الإسلام تتلخص في مصطلحات بسيطة للغاية: وعليها أن تخطو نحو المستقبل مع نظرة ثاقبة على الماضي، وتتدرب على التعليقات ودراسة المشاكل القانونية التي نشأت خلال العصرين الأموي والعباسي؛ وأنه قادر على حل المشكلة وتقديم نموذج جديد ناجح، وسوف يستأنف رحلته المنتصرة كما حدث من قبل في القرن الأول الهجري، وحل المشاكل التي ظهرت بعد زوال إمبراطوريتي بيزنطة وفارس.

ليس هناك ما هو أكثر تناقضًا مع الرؤية الديناميكية للعالم، من تلك التي تجاه القرآن أكثر من الاعتقاد أن جميع مشاكل الحاضر والمستقبل قد تم حلها، وأنه يكفي أن نعرف عن ظهر قلب قصص الماضي للحصول على إجابة لكل شيء.

الاكتفاء هو عكس السمو، لأنه يمنع آلاف الناس من رؤية «الجاهلية» الجديدة للحضارة الغربية المنحطة، «الشريعة» الحقيقية (الله وحده يملك، الأمر لله وحده، الله وحده يعلم) يمكن

أن يوحد كل من يفكر أن حياته لها معنى وأن الطريقة الإلهية فقط (الشريعة) يمكن أن تمنحهم هذا المعنى من خلال البعد عن قانون الغاب، وقانون البقاء للأقوى، وقانون الفوضى».

إذن على العكس، حين نخلط بين «الشريعة الأساسية» وبين «الفقه» في القرون الماضية، فنحن نعمل على التقسيم، ونعزل الإسلام، ونترك آلاف من الرجال والنساء فريسة لليأس.

وباستعادة الشريعة في حقيقتها يمكن للإسلام أن يجد زماننا هذا الظروف المواتية للتوسع كما حدث في القرن الأول للهجرة.

يعتمد مستقبل الإسلام اليوم على جهود لإعادة انتشاره بكل الأبعاد التي جعلته يسود ويؤثر في أوقات أخرى.

أن البعد العالمي للإسلام لا يقتصر على تقليد معين من منطقة الشرق الأوسط وماضيها، ولكن الانفتاح على كل الثقافات، واستعادة التعايش من الشرق إلى الغرب، لكل الأديان السماوية، مسيحي، مسلم والحكمة البعيدة فى بلاد فارس والهند والصين.

إن بُعد الحب والمفاضلة، الذي دافع كبار الصوفيين الأندلسيين، من ابن مسرة إلى ابن عربي، والبيروني، كابير أو الإمبراطور أكبر في ذروة قوة الإسلام في الهند ضد كل الشكليات والطقوس وتجفيف كل له معنى حرفي.

قراءة القرآن بعيون الموتى، أي بتكرار ما يقال عن الأسلاف العظماء في القرون الأولى من الهجرة، الذين كان لديهم العبقرية لحل مشاكل وقتهم، وليس مشاكلنا نحن. أولاً وقبل كل شيء هي خيانة للقرآن نفسه و«الله» الذي لا يتوقف أبداً عن الخلق «من» نفخ في الإنسان من روحه» ليجعله خليفة له على الأرض، ودعاه «للتدبر» بلا انقطاع والتفكر في «العلامات» الجديدة كل يوم لهذا الخلق المتواصل، لا يمكن أن يتخلى عن الناس الذين «يدعونه»، ولا يمكن إلا أن يفكروا في عبارات وجمل «تعيدهم إلى الماضي».

إن هؤلاء الرجعيين الذين يعملون من أجل مصلحة أعداء الدين، الذين يسعون إلى تحنيط الإسلام الحي، هم العائق الرئيسي أمام خلق «حداثة» ليست في الغرب المنحط بالكامل، ويمنعون الإسلام من الوجود مع جميع المؤمنين الذين يحبون المستقبل، ويسعون إلى إعادة نهضة العالم من جديد.

لقد وصل جارودي إلى شاطئ الإسلام رسالة الرحمة للعالمين، ولكنه لم يوافق أبداً أن يكون دخوله في الإسلام نهاية عهده بالعقل، وكان يردد دوماً كلمة الفيلسوف الحائر ابن الفارض: زدني بفرط الحب فيك تحيراً.

لقد بدأ كاثوليكياً واستأنف بروتستانياً ثم اختار في كفاحه منصة الشيوعية العالمية، وانتهى به المطاف في رياض الإسلام، ولكنه لم يقل يوماً أنه قد وقف على نهاية العالم، ولم يملكه الغرور يوماً ليتحدث عن نهاية التاريخ، لقد ظل يعبد الحق ويعشق القلق، ويناجي ربه بالعبارة المحببة في كل صلاة: اهدنا الصراط المستقيم.

في صيحته لتجديد الإسلام يذكرك جارودي الصارخ من الغرب بأشواق إقبال الهاتف من الشرق، فكما كتب الشاعر الهندي فكره المتوثب في كتابه الجليل التجديد الديني في الإسلام صائحاً: لا تقرؤوا القرآن بعيون الموتى، فقد أعلن الفيلسوف الفرنسي من باريس الرؤية إياها في كتابه: الإسلام دين المستقبل، وقال بوضوح: إذا أردنا أن يبقى الإسلام حياً فعلينا أن نأخذ من تراث الآباء الجذوة لا الرماد.

الترابي

الاسم الكامل	حسن عبد الله الترابي	
ألقاب مشهورة	عميد كلية الحقوق وزير العدل ورئيس البرلمان السوداني	
التاريخ	١٣٥١-١٤٣٧ هـ	١٩٣٢-٢٠١٦ م
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في السودان ودرس في بريطانيا وكندا	
أهم الكتب التي ألفها	قضايا الوحدة والحرية، تجديد أصول الفقه، تجديد الفكر الإسلامي، الأشكال الناظمة لدولة إسلامية معاصرة، تجديد الدين منهجية التشريع، المصطلحات السياسية في الإسلام، الدين والفن، المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، السياسة والحكم.	
أهم ما ألف عنه	صدرت كتب عديدة تهاجم فكر الترابي وأخرى تؤيده	

أهم من تأثروا به	حزب المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• جبهة الأديان • تحرير المرأة • حرية الاعتقاد

حسن الترابي.. جدل الدين والدنيا

حسن الترابي أحد الفقهاء المعاصرين البارزين على مستوى العالم الإسلامي، وهو أحد أبرز المفكرين الإسلاميين شجاعة وجرأة واقتداراً.

أعلن الترابي موقفه الفكري مشروعاً يتجاوز ما اعتبره الناس ثوابت حمراء، وبدلاً من خطاب دار الحرب ودار الإسلام وقتال الذين يلوننا من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كان الترابي يطلق مشروعه الشجاع بالدعوة إلى قيام جبهة أهل الإيمان.

وحين كانت الحرب تلتهب على أساس من الأيديولوجيا كان الرجل يفكك هذه الايديولوجيا الدموية بخطاب لقاء حقيقي بين أديان السودان يتبنى المساواة الكاملة بين أبنائها ويعترف صراحة ودون مواربة بإيمان المواطنين المسيحيين إيماناً كاملاً ويكسر كل قواعد احتكار الخلاص التي كانت أهم وقود ضارٍ ألهب هذه الحرب المجنونة.

دعا إلى الإيمان المشترك والصلاة المشتركة وفتح حوارات مباشرة مع قيادات سياسية ودينية مسيحية في الجنوب خلال الحرب الطاحنة، وأعلن بوضوح أن هناك طريقاً آخر غير الحرب، وقد اعتبر النظام الحاكم هذه الأساليب نطوطة بين الصفين، وتوهيناً لنفسية الأمة في الحرب وتمييعاً للقضايا المصيرية التي يجب القتال من أجلها حتى آخر سوداني، وعبثاً بأشرف حرب وأقدسها تخوضها الأمة ضد أعدائها من الكافرين.

وفي إطار مفاجئ دعا إلى وقف التبشير بالإسلام في المناطق المسيحية ودعا إلى بناء ثقافة إبراهيمية مشتركة بدل ذلك، ودعا إلى التوقف عن التفكير المتعصب الذي يحتكر الجنة والحقيقة والخلاص.

ودعا إلى التوقف عن تكفير النصارى واليهود تأسيساً على قاعدة القرآن الكريم في تسميتهم

بأهـل الكتاب، وقدم أدلة وبراهيـن أن تكفير النصارى ليس فهماً مستقيماً لمصطلح الكفر، وأن النصـارى مؤمنـون، على ملة إبراهيم التي نصلي بها كل يوم كما صليت وسـلمت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم.

وفي إخاء أبناء الأديان طالب الترابي المسـلمين بأن يكفوا عن نرجسـية التفوق الفارغة، وأن يدخلوا في سياق التشارك الإنساني مع الأمم، وأن يفهموا الإسلام ديناً بين الأديان وليس ديناً وفق الأديان وأمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم.

وفي السـياق إياه أعلـن الترابي موقفه من حرية الانتقال بين الأديـان وأنكر حد الردة، واعتبره مناقضاً بالمطلق لمبدأ لا إكراه في الدين، وأن ما يجب أن يتبناه المسلمون هو حرية الفكر للناس جميعـاً فلا خير في إيمان يجيء برهبة السـيف، وصرح أن الفتـوى بحد الردة لم تكن في التاريخ إلا مبرراً للاستبداد في التخلص من خصومه السياسيين.

كان مـن أكثـر الأصـوات التنويريـة حيويـة وشـجاعة... كان بـلا شـك رمـزاً لحيويـة الفكر الإسلامي.... من أشهر مبادئه: حرية الأديان، ورفض قتل المرتد، والمساواة بين المرأة والرجل، وتغير الأحكام بتغير الأزمان، والدعوة إلى كتابة جديدة للحدود على أساس العقاب الإصلاحي وإلغاء التعذيب الجسدي.

وفي موقف أشـد مباشـرة أعلن الترابي رأياً شـجاعاً في هدم واحد من أشـد الحواجز الدينية فـي العلاقات بيـن الطوائف حيث أباح زواج المسـلمة برجل من أهل الكتـاب، وهو رأي فقهي لا يعـرف له سـلف في الفقه الإسـلامي، ويناقض بشـكل تام مـا تنص عليـه كل قوانين الأحوال الشـخصية فـي البلاد الإسـلامية كافة، ولكن الرجل دافع عنه بشـجاعة وصلابـة، وأكد أنه الفهم الأقرب لمضمون قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم.

بالطبع أثارت هذه الآراء غضباً عارماً في التيار السلفي في السودان والسعودية ووصلت رسالة اسـتنكارية مـن الشـيخ عبد العزيز بن بـاز وحين لم يتراجـع الرجل عن موقفه شـنت عليه حرب طاحنة اعتبر فيها مرتداً وهرطوقاً خارجاً على الإسلام الأمر الذي سهل لخصومه السياسيين زجه في السجن عبر النظام نفسه الذي اختاره رئيساً للبرلمان السوداني قبل شهور.

لـم يحـظ الترابي باعجـاب التيارات السـلفية واعتبروه مؤسسـاً خطيـراً لتيـار العقلانيين في الإسـلام وكان العقل تهمة! وصدرت في الرد عليه مئات النشـرات والفتـاوى، ولكنه بكل تأكيد حظي باحترام أولئك الذين يؤمنون بقدرة الإسلام على الاستجابة لبناء المجتمع الحديث، وعلى الرغـم مـن أن هذه الأفكار لم تفعل فعلهـا المطلوب في المجتمع السـوداني ولكنها مؤهلة بكل

تأكيد للمشـاركة في صوغ صورة الإسـلام الجديد الذي يشارك في بناء الدولة على أساس مدني وديمقراطي حقيقي.

لم يكن الترابي فقيهاً تقليدياً كسائر الفقهاء، كان صوتاً صارخاً في برية الفقه الإسلامي يطالب بثورة عاصفة تقلب الأيقونات جميعاً، وتعيد للعقل اعتباره ومكانه في مواجهة تغول التراث.

لقد واجه استبداداً مزدوجاً ودفع أثماناً مضاعفة، فقد صاح في وجه الاستبداد السياسي وذاق كل سـجونه، ولـم يقـم نظام حكم في السـودان إلا دفع بالترابي إلى سـجونه، حتـى نظام الجبهة الإسلامية للإنقاذ الذي أعلنه مرشداً وزعيماً فكرياً ورئيساً لبرلمانه سرعان ما انقلب عليه وانتهى به الأمر سجيناً في عنابره لسنوات عديدة.

كما واجه بصلابة رموز الاستبداد الديني وأعاد مكانة العقل في مواجهة النص، دون أن يخلع عمامته التي كانت ترتل بانتظام وكفاءة نصوص القرآن الكريم بقراءاته السبع المتواترة وما طاف حولها من علوم الرواية والدراية.

لا أريد الحديث عن تجربته السياسـية فهذا جدل يفسـد رونق الكتابة فيه مجدداً وفقيهاً ثائراً، فالرجل الذي تخرج من جامعة أكسـفورد في الماجسـتير والدكتوراه في السـوربون وأتقن أربع لغات عالمية أساسـية الفرنسـية والإنكليزية والألمانية إلى جانب لغته الأم، كان يتقن تماماً ثقافة الديمقراطية والحضارة ولكنه كان يعيش في الواقع عقلاً كندياً وظروفاً سودانية.

موقفه السياسـي لا يُحسـد عليه، ولكنني أقرؤه في خيبته على نهج ابن رشد الذي عرفه العالم فقيهاً فيلسوفاً عميقاً، أيقظ الغرب الأوروبي من سبات العصور الوسطى، ولكنه بدا في ممارساته السياسـية سـاذجاً مضحكاً، وسـرعان ما وجد نفسـه في خدمة السـلاطين وتالياً في سـجونهم، والحكام الذين منحوه الأوسـمة هم نفسـهم الذيـن أوصدوا عليه أبواب السـحون وأحرقوا كتبه وثقافته.

لو قرأت ابن رشـد في الفلسـفة لوقفت أمام عملاق ليس له نظير، ولكن لو قرأته في السياسـة لخجلت من ممارسـات سـاذجة وسطحية لا تليق بسمعته ومكانته، ومع أنه كان ينظّر للسياسيين ولكنـه لـم يكن يمتلك يقظتهم ولم يحسـن قراءة المجتمع السياسـي كما ينبغـي فدفع من حياته وكرامته ثمناً لهذا الطموح الأبله.

أقام ابن رشد في كنف السلطان أبي يعقوب الموحدي نحو عشر سنوات يعتبر الفقيه المحظي المطاع، وكان السلطان يرسله في المهام الخاصة والشخصية، وكان يتقبل ذلك بطيبة قلب رجاء أن يسـاعده ذلك في نشـر رسـالته، وحين رحل السـلطان أبو يعقوب وخلفه المنصور الموحدي

زاده حظوة في أيامه الأولى ولكنه أنقلب عليه وأمر بنفيه وتلامذته إلى قرية اليسانة التي كان أغلب سكانها من اليهود، وأحرق كتبه، وأصدر منشوراً إلى المسلمين كافَّة ينهاهم عن قراءة كتبه في الفلسفة، ويعد بالويل والثبور كل من تجرأ على رواية شيء من ضلالات ابن رشد، وبقي بتلك القرية لمدة سنتين، ومع أنه حصل على عفو من السلطان بعد ذلك ولكنه عناءه وشراده لم ينته وسرعان ما أدركته المنية ودفن في مراكش بعيداً عن ديار الأندلس التي شهدت إبداعه وفكره وتألقه.

لست معجباً بالترابي في نشاطه السياسي وهو ينتقل من عناء إلى عناء يرسم صورة طموح عاثر مضطرب، وقد تقلب في المواقع من وزير للخارجية ثم قائداً لثورة إنقاذ ورئيساً لبرلمانها إلى سجين في سجون هذه الثورة إياها، وهدف إعلامي مباشر لرموزها البارزين من رفاقه وتلامذته ومريديه.

ولكنني أقف باحترام عميق أمام رسالته الجريئة في تجديد الفقه الإسلامي ونجاحه في إعادة الاعتبار لمدرسة العقل في الإسلام بعد أن تغولت مدرسة النص في القرن الأخير إلى مستوى صارم من الظاهرية لم يعرفه العالم الإسلامي من قبل.

ربما كان الترابي أول من تجرأ على القول بأن النص الديني نور يهدي وليس قيداً ياسر، وأن الفقهاء يملكون من الصلاحيات في التنوير والتجديد مثل ما كان يملكه الأنبياء الذين كانوا يتعاقبون في إصلاح أقوامهم ويحملون لكل جيل جديد ما يناسبهم من الشريعة والحكمة.

وفي موقف لافت لم يكرر الترابي ما يقوله التجديديون بأنهم يعملون للعودة إلى أصول الإسلام ومنابعه الأولى، بل تحدث بوضوح أن الإسلام كأي ذات حية يغتني بالتطوير والإضافة، وأن الصيغة الأولى التي تركها الرسول ليست إلا النواة التي مضت تكتمل كل يوم، وأننا نملك اليوم إسلاماً أوفر غنى وثراء مما ملكه الأولون، وبذلك فإنه تجاوز الحديث عن تجديد الدين إلى تطويره، واعتبر أن الزمن والتجارب الإنسانية هي قيمة مضافة للاسلام تزيد في غناه وثرائه ونبله.

لقد تحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان من أفق إسلامي بصير، وكشف خطوط التقاء مذهلة بين القيم الإسلامية وبين قيم الديمقراطية الحديثة كما علمها فولتير وروسو ومونتسكيو وجون لوك وتوماس هوبز، وحين كان يتحدث عن فكرهم وفلسفتهم كان يدهش محاوريه من الجامعات الغربية بقوة اطلاعه وإحاطته بما كتبوه.

وأنكر الترابي بشكل واضح مبدأ قتل المرتد الذي تؤصل له كل المعاهد الدينية تقريباً واعتبر

ذلـك مضـادة لروح الإسـلام في منع الإكـراه في الدين، وسـخر بشـكل لاذع من مـدارس الفقه الإسلامي التي تؤسس لقتل المرتد ثم تتحدث عن الحرية الدينية في الإسلام.

وفي حوار الأديان أطلق مشروعه الجريء عبر الدعوة إلى جبهة أهل الكتاب وهي جبهة تقوم على العمل المشـترك وينص ميثاقها على أن جميع أهل الكتاب سـواءً كان الكتاب قرآناً أم توراة أم إنجيـلاً هـم مؤمنون، وهم جميعاً يعبدون الله ويسـجدون له، لذلك يجـب التعاون فيما بينهم والتوحد والوقوف في وجه اللا دينيين.

وكان موقفه صادماً للمجتمع السـوداني المحافظ حين أعلن بوضوح عن دعوته للإسلام ديناً بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان وأن المسلمين أمة بين الأمم وليسوا أمة فوق الأمم.

وفي إطار المرأة كانت مواقفه الأكثر جدلاً وتحرراً، فقد تحدث عن الحجاب كأدب إسلامي كريـم ولكنـه لـم يقبل أبـداً اعتباره مـن أصول الدين أو شـعائره، وسـخر من ثقافة لا تـزال تمنع مصافحة الرجال والنسـاء وتدعي أنها تمارس المسـاواة، ولم يقف توقه لمسـاواة المرأة بالرجل عنـد هـذا بل أعلن بوضـوح تأييده لزواج المرأة بمن تحب من الرجال سـواء كان مسـلماً أو غير مسـلم، وكانت هذه الفتوى صادمة ومزلزلة فهي تخالف كل قوانين الأحوال الشـخصية السائدة في كل البلاد العربية، وأصبح الرجل محل اهتمام كل المؤسسات العاملة من أجل حرية المرأة، وفي حملات تحريم ختان المرأة سارت فتواه في كل مكان وأعلن أن ختان المرأة عمل مخالف للعقل والعلم والواقع ومناهض بالمطلق لحرية النساء وكرامتهن.

وفي موقف أكثر فرادة أعلن الترابي تأييده لدخول المرأة في سـلك التوجيه الديني وجدارتها لمهمـة الإمامـة والخطابة، وحيا مريم العذراء التي اسـتطاعت أن تكسـر الكهنوت الصارم الذي كان يمنع المرأة من المشاركة في خدمة العيكل والمشاركة في الحياة العامة.

ولـم يتـردد الترابي أبداً في تصريحات متتالية في تأكيـد حق المرأة في تولي كل المناصب في الدولة بما فيها القضاء والنيابة ورئاسـة الدولة، واعتبر ما ورد من نهي عن رئاسـة المرأة محكوماً بظروف مختلفة تماماً عن ظروف الواقع الحالي.

وفي إطار الحدود الشـرعية كان للترابي موقف جريء وشجاع حيث رأى أن الفهم الصحيح للعقوبات في الإسلام يجعلنا نمتنع تماماً عن تنفيذ الحدود التقليدية من قطع ليد السارق ورجم للزانـي وصلب للمحـارب وغيرها، واعتبـر أن القراءة العميقة لروح الإسـلام وتجـدده وتطوره تسـمح بإعادة كتابة قانون عصري للعقوبات يؤكد على ردع المحرمات في الشـريعة بأسـاليب أكثـر تحضراً وعصرانيـة، وأعلن تأييده لتحويـل العقاب من التعذيب الجسـدي بالقطع والجلد

والرحم إلى عقوبات إصلاحية تنسجم مع الحضارة الحديثة وتنسجم أولاً مع روح الإسلام.

وتحدث الترابي بوضوح عن الروح العلمانية في الإسلام وأعلن تأييده لعلمنة الدولة بمعنى تمييز الدين عن السياسة واعتبار الفقه الإسلامي تراثاً غنياً للأمة يسهم في تشريعاتها دون أن يحتكر الوعي التشريعي لصالحه، ونادى بها فقهاً بين الفقه العالمي وليس فقهاً فوق تجارب الإنسانية.

سيكتب الكثير عن الرجل الذي ظل نصف قرن يشغل العالم الإسلامي بمواقفه في الدين والسياسة، وسيذكره التاريخ مفكراً كبيراً، ولكنه لن ينسى أيضاً أنه ارتكب السياسة بقماطها العربي، ونال منها ونالت منه، ولكنه رحل عن الدنيا ونصيبه من سجونها أكثر من نصيبه من قصورها، ورصيده من المغارم فيها أكبر من رصيده من المغانم.

سيكون الترابي مصدراً ملهماً في فقه الانتقال من الديني إلى الوطني، وربما كانت فتاويه أكثر فتاوى الواقع إلحاحاً وضرورة في الحوار مع التيار الإسلامي الثائر الذي يريد أن يبقى في فلك الشريعة ولكنه لا يريد أن يخرج من روح العصر.

الصادق المهدي

الاسم الكامل	الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي	
ألقاب مشهورة	رئيس حزب الأمة، رئيس وزراء السودان	
المولد والوفاة	١٣٥٣-١٤٤٢ هـ	١٩٣٥-٢٠٢٠ م
المناصب	رئيس وزراء السودان ١٩٦٦-١٩٦٧ ثم مرة أخرى ١٩٨٦-١٩٨٩ م	
رحلة حياة	ولد في السودان ودرس في بريطانيا وتخرج بها طاف العالم الإسلامي، وتم اختياره على رأس عدد كبير من الهيئات والمنظمات، وعرف بالاعتدال والتنوير، وقد خلف مدرسة فكرية وعلمية واسعة الانتشار في السودان. وُتوفي ودفن في السودان	

مؤلفاته	يشير الموقع الرسمي للصادق المهدي إلى أن الصادق المهدي ترك ٩١٥ عملاً علمياً بين كتاب وبحث ومقال
أهم القضايا التي تبناها	• الدعوة إلى الجبهة الإسلامية العربية الفارسية التركية • الدعوة إلى حوار الديانات والثقافات • الدعوة إلى الديمقراطية كمطلب إسلامي أساسي • تحرير المرأة وتمكينها

الصادق المهدي.. قائد الدراويش وفيلسوف الحرية

ودّع العرب الإمام الصادق المهدي الرمز السوداني الإسلامي الكبير وأعلنت الحكومة بشقيها المدني والعسكري الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام، وعلى الرغم من ظروف كورونا فإن الخرطوم شهدت تجمعاً مليونياً مستحيلاً في ٢٠٢٠ في رسالة واضحة عن مكانة الرجل وتاريخه ورسالته.

لا أكتب هنا في النضال السياسي للإمام، فهو تاريخ كامل، وبحسبك من رجل ظل خمسين عاماً مرشحاً دائما لمنصب الرئاسة وقد تولاها منذ كان في الحادية والثلاثين وظلت تراوده عن نفسها حتى الخامسة والثمانين، ولكن أهم خصلتين فيه أنه كان رمز الديمقراطية الدائم، تعرفه منابر السودان وسجونها ومنافيها، وأنه رجل السلم الذي يقود أكبر تجمع شعبي مليوني في السودان منذ ستين عاماً، في بلد أنهكته الحرب والدماء والتقسيم والطائفية ولكنه لم يتورط في قطرة دم واحدة.

ولكن ما أود الكتابة فيه هو الموقف الفكري للأستاذ الإمام فقد يكون الصادق المهدي أكثر كاتب عربي ترك تراثاً مكتوباً، وفي الموقع الرسمي للإمام ستجد أنه ترك ٩١٥ عملاً مطبوعاً، منها نحو ٧٠ كتاباً مستقلاً، فيما تتوزع الإصدارات الأخرى بين أوراق لمؤتمرات أو مقالات أو مشاركات في أعمال علمية وفكرية.

ويعنيني هنا أن أشير إلى عمل بالغ الأهمية قدمه الإمام الصادق وهو كتابه العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الإسلامي، وقد كتبه في سجن كوبر ١٩٨٣ بعد إعلان النميري تطبيق الأحكام الشرعية، وكرس فكرة الكتاب حول قدرة الفقه الإسلامي على التطور وابتكار الحلول والأحكام، وتطور الأحكام بتطور الأزمان، وأكثر ما أدهشني فيه وجوب منع الاستبداد من فجور السياسة بتطبيق العقوبات الشرعية في مجتمع لم يحصل الناس فيه أولاً على الخبز والحرية والكرامة والعيش الكريم.

وأكثر ما أدهشني فيه موقفه الرائع وتحليله الرائع للمدارس الفكرية السائدة في الغرب وقد لخصها في أربعة اتجاهات:

• مقولة الناسوتية التي بالغت في تقدير الإنسان حتى جعلته محور كونه بلا شريك .

• مقولة العلمانية التي بالغت في إنكار الغيب إنكاراً مطلقاً وحصرت القيمة كلها في هذا العالم المشاهد في الزمان والمكان.

• مقولة المادية الجدلية التي بالغت في أهمية المادة بحيث جعلت دوافع الإنسان، وحركة المجتمع، وحركة التاريخ، أصداء لمعطيات مادية.

• مقولة فرويد في علم النفس التي بالغت في قيمة الدافع الجنسي وجعلته الدافع الأساسي في تكوين الإنسان وجعلت كل ما سواه ظلاً له .

ولكنه أكد بوضوح أنه يرتبط بهذه المقولات ثلاثة أخطاء مستمرة: الأولى أنها مقدسة لا تناقش، والثانية أنها مدنسة لا يصح احترامها، والثالثة أنها انتصار العلم على الدين.

لقد أكد السيد الصادق المهدي أن هذه النظريات ليست حرباً على الدين ولا هي تآمر عليه، وأن من السخف أن نتصور أن أصحابها محض شريرين أرادوا الانتقام من الإسلام، بل حلل مواقفهم بموضوعية وعلم، وأكد أنهم يستندون إلى جانب من الحقيقة المحترمة، ولكنهم يبالغون من الأفق الذي انصرفوا إليه.

إن الصراع الهائل بين العلم والإيمان معركة وهم، وطواحين هواء، وإن بإمكاننا على الدوام فهم بواعث الفلاسفة الإنسانية والعلمية حتى نلتقي معهم في نصف الطريق بدل أن نشن الحروب الوهمية الفارغة ضد الحضارة.

أما كتابه النبيل الرائع العلامة إقبال وهو يشكل منهجه الفكري فسأكتب عنه دراسة مستقلة سيما وأنه أشار في مقدمته إلى أن ما اختاره من فكر إقبال من نثر وشعر هو من إعداد الصديق محمد حبش، وكنت قد رفعت له كتابي إقبال فيلسوف التجديد الإسلامي قبل أن ينشر، وفيه

أشد ما كتبته من الشعر جرأة وصراحة.

وأسمح لنفسي أن أكتب عن الإمام من زاوية شخصية، فأنا ابن السودان وخريج جامعاتها النبيلة، وما زال المقْرن عندي أكثر مكان في العالم ألهمني الشعر والنثر، ولا يزال الأنصار في ذهني محراب في يثرب ومنبر في الخرطوم، وما زالت مجالس الحضرات والأوراد في خاطري ولا يزال بخورها يملأ معطفي، ولا يزال دراويشها يلهمونك الحكمة، وما زالت أيام الفقيد الكبير التي عشناها معاً في الأردن والسودان والمالديف وكوريا ومصر والجزائر والمغرب وفي بيتي بدمشق تملأ علي أطيب الذكريات.

من حق الصادق المهدي أن يذكر في التاريخ كزعيم استثنائي، لقد استطاع أن يقود الجماهير المليونية التي آمنت بجده المهدي على أنه بالفعل المهدي المنتظر وافترضت الغيب والعجائب والمعجزات على يديه، ونقلت هذا الإيمان إلى أسرته، وحشدت ملايين الدراويش لهذه العقيدة، وكان بالإمكان أن تصبح قناعة الجماهير في بلدان إسلامية كثيرة أن المهدي الموعود بات له أسرة وعيال، وأن أول الإسلام في مكة وآخر الإسلام في الخرطوم، ولكن الرجل العائد من أكسفورد اختار طريقاً آخر، وأعلن رسالته في الحرية والديمقراطية والمساواة، وبعث في هذه الجماهير رسالة العقل والحرية، ودفع ثمناً غالياً، ومع أنه ترأس مجلس الوزراء عدة مرات أولها وهو في الحادية والثلاثين ولكن نصيبه من السجون والمنافي كان أكبر من نصيبه من الوزارات والتشريفات.

وفي النهاية حكمت له الجنائز، وأعلنه الجميع يوم حداد وطني وخرجت واحدة من أكبر المليونيات المستحيلة في العصر الكوروني وفاء للرجل الكبير.

وأنا سعيد أن أكتب عن رؤيته العميقة التي تشاركناها في فيلسوف الإسلام الكبير محمد إقبال، لقد كنت أرى فيه أعمق صيحات إقبال في مسمع التاريخ، ومراراً عندما كنت أقدم الرجل في محافل دولية كنت أختار لتقديمه كلمات لإقبال، حين كان يصرخ بأسى:

منائركم علت في كل حي ومسجدكم من العباد خال
وعند الناس فلسفة وفكر ولكن أين تلقين الغزالي
وجلجلة الأذان بكل أرض ولكن أين صوت من بلال

وكنت أقول دوماً: أقدم لكم أيها السادة صوتاً من بلال. صوت الصادق المهدي، الذي كان دوماً يبادرنا خطاب الحرية وطيب الحكمة وأكمل الإشراق.

كانت زيارتنا إلى باكستان فرصة للحديث عن مجدد الإسلام الأشهر في القرن العشرين العلامة محمد إقبال، وكنا نتشارك بالفعل النظر إلى ريادة الرجل لموائد المعرفة، وكنا نسارق اللحظات الجميلة لنتبادل ما نحفظه ونرويه من شعر إقبال وإبداعه وحكمته، كنت قد نظمت كثيراً من فكر إقبال الذي دونه في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام.

وفي عام ٢٠١٧ دعي الصادق المهدي إلى مؤتمر العلامة إقبال في إسلام آباد، وقال لي لقد عزمت أن أروي شعرك الذي كتبته في إقبال، فلو سمحت فاكتب لي ما رويت، لقد كانت مناسبة جميلة، وما أروع أن يحمل الصادق عبارتك على منابر الأرض، وبالفعل فقد روى الصادق كثيراً منها في كلمته، وأختار لك هنا بعض ما رواه، حيث ينشر الموقع الرسمي للإمام كامل الورقة على صفحات الموقع. (١) ويؤلمني أن الكتاب طبع قبل شهور ولم يسعد بالوصول إليه.

وفي السور التالية يمكنك أن تدرج الأفكار في حقل الصادق المهدي كما يمكن أن تدرجها في حقل إقبال، فكلاهما ينهل من مدرسة واحدة.

ومن رائع ما كتبه في المقالة:

كان إقبال يعتبر الرومي أستاذه، ويعبر في الكثير من شعره عن مفهوم الرومي بأن جميع المخلوقات تعبد الخالق، ويمكنها أن تشهد بوجوده ونوره وتجلياته على أساس وحدة الشهود لا وحدة الوجود.

أن فكرة إقبال الأكثر ثورية هي أنه بما أن نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة، ينبغي لها أن تحرر المؤمنين حتى يفعلوا مواهبهم الطبيعية من عقل وروحانية وإرادة حرة كمصادر للمعرفة، لكن التفسيرات التقليدية لسنة النبي صلى الله عليه وسلم جعلتها قيوداً على العقل والإلهام الروحي:

كان إقبال مؤمناً مخلصاً للعقيدة الإسلامية، ولكنه استنكر أن جعلها التقليديون قيداً على العقل والحرية. لقد أعجب بالكيفية التي انتشر بها الإسلام وهيمن على العالم لمدة سبعة قرون.

لا تلمني يا صديقي أنني ... خدمة للعقل أنهيت النبوة
لم أشأ أرضى لكم أوهامكم ... فخذوا أقداركم عني بقوة
مجدكم في الأرض لا ترسمه ... جثث تسكن في جوف المقابر
فخذوا أقداركم وانتبهوا ... واصعدوا أنتم على تلك المنابر

(3) https://www.alsadigalmahdi.com

ورأى كيف استوعب الإسلام المعتدين الدمويين مثل جنكيز خان وهولاكو فصاروا دعاة له. قال:

بغت أمم التتار فأدركتها — من الإيمان عاقبة الأماني
وأصبح عابدو الأصنام قدماً — حماة البيت والركن اليماني

ورفض آراء أولئك الذين ضحوا بالهوية لصالح التنمية، محتجاً بأن من يتجاهل ذاتيته سوف يفنى. قال:

كل من أهمل ذاتيته — فهو أولى الناس طراً بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته — كل من قلد عيش الغرباء

ولكنه بقدر ما نادى بأولوية الهوية، رفض الآراء التقليدية التي تجعل الإسلام لا يواكب العالم الحديث.

أن الخطر على الإسلام ليس من الحضارة الغربية التي نمت هي نفسها من جذور الحضارة الإسلامية كما اعترف بيكون، ووات وآخرون. أن الخطر يأتي من فشل الفكر الإسلامي الراكد، والتحلل الاجتماعي.

وفي موقف أكثر وضوحاً يقول: لا يوجد لنظام الخلافة القديم أي مبرر من حقائق الوحي. أن أفضل ما يخدم مبدأ العدالة العزيز في الإسلام هو النظام الجمهوري الديمقراطي. أن تاريخ الخلافة هو تاريخ مُلك مستبد.

ويؤكد الصادق أن تطوير قانون الشريعة أمر حتمي. الفقه الإسلامي له أهداف معينة؛ ينبغي تطوير الأحكام بشكل مستمر لخدمة هذه الأهداف عبر تغيرات الزمان والمكان المختلفة.

والعبادة تجلٍ للتفاني واسع المجال، تقبل كل الساعين لرضا الله، ولله المشرق والمغرب وحيث ما تولي فثمَّ وجه الله. لذلك رفض إدانة الحلاج من قبل التقليديين الذين طالبوا بصلبه. وقال أن لويس ماسينيون كان على حق حول الحلاج. إذ لم يكن موقفه أن يرى نفسه منفصلاً عن الله. وفي هذا الصدد هناك الحديث النبوي: قال الله: «ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، وإن استعاذنى لأعيذنّه» (رواه البخاري)، وهذه الفكرة أعرب الحلاج عنها شعرياً:

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ العيان

فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دان

ويكرر مع الرومي دعم كرامة الإنسان، والأخوة بين جميع الأديان. ويؤكد أن الطريق إلى الله يتجاوز الطوائف والعقائد. يضع إقبال هذا شعراً:

إنما العالم طراً معبد — كل من أحسن فيه يعبد
كل من في دهره قد أجملاً — فكرة أو قولة أو عملاً
كلهم لله نعم العابد — كلهم للخير نعم القاصد

وفي تصور في غاية الشجاعة يعتقد إقبال في الآخرة كجزء من العقيدة الإسلامية. ويعتبر وصفها القرآني مجازاً. بالنسبة له فإن الجنة والنار حالتان لا محلان. الجنة هي أن تنتهي بالقبول الإلهي. والنار أن تخضع للتنقية من الشرور حتى تصير مؤهلاً للقبول الإلهي. ومع أن الأوصاف القرآنية محددة، إلا أنه مذكور أيضاً أن هناك (خلق جديد)، وأن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وأنه (إلى ربك المنتهى). يقول:

أنت روح الله تسعى نحوه — رغبا أو رهباً أو ولها
أي نار أو نعيم ترتجي؟ — وإلى ربك فيه المنتهى

بالنسبة لإقبال، الجنة هي حالة الفوز والرضى. وليس في الإسلام لعنة أبدية. والنار ليست هاوية حفرها إله منتقم، لكنها ظرف لتطهير مرتكبي الشرور ليتأهلوا للحياة الحرة. والجنة ليست عطلة كسولة، ولكنها متعة النعيم الروحي. أنه يردد كلمات الصوفية الشهيرة رابعة العدوية: إن قوماً عبدوك رجاء جنتك فتلك صفقة تجارية، وأن قوماً عبدوك خوف نارك فتلك صفة العبيد وأن قوماً عبدوك لأنك أنت الله .. هؤلاء وحدهم من عرفوك.

أما موقفه من القدر فقد كان ثورة على الفكر التقليدي، ودافع إقبال عن رؤية للقدر ترفض الجبرية التقليدية كجزء من العقيدة الإسلامية. وقد اخترع الطغاة هذا الرأي لحماية سلطتهم الاستبدادية. قال به مؤيدو الأمويين والعباسيين، وبكلمات معاوية: «لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه».

قال إقبال إن الناس أحرار في تقرير مصيرهم. وأن الأقدار تكتب بعد حدوثها. (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم)، كذلك (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ). وأن وجهة النظر التقليدية الجبرية للقدر تعد خفضاً مزرياً لقيمة الإنسان. في شعره:

أيها المسلم يا نور السماء كيف لا تشرق في أرض البشر
أنت سلطان الليالي لا كما قالت الحمقى أسيراً للقدر

أخذ إقبال على التقليديين أنهم حولوا السنة لقفص من حديد، وبكل حب وثقة يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

أيها الصادق كم من نكبة قد نكبناها بنص مسند
لم تكن تعلم لما قلتها أنها دستورهم للأبد

ولذلك، لا ينبغي تصور إعادة بناء الفكر الديني على أساس الهياكل التقليدية، بل على أسس القوانين الاجتماعية والطبيعية للكون، والمفكرون المسلمون سبقوا الغربيين في ذلك، فقد تصور ابن مسكويه التطور البيولوجي، ودعا ابن رشد للعقلانية، ورأى ابن خلدون أن جميع جوانب الوجود، طبيعية كانت أو اجتماعية، خاضعة لقوانين متسقة. أنها عبقرية عقول المسلمين التي حررتها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتجلت عبقرية إقبال في تركيزه على ظاهرة الغائية في الكون، وأن التاريخ يتحرك حتماً في اتجاه صاعد. وهذا من شأنه أن يفضي لعالم جديد أعلى، ويرفض إقبال الروحانية التي تقبل الأمر الواقع. هناك صلة عضوية بين الوعي الروحي والعدالة الاجتماعية، والدعوة لتحرير الشعوب المضطهدة. يقول في إشارة للرسالة الإسلامية:

هل جاءكم نبأ العقيدة عندما خرت لها الأيام للأذقان
ومحت من الدنيا الخوارق بعدما محت الفوارق فطرة الإنسان

يؤيد إقبال كلاً من العقلانية والصوفية؛ ويرى كليهما من مكونات الصفات الإنسانية. وقد خلق فكره في هذا الصدد، وعياً بنّاءً عابراً للثقافات بين العقلانيين المسلمين والغربيين، وبين صوفية المسلمين ومتصوفة الغرب. وهو يرى هنا أنه لا يوجد شيء بشري غريب عليه. وأن قلب الإنسان هو مصدر التنوير. تقول القصيدة:

قلبك الشمس فاقبس النور منه كل ما ترتجيه نفسك عندك

هذه النزعة الإنسانية موجودة بشكل أكبر لدى الرومي الذي يعتبره إقبال أستاذه. والرومي الذي يعد قائد النهج الصوفي في الشعر الإسلامي رفض احتكار الخلاص، ورفض قبول الحيازة الوحيدة للحقيقة. ودعا لأخوة جميع الأديان من أجل تكريم ودعم الأخوة البشرية. يرى إقبال في هذا الموقف جواز مرور المسلم لنادي الحضارة الإنسانية. فليس هناك مكان في هذا العالم

الجديد لمن لا يؤمن بالإنسانية ولمن يرفض الأخوة البشرية. ينبغي أن تزال كل الحواجز لتتآخى الأديان، وتتآزر الأيديولوجيات، ولا يطغى جيل على آخر، ولا يكون هناك مكان لتفوق الذكور على الأناث، ولا يظل من عبد وسيد.

وفي قصيدة جميلة جداً، يعبر إقبال عن مفهومه للإنسانية الإسلامية:

إنما العالم طراً معبد كل من أحسن فيه يعبد
كل من أدلى بقول طيب ينبت الغيث كغيث صيب
كل من أحسن يوماً عملاً كل من أحيا مواتاً هملاً
كل من في أرضه قد زرعا ليغيث العرب والعجم معاً
كل من يغرس مخضر الشجر فيه للإنسان ظل وشجر
كل من ينبط بئراً في السبيل تنفع الظمآن من حر الغليل
كل من يبني بناء حسنا كل من في صنعه قد أتقنا
كل من أحدث علما للبشر ينفع الناس ولم يقصد لشر
كل من في دهره قد أجملا فكرة أو قولة أو عملاً
كلهم لله نعم العابد كلهم للخير نعم القاصد

وكتب الصادق المهدي:

* ملحوظة: القصائد المقتبسة هنا مأخوذة من الترجمات العربية التي نقلها الصديق الدكتور محمد حبش، وقد أمدني بنسخة من دراسة لم تُنشر بعد أعدها عن إقبال.

وفي الواقع فإن من حق القارئ الكريم أن يقف على المنبر الشجاع الذي تحدث فيه الصادق المهدي، وستروي الأجيال أن هذا الرجل كافح طويلاً في مواجهة خطاب الكراهية وخطاب الحرب وخطاب الجهل، واجتاز خطوطاً حمراء نصبها كهنة الاساطير وألقوا عليها القداسة والجلال، ولكن الصادق المهدي حطم بفأس إبراهيم تلك الأيقونات جميعاً، وقال أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون!!

إنني سعيد أن أكتب في مجد الراحل الكبير وأن أسعد بكوني محل ثقته في رواية خطاب التجديد، وقد صدر بالفعل الكتاب الذي كان ينتظر قدومه، ولكنه الدهر.

لقد قال لي في آخر لقاء.

فإن نحن التقينا بعد دهر شفينا النفس من ألم العتاب
وأن سبقت لنا أيدي المنايا فكم من حسرة تحت التراب

لقد استطاع الرجل الذي تخرج في كلية القديس يوحنا بجامعة أكسفورد أن يقود الجماهير المليونية في الريف والحاضر السوداني التي آمنت بجده محمد أحمد المهدي في السودان كمهدي منتظر بشر به رسول الله، وظهرت عليه العجائب والكرامات، وحملت الإيمان نفسه إلى أسرته وعائلته من بعده، استطاع أن يقود هذه الملايين من الصوفية والدراويش وأن يحدثها عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ولا أتردد أبداً في وصفه بأنه قائد أنجح ربيع عربي، عبر موقفه الطويل ضد الاستبداد وسنواته التي سلخها بين السجون والمنافي وهو ينادي بالحرية، وأخيراً قيادته لنداء السودان منذ ٢٠١٨ الذي أدى إلى سقوط الاستبداد، دون قطرة دم، وبالتالي الانتقال إلى بلد متصالح مع العالم، يبشر بالخير الواعد، وبالتالي أعلنته القوى السياسية في السودان قديساً وطنياً تنكس لموته الأعلام ويعلن الحداد الوطني على مستوى الوطن وهو إجراء لا يعرفه العرب إلا لحكامهم الذين يموتون وهم على رأس السلطة.

وحيد الدين خان

الاسم الكامل	وحيد الدين خان	
الولادة والوفاة	١٣٤٩ - ١٤٤٣هـ	١٩٢٤-٢٠٢١م
البلاد والارتحال	وُلد في الهند وارتحل طويلاً بين أوروبا وأمريكا والعالم الإسلامي. كرمته الإمارات عام ٢٠١٧ حيث مُنح جائزة الإمام الحسن بن علي للسلام، وهي من أهم الجوائز الرسمية في الإمارات.	
أهم الكتب التي ألفها	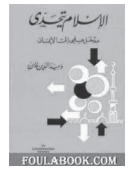 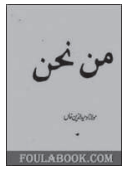	
أهم أفكاره في الإصلاح الديني	• التوسع في باب أنتم أعلم بأمور دنياكم. • اللاعنف منهج وحيد للدعوة إلى الله. • الإسلام ليس دين ودولة بل دين ودعوة. • وجوب وقف تغول الكهنوت على حياة المسلم.	

وحيد الدين خان
١٩٢٥-٢٠٢١م

يمكن القول أن وحيد الدين خان بات منذ مطلع هذا القرن واحداً من أكبر فقهاء الإسلام في القارة الهندية التي يعيش فيها أكثر من ستمائة مليون مسلم، وهو دون شك أكثر مفكريها غزارة وإنتاجاً واطلاعاً وانتشاراً، وكانت إحاطته بالثقافة الإسلامية لا تقل عن إحاطته بالثقافة الغربية، وكان يكتب كتبه بالإنكليزية ثم تترجم إلى العربية والفرنسية والفارسية والتركية والملايو وغيرها.

ولكن ما هي فرادة هذا المفكر الكبير وما مكانته في سماء الفكر الإسلامي؟

لقد قاد وحيد الدين خان حركة إصلاحية دقيقة في الهند، خالف فيها منهج القيادات التقليدية للحركة الإسلامية التي يمثلها المودودي والندوي وقاضي حسين، الذين كانوا يطالبون بحاكمية الشريعة ويشتبكون باستمرار مع الدولة الوطنية لإرغامها على تطبيق الحدود والجهاد وفق رؤية السلف الأول دون اعتبار لتطور الحياة ومرونة الشريعة وقواعد القانون الدولي.

وعلى الرغم من مكانته المعروفة في علوم الشريعة ولكنه تعرض لحملة قاسية من خصومه بعد أن أعلن موقفا مختلفاً في وعيه بالإسلام، وفي حين رفع أبو الأعلى المودودي شعار الإسلام دين ودولة، فإن وحيد الدين خان رفض ذلك كله ونادى بأن الإسلام دين ودعوة.

لقد أنجز وحيد الدين خان إصلاحاً كبيراً في الوعي الإسلامي وتحمل في سبيل ذلك كثيراً من العداوات، ولكنه تمسك بموقفه وأسس لمجتمع مسلم متسامح لا يسعى لفرض إرادته على الآخرين، ولا يؤمن بالجهاد سبيلاً لنشر الإسلام، بل يراه فعلاً دفاعياً للحفاظ على الأمن والحياة، ويمكنني أن ألخص إصلاحه الديني في نقطتين أساسيتين:

الأولى: نادى وحيد الدين خان بنبذ العنف كله، واقترب كثيراً من منهج المهاتما غاندي في اللاعنف، ورفض وجود السلاح بيد الأفراد مهما كان علمهم وفقههم، ورفض كل تبرير لاستخدام العنف تحت عنوان إقامة حاكمية الله، ودعا إلى استلهام السيرة النبوية، فالرسول الكريم قام بخمس محاولات لبناء دولته في مكة والطائف والحبشة والحيرة والمدينة، وقد أخفق في أربع منها ونجح في الخامسة ولكن كل المؤرخين من مسلمين وغير مسلمين

أكدوا أن الرسـول لم يسـتخدم في كل محاولاته أي لون من السلاح ولا حتى سكين مطبخ، وظلت رسالته الكلمة والحكمة، على الرغم من أن أعداءه مارسوا ضده التوحش والعنف.

وفي مغازيه التي يفرح المؤرخون بسردها وتسميتها ويبلغون بها ٢٨ غزوة و٣٢ سرية فإن وحيـد الديـن خان يؤكد أن هذا الرقم مضلّل تماماً وأن الرسـول لـم يلتحم مع أعدائه إلا في ثلاثـة أيام فقط، وكان مرغماً على القتال للدفاع عن نفسـه وهي أيـام بدر وأحد وحنين، ولم يزد القتال عن اثنتي عشـرة سـاعة في كل مرة ويجزم بأن طول المعارك التي خاضها الرسول لـم يتجاوز ٣٦ سـاعة تحديداً فيما كانت كل أيامه الأخرى سـلاماً ومحبـة. ولا أدري لمَ لم يذكـر يوم خيبر وعلى كل حال فالمعارك لم تزد عـن أربع والباقي كله تفاوض ومصالحات وحوارات.

ويأسـف وحيـد الدين خان للولع الذي مارسـه كتاب السـير في تسـمية أيامـه بالغزوات والسرايا وهي لم تكن على الإطلاق حروباً ولا غزوات ولا معارك.

ورفـض وحيـد الدين خان بشـدة تربيـة الجهاد الـذي تمارسـه الحركات الإسـلامية في باكسـتان والهند حيث يتم تبرير العنف ضد الأنظمة لفرض حاكمية الشـريعة التي اعتبروها نقيضاً مطلقاً لحاكمية البرلمان، واعتبار الأسـلوب البرلماني مناقضاً للشـريعة، وهو الاتجاه الذي أسـس به المودودي للإسـلام السياسـي في الهند ومنها انتقل إلى مصر والبلاد العربية وقد بات في عداء مسـتمر مع الحكومات الوطنية، يرفض أي تطوير للإسـلام ويطالب بشدة بتطبيق الإسلام الحرفي وفق فهم السلف الأول.

الثانية: أما الإصلاح الجوهري الثاني فقد نادى وحيد الدين خان بصراحة بدور أكبر للعقل فـي تطوير الشـريعة، ورفض تغـول رجال الدين الذين اعتبروا كل مسـألة من مسـائل الحياة حكمـاً شـرعياً، وبات لزاماً على المسـلم أن ينتظـر رأي رجل الدين في الصحـة والاقتصاد والمعامـلات والاستنسـاخ وكرويـة الأرض ودورانها، وفـي هذا الجانب شـن وحيد الدين خان حرباً ضارية على هذا المنطق الذي يمارسـه رجال الدين، واعتبر أن الإسلام جاء أصلاً ليقضـي علـى ثقافة الكهنـوت التي تصر على عجز الإنسـان وحاجته للوحي في كل شـيء، وربط هذه الممارسـة بالمنطق اليهودي التوراتي الـذي كان ينتظر من الوحي بيان لون البقرة وطولهـا وعرضهـا ووصفها، حتى صار الإنسـان بليـداً خمولاً عاجزاً لا يسـتطيع أن يتحمل مسـؤوليته في اختيار قرار حر مسـؤول في معاملاته وحاجاته، وأكد أن هذا ما جاء الإسـلام ليحاربـه وليس ليكرسـه عبر رجال الدين، وتأسّـف وحيد الدين خـان أن الفقهاء فتحوا باب

الاجتهاد في العبادات وأغلقوا باب الاجتهاد في المعاملات وهذا عكس ما جاءت الشريعة تبشر به وتدعو إليه.

وفي توضيح ذلك قال في كتابه تجديد الدين: أن الإنسان الواعي المتحرر لو ألقى نظرة على مكتبتنا الإسلامية سيجد فرقاً شاسعاً بين «الدين المُنَزَّل» و«الدين المُدَوَّن»!.

أن الاتجاه الذي سار فيه تدوين الدين لم يكن صحيحاً، وأن تحويلَ كل أمر في حياة المسلمين، سواء من قِبَلهم أو مِن قبل الفقهاء ودور الإفتاء، إلى «مسألة شرعية» ليس من الإسلام في شيء، وإنما هو اليهودية المُحَرَّفة الذي جاء خاتم النبيين للقضاء عليها!.

أن المُفْتِين، غالباً، كلُّ أمرٍ عندهم هو «مسألة شرعية»، فيبحثون عن جزئية في كتب الفقه ليَرُدُّوا إليها «المسألة الشرعية الجديدة»، أو ليفهموها في ضوئها!

أن أمتنا اليومَ تَئِنُّ تحت «الإصر والأغلال»؛ حيث قد أضاف المشايخ إلى الإسلام ما يُشْبِه تلك الإضافات التي أضافها فقهاءُ اليهودِ والفَرِيسيون، والتي شوهت الشريعة الموسوية، وأول واجبٍ لتجديد الإسلام اليومَ هو تطهيره من كل هذه الإضافات، ودون القيام بهذا الواجب، لا يمكن لنا أن نخطو خطوةً واحدة إلى الإمام في سبيل «إحياء الإسلام» في عصرنا هذا.

أن هذا «الدين الفني/ التقني/ القانوني/ التفصيلي» جافٌّ؛ يسبب القسوةَ في القلوب، ويَحْرِمُ الإنسان من المشاعر اللطيفة النبيلة.

»الدين الإلهي» يوجه الإنسان نحو الحقائق والمعاني، بينما «الدين الفني» يَشْغلنا في الجزئيات.

والدين الإلهي يعلم الإنسان الفكرَ والتدبرَ، بينما رجال الدين يفتحون أبواب الجدال العقيم دون حدود.

لقد رحل وحيد الدين خان، ولا تزال معظم كتبه بالإنكليزية لم يترجم للعربية منها إلا نحو عشرة كتب، أبرزها كتابه تجديد الدين وهو رؤية تطويرية متقدمة تؤمن بأن الدين كائن حي، ومن حقه أن يتطور ويستمر، وأن يغتني بتجارب الأمم، وليس أن يتحنط في تطبيق السلف الصالح، وأن السلف الصالح لو شهدوا عالمنا المتسارع لأنكروا علينا الموقف السلفي وطالبوا بفقه جديد يستنير بالقرآن ولكنه يعمل لمصالح الأمة.

رحيل وحيد الدين خان سيطرح هذه الأسئلة من جديد، فهل سيدرك مشايخنا أن المستقبل لصوت العقل والبرهان وليس لتقليد السلف، وأن السلفية مرحلة زمنية عابرة

وليس من العقل أن تحكم عالمنا اليوم، ومن حقنا أن نقول أن الآية المباشرة التي نزلت في السلف الصالح هي قول الله: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.

وفي رحيله يوم ٢٢/ ٤/ ٢٠٢١ كتبت هذه الكلمات:

رحل أمس العلامة المفكر وحيد الدين خان عن عمر يناهز المائة عام ملأ فيها العالم الإسلامي بفكره وعطائه، وقد كتبت في رحيله هذه الكلمات:

مولانا وحيد الدين خان في ذمة الله وقد أكمل مائة عام هجري.

أستاذي الكبير ومعلمي وملهمي

أبرز فقهاء الإسلام في القارة الهندية وأبرز دعاة الإخاء والسلام في الأرض.

استيقظت على يديه في كتابه المجيد الإسلام يتحدى قبل أربعين عاماً، فوجدت السكينة والطمأنينة من رياح القلق، ثم قرأت له كتابه تجديد الدين، فبعث في روحي إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وعلمني أن الله أكبر من أن تحده أمة أو دين، وأن خزائنه الملأى تنتشر بين كل عباده، وتبلغ أهل اليابان كما تبلغ أهل القرآن، ويشرق بها سور الصين العظيم كما تشرق بها بطحاء مكة، وحين يشرق النور في قلبك فستعلم أنه في كل قلب نور.

لقد أدركت أنني أمام أعظم مجددي الإسلام في القارة الهندية.

كان حلمي في الحياة لقاؤه، وجثوت بين يديه مرتين، مرة في لوس أنجلس في مؤتمر السيرة النبوية والثانية في أبو ظبي حين تم تكريمه بجائزة الإمام الحسن بن علي للسلم العالمي.

حين يعصف بي القلق في رسالتي المريرة في إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وفي البحث عن إسلام بلا حروب، وعن نص يهدي ولا يأسر، أتذكر أن هناك في آخر الدرب هذا العملاق الهائل.. مولانا وحيد الدين.

وحين ألقى ما ألقاه من صدود وتزاحم الفتاوى في التكفير والزندقة تطل في روحي عيناه الحائرتان ترويان لي صبر الأنبياء وثبات القديسين.

وحين أقرأ ما شنه عليه خصومه بعد خروجه من عباءة المذهب ودخوله في دين العالم وجنة الإنسان أشعر بأنها درب واحدة.. ولا ينبغي أن توحشك قلة السالكين.. ففي آخر الدرب ستجد هذه الروح الطاهرة النقية.

وحيد الدين خان إمام لكل المسلمين... ولكنه بالنسبة لي المعلم الأكثر إلهاماً، ولا

أعرف فكرة أتحدث بها اليوم إلا وقد قرأتها لأحد المعلمين العظيمين جودت سعيد ووحيد الدين خان.

رحمة الله على روحك النبيلة أيها الجبل الشامخ.

لقد حاربوك طويلاً، وحين أدركوا صدق نصحك تزاحموا على بابك بأرقى الجوائز، ويا سعد من تقبلت منهم .. فإنهم هم الفائزون.

اللهم اجعل الجنة له داراً والنبي له جاراً والملائكة له زواراً

جودت سعيد

الاسم الكامل	جودت سعيد	
ألقاب مشهورة	غاندي الإسلام	فيلسوف اللا عنف
الولادة والوفاة	١٣٥٠-١٤٤٤هـ	١٩٣١-٢٠٢٢م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في بير عجم بالقنيطرة السورية ورحل إلى مصر والسعودية ثم عاد إلى القنيطرة بعد تحريرها ١٩٧٣ نشـرت كتبه دار الفكر والرسالة في سوريا ولاقت رواجاً واسعاً في العالم، وترجمت للتركية والإنكليزية، ومن أهم كتبه حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكن كابن آدم، ومفهوم التغيير	
أهم الكتب التي ألفها		

أهم ما ألف عنه	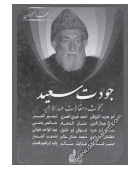
أهم من تأثر بهم	جلال الدين الرومي ومحمد إقبال ومالك بن نبي
أهم من تأثروا به	له تأثير كبير على شباب الصحوة الإسلامية في بلاد الشام
أهم قضايا نادى بها	• المذهب الإنساني في الإسلام • الوئام مع العالم • اللا عنف ضرورة ورسالة • مواجهة القابلية للاستعمار

جودت سعيد.. غاندي الإسلام

يعتبر المعلم جودت سعيد أكثر القادة الإسلاميين المعاصرين وضوحاً في اختيار إخاء الأديان وكرامة الإنسان، حيث قدم للمكتبة العربية سلسلة كتب تشرح عمق رؤيته الإنسانية وإخاء الإنسان للإنسان، ودعوته الجريئة لنبذ العنف كله، ومن أبرزها: حتى يغيروا ما بأنفسهم، وفي الآفاق والأنفس، ومذهب ابن آدم الأول.

يؤسس جودت سعيد لوعي مختلف عن الدين، جوهره الإنسان، ويعتبر الإنسان محور الرسالة والنبوة، وبذلك يكون النص في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة النص.

ويبني جودت سعيد رؤيته وفق قانون السنن في الآفاق والأنفس، ويعتبر أن السنن حين يحكمها العلم دراسة وضبطاً وتجربة فإنها تغدو مصدراً حقيقياً للتشريع لا يقل برهاناً عن نصوص الوحي، بل يصبح حاكماً على النص ومفسراً له وموجباً لتأويله، فالوحي قرآن والسنن برهان، وحين يتحقق الوعي فسيكون لدينا قرآن مسطور وقرآن منشور، ومصحف متلو ومصحف مجلو، وآيات الله في المخابر أكثر من آياته على المنابر، وكل نص شارح مهما كان بليغاً فلن يكون أبلغ من الحقيقة نفسها، فكل شرح للوردة مهما كان فصيحاً

وشاعرياً ومقدساً فإنه في النهاية يذوي في قوة التعبير عندما تحضر الوردة نفسها كحقيقة ملموسة تراها العين وتلمسها اليد وتشمها المشاعر.

كل سنة من سنن الله يحسمها العلم ويتفق عليها العقلاء تغدو برهاناً شرعياً له قوة الوحي، بل هو في الحقيقة الوحي الثاني من الله، حيث يعيش المؤمن بين وحي الغيب ووحي الشهادة.

ويتحدث جودت سعيد عن الأديان بوصفها مشروعاً إلهياً واضح الغايات والمقاصد «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» فجعل القسط والعدل غاية مجيء النبوات، وسر استخلاف الإنسان في الأرض، وعندما تضع الإنسانية قواعد العدل والقسط والبر، وتنجز ذلك على الأرض ويتفق عليه الناس فإن أهداف النبوة ومقاصد الأنبياء باتت تتحقق تماماً بدلائل الشهود كما تحققت من قبل بدليل الغيب.

أن الإنسانية تتوزع في أمم وشعوب وليس الإنسان من اختار مكانه على هذا الكوكب، ويولد الناس في الهند هندوساً، وفي الحجاز مسلمين، وفي تايلاند بوذيين، وفي أوروبا نصارى، ومن بؤس الظن بالله أن نتصور أن حسابهم سيكون على وفق تصوراتنا ومعاييرنا، بل وفق قانون إلهي محكم «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى» «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»

وكتب المعلم جودت سعيد:

المسلمون تقبلوا السنن الكونية بعد صدود طويل، والطباعة والهاتف والتلفزيون والتصوير ظل حراماً في نظر كثير من المشايخ سنين طويلة، والمشايخ حرموا طباعة المصحف ثلاثة قرون، ولكن بعد ذلك تقبل المسلمون هذه السنن الكونية... وأصبحنا اليوم نستغرب كيف كان آباؤنا ينكرون ذلك؟

ذات يوم سيستغرب أحفادنا كيف كنا نرفض السنن الاجتماعية في المساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الدين والتعبير وحقوق المراة وتداول السلطة.

الإنسان حر في الدين أو في الإلحاد، والمرأة والرجل أحرار فيما يلبسون، والمجتمع حر في اختيار شريعته إذا مارس الشورى، والدين لله والوطن للجميع.

ثلاثة أمراض حذرنا القرآن منها... ولكننا سقطنا فيها:

وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.... وقلنا مثلهم!

وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليس اليهود على شيء....

وقلنا مثلهم!

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه .... وقلنا مثلهم!

متى ندرك أن الله لا يحابي على سواد العيون، وأن أهل الشام ليسوا أقرب إليه من أهل اليابان، وأن الخلق كلهم عيال الله، وأن الديانات والحضارات مسارب نور.. نتقبل منهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم!

ويقول جودت: لما بدأ الاهتمام بالواقع والتفاهم مع الله بواسطة سننه، توقفت النبوة لأن النبوة مرحلة انتهت، وينقل عن إقبال: «أن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة – ختم – النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً – إلى الأبد – على مقود يقاد منه وأن الإنسان لكي يحصل على كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يُترك ليعتمد في النهاية على وسائله البشرية.

«الذي أريد أن نفهمه من هذا أن دلالة الكتاب يمكن أن تُلغى إلغاءً تاماً، وكانها غير موجودة، والذي سينبه المسلمين إلى هذا، ما جاء في الكتاب من الاهتمام بالتاريخ وأحوال البشر وحوادث التاريخ، أي أن الذي سيعلّمنا ليس القرآن، وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ هي التي ستعلمنا.

ثم يقول بما يؤكد تقديمه للواقع على كل شيء ولو كان كلام الله: «إن الزهرة مثلًا أدل على نفسها من كل كلام يقال عنها حتى لو كان كلام الله..

وفي صرخة جريئة قال جودت: لم تعد ترهبني قعقعة الكلمات: الروح، النفس، الله أو الرسول أو قال فلان وفلان، نريد أن نتحدث ماذا يحدث لنا، وكيف يحدث الفهم؟ كيف يعرف ما فهمناه أننا فهمناه؟ وكيف انتقلت إليَّ هذه الأفكار؟ دعونا من الحديث عن السماء، ولنبحث عن مشاكلنا في الأرض!

وفي موقف واضح ضد ثقافة الآبائية واتباع السلف:

أن الوقوف عند ما كان عليه الآباء في كثير من الأمور صار انتحارًا الآن. أن انتقال السلطة بالقتل والغدر، وفرح الناس بذلك، كان مقبولاً فيما سبق من الزمان حين كان الناس يفهمون الله وسننه على مستوى معين. أن الناس عندنا يفهمون أن الله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده كل شيء. ولكن الله أوصل البشر بسننه أقواماً هم أنفسهم يؤتون الملك من يشاءون وينزعون الملك ممن يشاءون. علينا أن نفهم حجم الآباء. أن آباءنا لم تكن لديهم قدرة على تفهم هذا الموضوع، فارتدوا إلى القتل

والغدر ونبذ الأمانة والصدق ودخلوا باب الغدر والخيانة والسفك والسحل.

أن قانون نظام الله في الوجود: أن الزبد سيذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس (جميع الناس) سيمكث في الأرض مهما طال الزمن وتأخر الفهم والإدراك. «وأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.» وقانون الله هو أن نتقبل من الآباء سواء المحليين أو الأبعدين أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، وأن نعتقد أن التاريخ وخلق الله لم يتوقفا عند آبائنا ولا آباء غيرنا. كلهم، كل الآباء يوماً ما كانوا يعيشون في الكهوف عراة، ويموتون افتراساً من الوحوش. ونحن نقرأ في القرآن قول يعقوب لأبنائه عن يوسف، أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. كان هذا شائعاً في تلك الأيام التي ليست موغلة في القدم.

لا بد من أن نصحح موقفنا من الآباء. والله يقول أن تقليد الآباء عقبة. أن الحب يعمي ويصم كما ورد في الحديث. والقرد في عين أمه غزال كما في الأمثال الشعبية، وكل فتاة بأبيها معجبة، إلى أن يبلغ الإعجاب إلى سد منافذ الفهم والإحساس ويصل إلى الإغلاق التام حتى «ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون». ولهذا ورد في بعض المأثور عن الرسول (ص): وكيف تعدل مع القريب. فمن هنا كانت شهادة الأقارب لبعض أو على بعض مرفوضة، التعصب للأب والعشيرة والقوم والدين واللون. ولهذا كان من الصعوبة رؤية الحق أو الباطل المتعلق بالآباء، وكان مرجع المعترضين جميعاً على الأنبياء هو الاحتجاج بالآباء. ومع أن القرآن يدين الذين يقلدون آباءهم فإن المسلمين يستثنون أنفسهم من فكرة الآبائية كانهم ليسوا بشراً من البشر وكان آباء الآخرين هم المدانون فقط، وكان المجتمعات التي تقلد آباءها هي المخطئة فقط.

عندها تلوى الأعناق وتزيغ الأبصار ويشتبه الحق بالباطل. لهذا الأمر من الله بأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا والأقربين أمر ثابت وصارم. وعلينا أن نخضع آباءنا لقانون التاريخ الذي لا يرحم الزبد. وخير للناس والأبناء والأحفاد أن يذهب الزبد جفاءً وخير للجميع أن يمكث في الأرض ما ينفعهم

فكيف سيقرأ الذين من بعدنا بحوثنا هذه وكيف سيحكمون علينا. أن حكم التاريخ أليم شديد. «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أن أخذه أليم شديد». ونسأل الله العلي القدير أن يعلمنا الاعتبار، فنغير مواقفنا. يكفي ما ذقنا من العذابات حتى نتعلم الاعتبار من التاريخ.

وفي جوابه حول حركة التاريخ ومسؤولية الإنسان المسلم فيها كتب يقول:

أن التاريخ مثل الكمبيوتر في جانب ما. فالكمبيوتر لا ينفعل وإنما بكل برود يقول: هذا خطأ، كرر محاولتك مرة أخرى. التاريخ هو العقل. ونحن عقلنا في أزمة، لأننا في أزمة مع التاريخ. أن بعض عباراتي في هذا الموضوع تقول: أن من لا يعلم التاريخ لا يُوثق بعلمه.

القرآن يقول أن الذي سيشهد له هو التاريخ، انظروا إلى عاقبة الذين يكذبون هذا، «فإنظر كيف كان عاقبة المكذبين». التاريخ مصدر المعرفة كما شهد بذلك وعلى ذلك محمد إقبال. وفي القانون من أثبت الدعوى فهو الشاهد والقرآن يقول إن الذي يشهد له بالحق والصدق هي آيات الآفاق والأنفس. إذن، مرجع القرآن هو التاريخ، وهي آيات الآفاق والأنفس، وهي أيام الله. «وذكرهم بأيام الله». الأيام التي قصمت فيها ظهر البعير، الأيام التي انكسر فيها من انكسر، وانهزم فيها من انهزم، وهلك فيها من هلك. «وتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، ولكن كيف يمكننا تجاوز الأزمة؟

يمكننا ذلك بالاعتبار بالذين من قبلنا وبالذين يعيشون معنا كيف كانوا في أزمة مثلنا وأسوأ. كيف كان العالم الغربي يذيق بعضه بأس بعض في حروب قومية ومذهبية وعالمية، كيف أذاق بعضهم البعض العذاب الهون وكيف رجال الدين المسيحيين الذين يتلون في كتابهم، «أحبوا أعداءكم»، أذاقوا بعضهم البعض العذابات. ثم كيف هم الآن تجاوزوا هذه الأزمة والأزمات؟ «أن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

إن لم نعتبر ونوحد مصالحنا بالأسلوب الذي يوحد به الأوربيون مصالحهم فسنضطر أن نفعل ذلك اعتباراً بعد أن نشبع عذاباً وخساراً. يجب أن نتوحد من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ونختزل التاريخ بأسلوب سلمي وعلمي. وإن لم نتعلم فسيعلمنا التاريخ، ولكن تعليم التاريخ بالعذاب. «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أن أخذه أليم شديد». علينا أن نتابع الحدث الأوروبي. إنه حدث جديد في تاريخ العالم. لم يحدث مثل هذا التجمع في البشرية من قبل. وكل شيء يحدث مرة فمعناه أنه صار علماً وسنة وقانوناً يمكن تكراره وإعادته مع الناس كلهم بتوفير قوانينه وتسخيره. لهذا كان واجباً علينا، ولا يزال يجب علينا، دراسة الحدث الأوروبي من بداياته إلى نهاياته، وكيف تحت سمعنا وبصرنا يحدث ما يحدث ولكن لا نسمع ولا نبصر كانه لا يعنينا ولا يفيدنا ولا عبرة لنا فيها. كيف تحملت ألمانيا الوحدة الجديدة، كيف تحملوا الخسارة الآنية لأنهم يبصرون الريح الآتي، كيف فتحوا الحدود، كيف يوحدون العملة. هذه لم تنزل من السماء، ولا رجال الدين هم الذين يعملون هذا. وإنما رجال العلم والتاريخ وعلماء الاجتماع وعلماء الإحصاء الذين

يقدمـون البيانـات. إلى الآن العلـم عندنا محقر والقوة هـي المحترمة. أن مـا يفعلونه أعظم مـن تفجير القنبلة النووية. ولكن لا يشـترط لعمل مثل ذلـك أن نصنع قنبلة نووية. فليس من الضروري أن نعمل مثلهم ونمر بنفس المراحل حتى نصل إلى ما وصلوا إليه. (١)

يبقـى جـودت سـعيد أوضح من أفصح عن مشـاكلنا، ونجح فـي ربط القيـام والعثار في تجارب الأمم، وأكد أن الأمة الإسـلامية سـياق في التاريخ وليسـت استثناء منه، وقد أكسبته نظافـة قلبه ولسـانه وكفه ثقـة كبيرة لدى محبيـه وناقديه على السـواء، ولا تزال أفـكاره تنير للجيـل الآتـي من أبناء الصحوة الإسـلامية خصوصاً كثيراً من الأفهام التـي تصنع الوئام بين المسلم والعالم.

(١) نقلنا هذه النصوص عن الموقع الرسمي للشيخ جودت سعيد /https: / /www.jawdatsaid.net

روبرت كرين

الاسم الكامل	روبرت كرين، وقد تسمى بعد إسلامه: فاروق عبد الحق	
الولادة والوفاة	١٣٤٩-١٤٤٣هـ	١٩٢٩-٢٠٢١م
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في أمريكا ودرس الحقوق في هارفارد وعمل سفيراً لأمريكا في الإمارات ثم مستشاراً للرئيس نيكسون واعتنق الإسلام ١٩٨٠. رحل إلى سوريا وأقام بها زمناً وأخذ عن الشيخ أحمد كفتارو، ثم عاد إلى الولايات المتحدة وتولى إدارة عدد من مراكز الدراسات، ثم رحل إلى قطر عميداً لبرنامج الحوار الحضاري في مؤسسو قطر للتعليم، واشتهر بعمق رؤيته ووعيه لمشاكل العالم الإسلامي وبؤس السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.	
أهم الكتب التي ألفها	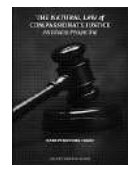 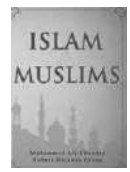	

أبرز أفكاره في التجديد	• الإسلام شريك في الحضارة ينظم ولا يحكم، يعمر ولا يدمر • القداسة رتبة لكل من عمل صالحاً من البشر • الحرية رتبة إيمانية ولا يجوز الخضوع إلا لله • مسلمو الغرب رسالة حضارية وجسر بين الأمم

الإمام روبرت كرين

قد يكون أبرز أمريكي يختار الإسلام خلال هذا القرن.

ولعلك تعترض على تسمية الإمام، فقد ألفنا أن الأئمة هم المتخصصون من رجال الفقه والدين، وهم أولئك المعتكفون في المحراب يقودون الشعائر، أو يتفوقون في الفتوى، فمتى كان روبرت كرين إماماً؟.

وفي الواقع فإنني على يقين أن صديقنا الذي نعرف به اليوم جدير بهذا اللقب والمكانة، فهو على درجة من العلم والاستقامة قل أن يبلغها آخرون، وقد أحاط إلى جانب قيم الدين بمعارف العصر، ولست أدري لم يجب أن يكون الأئمة قد ماتوا قبل ألف عام، ولم يجب أن يكونوا قد درسوا على المشايخ جثواً على الركب، ولم لا يتسع نادي الأئمة لأولئك الذين طافوا رحلة طويلة في البحث عن الهدى والنور ثم وقفوا على أرض من يقين ومعهم تراث وخبرات وتجارب تؤهلهم لأدق الإجابات عما يبحث عنه الحائر والسالك.

تخرج من هارفارد ثم أصبح رئيس الجمعية القانونية في جامعة هارفارد، ثم المستشار السياسي للرئيس نيكسون ١٩٧٣ سفير الولايات المتحدة في الإمارات ١٩٨١ ثم نائب مدير مكتب الأمن القومي في الولايات المتحدة.

بعد مشوار طويل اختار روبرت كرين عام ١٩٨١ أن يعتنق الإسلام.

وفي إرادة واضحة للتعرف على الإسلام أكثر رحل كرين من الولايات المتحدة إلى دمشق وعاش أياماً روحية غامرة في جامع أبو النور، واستضافه الشيخ أحمد كفتارو في مزرعته، ولكنه أصر أن يكون مع الطلبة ولقد كنا نشاهده وهو يقف بكل حبور وفرح في طابور الطلبة من الأفارقة والشيشأن حين توزيع وجبة الغداء أو العشاء!

أهـم أفـكار كرين كانت فـي وجوب إصلاح الفهـم المتبادل بين الإسـلام والغرب، وأن الغرب ليس من مصلحته أبداً الأنصات إلى دعوات الكراهية ضد الإسلام، وكذلك فإن على المسـلمين أن لا تثيرهم صيحات الكراهية لأن المشترك كثير وبإمكاننا أن نبني بستاناً واسعاً لحضارتينا بعيد عن الحدود الدموية التي يرسمها الاستئصاليون في الجانبين.

وكان يعتبر الآباء المؤسسـين لأمريكا توماس جيفرسـون وفرانلكيـن روزفلت وإبراهام لنكولن أعظم الناس إيماناً، وأشار بوضوح أنه يعتبر مشروعهم في العدالة والحرية والمساواة مشروعاً إسلامياً بامتياز، على الرغم من أن الكهنة اعتبروهم ضالين وملحدين.

يصرح كرين أن ما شـده إلى الإسـلام هو نصف الشـهادة الأول وهو لا إله، فقد كان يرى أن الخضـوع لأي إلـه هو نوع من الذل والخضوع لكاهـن يختبئ في عباءته ديكتاتور خادع، ولكنه اكتشـف لأول مرة أن الإله الذي يدعو له الإسـلام ليس بشـراً ولا نبياً ولا بطريركاً إنما هو القانون الكلي في العالم، هو العلاقة الروحية الغامرة بين الإنسـان والعالم، وهو الحقيقة التي يسـجد لها الإنسـان في العالم كله راضياً او راغماً، وهو الإله الحق الذي لا يحق لأحد أن ينصب نفسه نائباً عنه على الأرض.

صحبتـه طويـلاً في الشـام والتقيته في مكـة وفي قطر وأخيراً قبل شـهر في أبـو ظبي وقد تجاوز التسعين بارك لله في حياته.

قال لي يوماً... تعلم يا محمد.. أن أكثر ما شـدني إلى الإسـلام هو اسم الله.... أنا أنتمي إلى الأمريكان الأصليين الذين تسـمونهم الهنود الحمر... لقد درست تراث أهلي وثقافتهم وتعرفت إلى آلهتهم الكثيرة حيث لكل شـيء إله : الشـمس والقمر والرعد والليل والوحش والتنين والبطاطا والبطيخ.... ولكل إله أيقونة ورمز ومعبد..... هناك إله واحد يعبده الهنود الحمـر اسـمه (يـا الله) هذا الإله ليس له معبـد ولا له أيقونة وحين سـألت عنه قالوا هو ليس كالآلهة ليس كمثله شيء يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

هـذه الفكرة أكدت عند كرين الأصول الإسـلامية للهنود الحمر وهـي نظرية معروفة في الولايات المتحدة وبشـكل خاص في أمريكا الجنوبية... يقول كرين... وهذا ما شكل لدي دافعاً كبيراً للبحث عن الإله المفقود ولشـد ما كانت المفاجأة أنني وجدته في الإسـلام تماماً كما كنت أبحث عنه في خاطري وضميري من قبل !

وفـي موقف آخـر تحدث كرين عن طبيعة الرسـالة الإسـلامية وقال فيما قـال: لا أعرف مجتمعاً كان أكثر فوضى ومظالم من مجتمع مكة، لقد كانت العرب تباهي بالغزو والسـلب

وكانـت تعتبر ذلك من الرزق المشـروع، ويكفي أن تكـون أقوى حتى يعتبر ما غنمته حلالاً، لقد اختار الله تلك البلاد وأرسل فيها رسوله وبالفعل نجح في صناعة مجتمع آمن، وقناعتي أن النجاح في بيئة مكة يعني أن هذا البرنامج يمكن أن ينجح إذن في أي مكان في العالم.

ومع أن كرين لم يقدم نفسـه كمصلح إسـلامي ولكن مواقفه ومشـاركاته تجعلنا نطمئن إلى خطاب رجل فريد يرى في الإنسان أخاً للإنسان، ويرى القدسية ذاتها التي نراها في جيل الأنبياء والصحابة والتابعين في جيل الآباء المؤسسين، فهو يلقي نوعاً من القداسة على كل أولئك الذين أحسـنوا إلى البشـرية وأعانوا في جعل عالمنا أفضل، كما أنه يندفع بشكل كبير نحو إخلاص العبادة لله، فلا يكون فيها وسيط ولا شفيع، ولا كهنوت ولا رهبنة، وأن تحقيق التوحيد أن ندرك أنه لا شيء ابداً يستحق أن نصرف له العبادة والخضوع إلا الله.

في مواقف التشدد
من رجال التنوير

كتب السلفية طويلاً في التشكيك بأعلام التنوير واتهامهم في دينهم، وهذا أمر متوقع منهم، فالقوم كانوا بالفعل ثورة على التقليد والاتباع وأطلقوا بوضوح دعوة للاجتهاد الحر.

وأختار لك هنا مقالاً مشهوراً للشيخ ناصر الفهد، وهو من تيار سلفي متشدد، موثق بالأدلة من كتب التراث يثبت فيه أن علماء الحضارة الإسلامية مرتدون وكفرة وزنادقة... ولا يوفر منهم أحداً:

جابر بن حيان والبتاني وابن سينا والفارابي والكندي والخوارزمي وابن الهيثم وابن باجه وابن رشد وابن طفيل والجاحظ ومسكوية والمجريطي والإدريسي وأبناء موسى بن شاكر والبيروني والطوسي وعباس بن فرناس وابن جبير وابن بطوطة.

ثم قال: هذا مختصر .. ولا يزال كثير.

وهذا نص المقال:

«قائمة باشهر العلماء وما قال أئمة الإسلام فيهم وفي عقائدهم.. وقد تركت منهم أكثر مما ذكرت، لأن القصد التنبيه لا الحصر، وقد رتبتهم على حسب الوفاة».

ابن المقفع – عبد الله بن المقفع – [ت: ١٤٥ هـ]:

كان مجوسياً فأسلم، وعرّب كثيراً من كتب الفلاسفة، وكان يتهم بالزندقة.

لذلك قال المهدي رحمه الله تعالى: (ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع).

جابر ابن حيان [ت: ٢٠٠ هـ]:

أولاً: أن وجود جابر هذا مشكوك فيه.

لذلك ذكر الزركلي في «الأعلام» في الحاشية على ترجمته: (أن حياته كانت غامضة، وأنكر بعض الكتاب وجوده).

وذكر أن ابن النديم أثبت وجوده ورد على منكريه، وابن النديم هذا ليس بثقة – كما سيأتي

أن شاء الله –

ومما يؤيد عدم وجوده ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله: (وأما جابر بن حيان صاحب المصنفات المشهورة عند الكيماوية؛ فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم والدين).

ثانياً: ولو أثبتنا وجوده، فإنما نثبت ساحراً من كبار السحرة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسيمياء والسحر والطلسمات، وهو أول من نقل كتب السحر والطلسمات – كما ذكره ابن خلدون.

الخوارزمي – محمد بن موسى الخوارزمي – [ت: ٢٣٢ هـ]:

وهو المشهور باختراع «الجبر والمقابلة»، وكان سبب ذلك – كما قاله هو – المساعدة في حل مسائل الإرث، وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ذلك العلم؛ بأنه وإن كان صحيحاً إلا أن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره.

والمقصود هنا؛ أن الخوارزمي هذا كان من كبار المنجّمين في عصر المأمون والمعتصم الواثق، وكان بالإضافة إلى ذلك من كبار مَنْ ترجم كتب اليونان وغيرهم إلى العربية.

الجاحظ – عمرو بن بحر – [ت: ٢٥٥ هـ]:

من أئمة المعتزلة، تنسب إليه «فرقة الجاحظية»، كان شنيع المنظر، سييء المخبر، رديء الاعتقاد، تنسب إليه البدع والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل: (يا ويح من كفّره الجاحظ).

حكى الخطيب بسنده؛ أنه كان لا يصلي، ورمي بالزندقة، وقال بعض المعلماء عنه: (كان كذاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس).

ابن شاكر – محمد بن موسى بن شاكر – [ت: ٢٥٩ هـ]:

فيلسوف، موسيقي، منجّم، من الذين ترجموا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد والحسن؛ منجمون فلاسفة أيضاً.

الكندي – يعقوب بن اسحاق – [ت: ٢٦٠ هـ]:

فيلسوف، من أوائل الفلاسفة الإسلاميين، منجّم ضال، متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه.

عباس بن فرناس [ت: ٢٧٤ هـ]:

فيلسوف، موسيقي، مغنٍ، منجّم، نسب إليه السحر والكيمياء، وكثر عليه الطعن في دينه،

واتهم في عقيدته، وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والموسيقى.

ثابت بن قرة [ت: ٢٨٨ هـ]:

صابئ، كافر، فيلسوف، ملحد، منجّم، وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان؛ ماتوا على ضلالهم.

قال الذهبي رحمه الله تعالى: (ولهم عقب صابئة، فابن قرة هو أصل الصابئة المتجددة بالعراق، فتنبه الأمر).

اليعقوبي - أحمد بن اسحاق - [ت: ٢٩٢ هـ]:

رافضي، معتزلي، تفوح رائحة الرفض والاعتزال من تاريخه المشهور، ولذلك طبعته الرافضة بالنجف

الرازي - محمد بن زكريا الطبيب - [ت: ٣١٣ هـ]:

من كبار الزنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة - وهي الرب والنفس والمادة والدهر والفضاء - وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنّف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة - نعوذ بالله من ذلك -

البتّاني - محمد بن جابر الحراني الصابئ - [ت: ٣١٧ هـ]:

كان صابئاً. قال الذهبي: (فكانه أسلم). وكان فيلسوفاً، منجّماً .

الفارابي - محمد بن محمد بن طرخان - [ت: ٣٣٩ هـ]:

من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحاداً وإعراضاً، كان يفضّل الفيلسوف على النبي، ويقول بقدم العالم، ويكذّب الأنبياء، وله في ذلك مقالات في أنكار البعث والسمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه، نسأل الله السلامة والعافية.

المسعودي - علي بن الحسين - [ت: ٣٤٦ هـ]:

كان معتزلياً، شيعياً.

قال شيخ الإسلام عن كتابه «مروج الذهب»: (وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟).

المجريطي - مسلمة بن أحمد - [ت: ٣٩٨ هـ]:

فيلسوف، كبير السحرة في الأندلس، بارع في السيمياء والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السحر والطلاسم إلى العربية، وألف فيها «رتبة الحكيم» و«غاية الحكيم»، وهي في تعليم السحر والعياذ بالله، {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}، نسأل الله

السلامة.

مسكويه – محمد بن أحمد – [ت: ٤٢١ هـ]:

كان مجوسياً، فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضال، وخدم بني بويه الرافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها.

ابن سينا – الحسين بن عبد الله – [ت: ٤٢٨ هـ]:

إمام الملاحدة، فلسفي النحلة، ضال مضل، من القرامطة الباطنية، كان هو وأبوه من دعاة الإسماعيلية، كافر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم بالآخر.

مساوئ لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أو ذلك المخدوع حامل راية الإلحاد ذاك خليفة الشيطان
أعني ابن سينا ذلك المحلول من أديان أهل الأرض ذا الكفران

ابن الهيثم – محمد بن الحسن بن الهيثم – [ت: ٤٣٠ هـ]:

من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفهاً وإلحاداً وضلالاً، كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات.

ابن النديم – محمد بن اسحاق – [ت: ٤٣٨ هـ]:

رافضي، معتزلي، غير موثوق به.

قال ابن حجر: (ومصنفه «فهرست العلماء» ينادي على مَنْ صنفه بالاعتزال والزيع، نسأل الله السلامة).

المعرّي – أبو العلاء أحمد بن عبد الله – [ت: ٤٤٩ هـ]:

المشهور بالزندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين.

ذكر ابن الجوزي أنه رأى له كتاباً سماه «الفصول والغايات في معارضة الصور والآيات»، على حروف المعجم، وقبائحه كثيرة.

قال القحطاني رحمه الله تعالى:

تعسَ العميُّ أبو العلاء فإنه قد كان مجموعاً له العَمَيان.

ابن باجه – أبو بكر بن الصائغ، محمد بن يحيى – [ت: ٥٣٣ هـ]:

فيلسوف كأقرانه، له إلحاديات، يعتبر من أقران الفارابي وابن سينا في الأندلس، من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو وتلميذه ابن رشد.

الأدريسي – محمد بن محمد – [ت: ٥٦٠ هـ]:

كان خادماً لملك النصارى في صقليه بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى لؤماً وضلالاً.

وفي الحديث: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين).

ابن طفيل – محمد بن عبد الملك – [ت: ٥٨١ هـ]:

من ملاحدة الفلاسفة والصوفية، له الرسالة المشهورة «حي ابن يقظان»، يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة.

ابن رشد الحفيد – محمد بن أحمد بن محمد – [ت: ٥٩٥ هـ]:

فيلسوف، ضال، ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه «فصل المقال» و«مناهج الملة»، وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته؛ أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد أنتصر للفلاسفة الملاحدة في «تهافت التهافت»، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، وإلحادياته مشهورة، نسأل الله السلامة.

ابن جبير – محمد بن أحمد – [ت: ٦١٤ هـ]:

صاحب الرحلة المعروفة بـ«رحلة ابن جبير»، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشركية، وتعظيمه للصخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير.

الطوسي – نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن – [ت: ٦٧٢ هـ]:

نصير الكفر والشرك والإلحاد، فيلسوف، ملحد، ضال مضل، كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين، حاول أن يجعل كتاب «الإشارات» لابن سينا بدلاً من القرآن، وفتح مدارس للتنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم، نسأل الله العافية.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وكذا أتى الطوسي بالحرب الصريح بصارم منه وسل لسان
عَمَرَ المدارس للفلاسفة الإلى كفروا بدين الله والقرآن
وأتى إلى أوقات أهل الدين ينقلها إليهم فعل ذي أضغان

وأراد تحويل «الإشارات» التي هي لابن سينا موضع الفرقان
وأراد تمويل الشريعة بالنواميس التي كانت لدى اليونان
لكنه علم – اللعين – بأن هذا ليس في المقدور والإمكان
إلا إذا قتل الخليفة والقضاة وسائر الفقهاء في البلدان .
ابن البناء – أحمد بن محمد – [ت: ٧٢١ هـ]:
شيخ المغرب في الفلسفة والتنجيم والسحر والسيمياء.
ابن بطوطة – محمد بن عبد الله – [ت: ٧٧٩ هـ]:

الصوفي، القبوري، الخرافي، الكذّاب، كان جل اهتماماته في رحلته المشهورة؛ زيارة القبور والمبيت في الأضرحة، وذكر الخرافات التي يسمونها «كرامات» وزيارة مشاهد الشرك والوثنية، ودعائه أصحاب القبور وحضور السماعات ومجالس اللهو، وذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك.

وفي نهاية الكتاب قال:

«لذلك فاعلم أن ذل المسلمين اليوم ليس لجهلهم بهذه العلوم ، فإنهم كانوا في القرون المفضلة ـ وقت الحضارة ـ أجهل بها، ولكن هذه الذلة ضربها الله عليهم لما أعرضوا عن دينه، أن تسليط الكافرين اليوم على المسلمين إنما هو فتنة لهم وعقوبة ، والله أعلم .

وبعد: فإن السبيل للرجوع إلى حضارة الإسلام الأولى إنما تكون باتباع السلف في العناية بالأعمال الصالحة والعلوم الشرعية والقيام بالجهاد والزهد في الدنيا .

وقد أخطأ كلَّ الخطأ من رأى أن السبيل إنما يكون بأخذ صناعات الكافرين وتعلمها وتعليمها ونشرها بين المسلمين، لأنه لا بد من معرفة الداء قبل أن يوصف الدواء، وداء المسلمين اليوم هو البعد عن دين الله وعن منهج السلف، فلو أنهم التزموا دين الله على منهج السلف لكان هذا الدواء بإذن الله تعالى»

السـؤال الآن: إذا كانـت هذه بالفعـل الثقافة التي يتلقاهـا أبناؤهم .... فأي جيل ننتظر؟ ومتى نخرج من ظلمات القرون؟؟

الإحالات التي قدمها ناصر الفهد مفصلة في كتابه المسـمى «حقيقة الحضارة الإسلامية» ولم نجد حاجة لإيرادها هنا، والكتاب متوفر على الانترنت، ويشار فيه إلى أنه من مطبوعات منبـر التوحيـد والجهاد، وهي دار غير معروفة، وقد طبع الشـيخ ناصر الفهـد كتبه من قبل في مكتبة أسد السنة في القاهرة.

وبعد...

فهذه دراسة في ٣١ شخصية إسلامية، ومجموعتين فكريتين، أعتبرها أثرت بشكل كبير في تنوير العقل الإسلامي واجتهدت أن يطلق الفكر والعقل إلى الغاية وأن تجمع في بناء الحياة بين قيم الإيمان ومسؤولية العقل وروح الإنسان.

أنني أعلم أنني لم أوف هذه القامات حقها الذي تستحق، ولكنه جهد المقل، وقد رأيت من المفيد أن يطلع المسلم اليوم على هذه الشخصيات المؤثرة في تاريخنا وحاضرنا الإسلامي.

أن القلق الذي يراود شباب الوعي الإسلامي اليوم عندما يقرؤون ما نكتب أنه إذا كانت هذه الحقائق التي نطرحها في إخاء الأديان والمذهب الإنساني في الإسلام، ولزوم تقديم العقل على النقل، إذا كانت صادقة كما تدعي فلماذا تنكب عنها كل العلماء عبر التاريخ؟

وعلى براءة السؤال فإنه لا جواب لهذا التساؤل حتى نحدد من هم العلماء، وحين يكون الجواب عنه بأنهم رجال الدين من الواعظين والخطباء، فالسبب مفهوم تماما، فالقوم قد حددوا مصادرهم بظاهر الكتاب والسنة، وهم في الجملة ينتمون لأهل الرواية، وعلى سلامة مقصدهم ولكنهم لم يتقبلوا مناهج الفقهاء المستنيرين في الاجتهاد والاستنباط والاستحسان والاستصلاح، ولا يرون في النصوص منسوخاً ولا متشابهاً ولا مبهماً ولا مقيداً ولا مخصصاً، حيث يرجعون في كل تأويل إلى أهل الرواية دون سواهم.

ولكن حين يكون المقصود بالعلماء هم الأئمة الذين يملكون حججاً برهانية وعقلية وموضوعية لتطوير الخطاب الديني وإنجاز الوئام مع العالم، ويؤمنون بتعدد مصادر الشريعة واعتبار العقل مصدراً أساسياً فيها، فإن الجواب سيختلف تماماً.

فهذه الأسماء التي نتخيرها هي أسماء كبيرة بالغة الشهرة والتأثير في التاريخ الإسلامي، وقد كان لكل علَم منهم مؤيدون ومعارضون وهذا شأن الحياة، ولكن يجب القول أنهم حققوا على نطاق واسع قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير في المجتمع الإسلامي، وباتوا بالفعل رموز النهضة والحضارة الإسلامية، وقد تم في مجتمع الرواية تغييب اجتهاداتهم الجريئة عن عمد، وأرجو أن يسهم هذا الكتاب في إحياء فقههم واجتهادهم، ومنح شباب هذه الأمة الشجاعة

والمبادرة للتفكير بحرية، واختيار ما هو جليل وجميل لواقع الأمة ومستقبلها.

ليس الوحي فقط هو المقدس بل الإنسان أيضاً، وليس الماضي فقط هو المقدس بل المستقبل هو الذي ينبغي أن يكون مقدساً.

أنني أقرأ سير هؤلاء الأعلام وأرى أنهم في جرأتهم وشجاعتهم وإصلاحهم جديرون أن يكونوا قدوة للمسلمين ومنهاجاً، وأرجو أن يجد الجيل الجديد في هذه السير النبيلة ما يغني أيامهم وحياتهم بالأمل والعطاء.

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

الفهرس

- تمهيد ٥
- عمر بن الخطاب ١٥
- عائشة بنت أبي بكر ٣١
- أسماء بنت عميس ٤١
- أسماء بنت أبي بكر ٤٧
- الشفاء بنت عبد الله ٥٣
- سكينة بنت الحسين ٥٩
- عائشة بنت طلحة ٦٧
- رابعة العدوية ٧٣
- عمر بن عبد العزيز ٧٩
- غيلان الدمشقي ٩١
- أبو حنيفة ٩٧
- المعتزلة ١٠٩
- الفارابي ١١٥
- ابن سينا ١٢١
- إخوان الصفا ١٢٧
- البيروني ١٣١
- بن حزم ١٣٧
- ابن طفيل ١٤٣
- ابن رشد ١٤٩

- ابن عربي ١٥٧
- جلال الدين الرومي ١٦٥
- الطوفي ١٧٧
- الأمير عبد القادر الجزائري ١٨١
- جمال الدين الأفغاني ١٨٥
- محمد عبده ١٨٩
- محمد إقبال ١٩٩
- مالك بن نبي ٢٠٧
- روجيه غارودي ٢١١
- حسن الترابي ٢٢٣
- الصادق المهدي ٢٣١
- وحيد الدين خان ٢٤١
- جودت سعيد ٢٤٧
- روبرت كرين ٢٥٥
- خاتمة في موقف التشدد من أعلام الحضارة الإسلامية ٢٥٩